نبيل خالد الآغا

أنبياء الله في فلسطين

أنبياء الله في فلسطين

أنبياء الله في فلسطين / تاريخ ، دين
نبيل خالد الآغا / مؤلف من فلسطين
الطبعة الأولى ، ٢٠٠١
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
الإشراف الفنّي :
محمد سعيد ®
الصفّ الضوئيّ :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو / بيروت ، لبنان

﴿ولقد أرسلنا رسُلاً من قبلك منهم مَنْ قَصَصْنا عليك ومنهم مَنْ لم نقصُصْ عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أَمْرُ الله قُضِيَ بالحقِّ وخَسِرَ هنالكَ المُبْطلون﴾ .

صدق الله العظيم

الآية رقم ٧٨ من سورة غافر

الإهداء

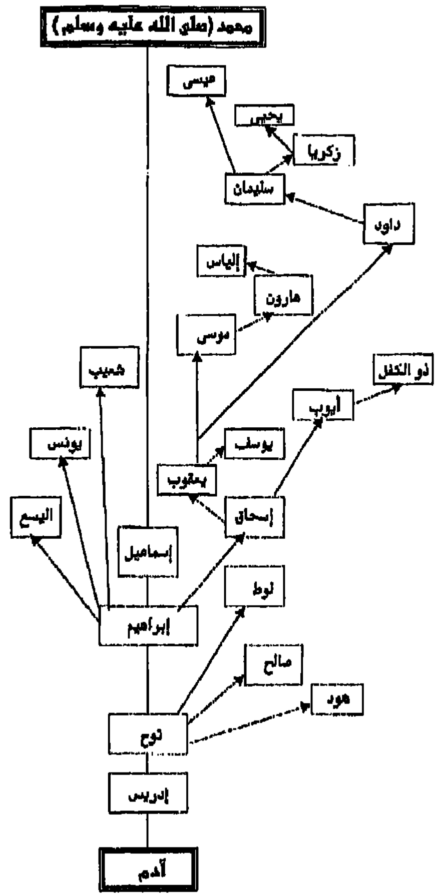
سيدي ومولاي محمد بن عبدالله . . يا نور خلق الله
سلام الله عليك وعلى آلك ورحمته وبركاته :

أقف اللحظة بين يديك الطاهرتين . . لحظة أبيع العمر كلَّه بها ، أناجيك . . وقد تزاحمت الكلمات وانثالت النبضات على قلبي ولساني ، ولكن - لفرط عشقي ، وعمق تهيامي - عجزتُ عن صياغتها على هذا الامتداد الورقي ، لأنك يا قرّة العين والقلب والكبد أسمى من كل النعوت ، وأجلُّ من كل الصفات .

الصفحات القادمة ترجمات متواضعة وكليلة لبعض الكرام من إخوانك الأنبياء ، الذين عاشوا على الأرض الفلسطينية المقدسة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سماوات طباقاً ، وجعلها أرض رباط وجهاد منذ شرّفها الإسلام وإلى أن تقوم الساعة . وقد صلّيْتَ فيهم إماماً في المسجد الأقصى المبارك ليلة إسرائك ومعراجك ، مبايعة منهم لك صلى الله عليك وعليهم جميعاً ، وإيذاناً من الحق جل جلاله بأن ميراث الرسالات السماوية العظيمة قد انتهى إليك وإلى أمتك يا حبيب العالمين ورب العالمين ، ويا شفيعنا يوم المشهد العظيم .

والسلام الرحماني عليك يا أمين الرسالة الخاتمة ، وعلى إخوانك سفراء الله وأصفياء خلقه ، وتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

نبيل خالد الآغا
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



الأنبياء والرسل { عليهم الصلاة والسلام }

مقدمة

قبيل نحو شهرين من بدء الشهر الرمضاني . . . شهر المكرمات والخيرات لعام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م استمزجني أخي الأستاذ ناصر العثمان رئيس تحرير جريدة الراية اليومية القطرية في الكتابة عن حياة الأنبياء الكرام الذين عاشوا في فلسطين «لكي تبقى فلسطين حية ونابضة في قلوب العرب والمسلمين» .

وقد شدني الموضوع ، واستهوتني شهوة الكتابة فيه ، فشرعت في القراءة والبحث والدرس ، وسرعان ما اكتشفت أنني أسير في لجة عاتية من مختلف التفسيرات والتأويلات والإسرائيليات ، مما اضطرني للتوقف عدة ساعات أو أيام أحيانا متفكراً متأملا ومتدبراً . ولا أخفي على كرام القراء أنني فكرت أحيانا بالاعتذار عن تقديم الموضوع برمته إيثاراً للدعة والسلامة!

لكن سرعان ما أدركتني رحمة الله تعالى ، فنشطت همتي ، وقويت عزيمتي ، واستلهمت الكثير من العظات والعبر من حيوات الأنبياء الأطهار أنفسهم . وصرت تواقا لمواصلة المعرفة ، وإفادة كرام القراء بما سيقرؤون ويستمتعون خاصة وهم يعايشون الشهر الرمضاني بأرهف حالاتهم النفسية ، وأكثرها شفافية وصدقا مع الله . والذات .

وقد حاولت الابتعاد عن التأويلات والعنعنات التى تهم المتخصصين فقط ، ولكنها لا تهم عابري السبيل من القراء غير المتخصصين الذين يودون تلقي المعلومة بأيسر السبل وأقل المجهودات ، فلا يهمهم مثلا أن هذه المعلومة أو هذا القول أو الحديث نقله فلان عن فلان عن ابن فلان . . فكل هؤلاء «الفلانين» لا شك أصحاب فضل وفضائل وجزاهم الله خيرا لما قاموا به ، لكن عابري السبيل من القراء والمطلعين في غنى عن هذه المنظومات التى تعرقل الوصول إلى المعلومة ، ولا تسهل الوصول اليها ، وخاصة وأن العالم كله يعيش

مراحل متسارعة الإيقاع في كافة المناحي الحياتية .

وعمدت أثناء سرد الاحداث النبوية إلى عرضها بأسلوب مبسط ، مدعم بالآيات القرآنية المناسبة . وإذا ما تصادف وجود كلمة قرآنية بحاجة إلى تفسير ، وضعته بين قوسين صغيرين حتى يتجنب القارئ مشقة التفكير أو التأويل في المعنى .

كما عمدت إلى وضع النصوص التوراتية بين قوسين كبيرين للاستدلال عليها أثناء الاستشهاد بها .

وسيكتشف القراء خلال قراءتهم لحيوات أنبياء الله في فلسطين أنني لم أكن مجرد مسجل ومكرر لما سبق أن سجله كرام العلماء والمفسرين الذين سبقونا إلى هذا الشرف ، والذين هم أكثر كفاءة ومقدرة وابحاراً ، بل إنني حاولت الاجتهاد ما وسعني أفق الاجتهاد ، ويتضح ذلك في الاسلوب وطريقة العرض ، وطرح الأفكار وتوليد المعانى ، فإذا أصبت فلي - بإذن الله - أجران هما أجر النية الصادقة والحق الموضوعي ، وان أخطأت فلي - بإذن الله - أجر واحد هو أجر النية الصادقة . فأنا بعون الله رابح في كلا الحالين ، وسيربح - إن شاء الله - معي كل قارئ بنية صادقة ، وقلب سليم .

فهذا العبد المتلهف لنيل رحمة ربه ، ليس أزهريا ، ولا زيتونيا «نسبة إلى جامعة الازهر ، وجامعة الزيتونة» ، بل مجرد كاتب صحفي مجتهد حاول - بتحريض حميمي - تسويق بضاعته الخيرة في شهر الخيرات والمكرمات ، وعزاؤه أنه بذل جهداً وأمضى وقتا لإنجاز هذا العمل المتواضع الذى يستشعر القصور والنقص فيه ، لذلك فهو بحاجة إلى توجيهات الموجهين ، ونصائح الناصحين عساه يقترب في نهاية المطاف إلى أدنى درجات القبول عند الله تعالى ثم عند القراء .

اطلعت على العديد من كتب التفسير القرآني . وقصص الأنبياء الكرام قديمها وحديثها ، ووجدتني معجباً ومتأثراً بكتاب «أنبياء الله»

للأستاذ أحمد بهجت بالنظر لما امتاز به من حسن الطرح ، وبساطة العرض ، ووضوح المعنى .

ومن المستجدات في الموضوع أنني عمدت في بعض الأحايين إلى ربط الماضي السحيق بالحاضر الجديد ، فعندما تحدثت مثلا عن سيرة أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ذكرت انه مدفون في مدينة «الخليل» التى حملت اسمه ، وذكرت ما تتعرض له هذه المدينة التاريخية وسكانها من ممارسات الاحتلال الصهيوني الذى جثم على صدرها بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، وما برح جزء منها قابع تحت النير الصهيوني ، بينما تتحكم الآلة العسكرية الصهيونية الباطشة في بوابات الدخول والخروج بالحرم الإبراهيمى الشريف حتى بعد توقيع «بروتوكول الخليل» الذى أبرمته السلطة الوطنية الفلسطينية مع إسرائيل عام ١٩٩٧م .

يهدف كل مؤرخ أو كاتب - لتراجم الأنبياء الكرام - إلى الدعوة العامة للاقتداء بهم باعتبارهم قمم النقاء البشري المطلق على الأرض ، والذين اختارهم الحق تبارك وتعالى ليكونوا سفراءه إلى الناس ، ولعلمه السابق أنهم أطهر من في الوجود ، وأنقى من عاش على الارض ، فأضافهم الله إلى نفسه فسماهم «رسل الله» . وهو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته . ويعتبر إرسال الله للأنبياء والمرسلين نعمة عظيمة من جملة النعم الربانية التي لا يعدها عاد ، ولا يحصيها محص ، فالعقل البشري عاجز عن إدراك أسرار الوجود ، وقاصر عن معرفة كنه الشرائع التى تنفعه ، ومن هنا أتم الخالق على المخلوق كامل أنعمه ، فأرسل سفراءه مبشرين ومنذرين لكيلا يكون للناس حجة على الله بعدئذ .

ولقد كان أنبياء الله جميعا من لدن أدم إلى الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وسلم مسلمين ، والإسلام في معناه العام تسليم الأمر كله إلى الله ، وجها وعملاً ونية ، وإفراداً بالوحدانية . وإقرارا بالعبادة . وهذا هو

المعنى الشمولي للكلمة التى نعنيها ، ولا نعني بها ذلك النظام الاجتماعي العظيم الذى جاء به خاتم الأنبياء وإمامهم محمد بن عبدالله ، برغم أن الجوهر العقائدي بقي على حاله فلم يتغير ولم يتبدل .

ويقرر القرآن الكريم حقيقة أن جميع الأنبياء والرسل كانوا مسلمين ، وكانوا يدعون إلى الإسلام . فعن شيخ الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام تقول الآية الكريمة من سورة آل عمران :

﴿مَا كانَ إبراهيمُ يَهودِيًا ولا نَصْرانِيًا ولكِنْ كانَ حَنيفاً (مائلا عن الباطل إلى الدين الحق) مُسْلماً (موحدا) وَمَا كانَ مِنَ المشْرِكينَ﴾[1] .

وفي شأن نوح عليه الصلاة والسلام ورد في سورة يونس قوله لقومه : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلى اللّهِ وأُمِرْتُ أَنْ أكُونَ مِنْ المسْلمينَ﴾[2] .

وكذلك دعا موسى عليه الصلاة والسلام قومه إلى الاسلام كما ورد في سورة يونس : ﴿وقالَ موسى يا قومِ إنْ كُنتُم آمَنْتُمْ بالله فَعليْهِ تَوكَّلُوا إن كُنتم مُسْلمين﴾[3] .

ونفس الحقيقة تنطبق على عيسى عليه الصلاة والسلام ، فقد دعا قومه إلى الإسلام ، فاستجاب له أنصاره ، وطلبوا منه أن يشهد لهم بحسن اسلامهم بعد أن آمنوا بالله تعالى وأصبحوا أنصاره .

وهذا ما تحمله إحدى آيات سورة آل عمران في قوله عز وجل :

﴿فلمّا أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكُفْر قالَ مَنْ أنْصَاري إلى اللّه قَالَ الحَوارِيُّونَ (أنصار عيسى وخواصه) نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّه وَاشْهَدْ بِأنّا مسلمون﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية رقم ٦٧ .

(٢) سورة يونس ، الآية رقم ٧٢ .

(٣) سورة يونس ، الآية رقم ٨٤ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية رقم ٥٢ .

وأخيراً . . فهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يدعو الله ربه أن يبقيه مسلما حتى يتوفاه ويلحقه بالصالحين .

وورد ذلك في سورة يوسف بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ربِّ قد آتيتني من المُلك وعلّمْتَني من تأويلِ الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفَّني مُسْلما وألْحِقْني بالصالحين﴾ . [1]

وإذا كان ثمة اختلافات في معجزات الأنبياء ، وفي الأزمان التي عاشوا فيها ، والأقوام التى بعثوا إليها ، إلا أن هناك قاسما مشتركا أعلى تذوب عنده كل الاختلافات ، وهو المنهج الاساسي الذى تنطلق منه كافة الرسالات السماوية المتمثل في وحدانية الله ، وترك عبادة الأوثان ، قال تعالى : ﴿وإنْ من أمة إلا خَلا فيها نَذير﴾[2] .

وقال جل جلاله : ﴿ولقد أرسلنا من قبلكَ رُسُلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبَيِّناتِ﴾ .[3]

وقد قرر القرآن الكريم بوضوح أن كافة الرسل الذين أرسلهم الله تعالى قبيل بعثة الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانوا مرسلين إلى أقوامهم بشكل خاص ، أما الحبيب المصطفى فهو النبي الأوحد الذى بعثه الحق للناس كافة دونما استثناء وذلك اعتمادا على النص القرآني الذى ورد في سورة «سبأ» : ﴿وما أرسلناكَ إلا كافة للناسِ بشيراً ونذيراً﴾ .[4]

ومن أركان الرسالة الإسلامية الخاتمة اعترافها بالرسالات السماوية

---

(١) سورة يوسف ، الآية رقم ١٠١ .

(٢) سورة فاطر ، الآية رقم ٢٤ .

(٣) سورة الروم ، الآية رقم ٤٧ .

(٤) سورة سبأ ، الآية رقم ٢٨ .

السابقة ، وبالكتب المقدسة التى جاء بها الرسل ، لأن كل الرسالات من عند الله تعالى ، وما تلك الكتب إلا تعليمات ربانية حقة ما لم يلحقها تحريف .

وتعتبر الرسالة الإسلامية جماع كل الرسالات السابقة ، بل وتزيد عليها وذلك مصداقا لقول الحق :

﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاقَ ويعقوب والأسباطِ وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾ [1] .

ويتضح المعنى الإيماني بالرسالات السماوية وبالرسل السابقين في الشريعة الاسلامية أيضا في الآية ما قبل الأخيرة من سورة البقرة وهى قوله تعالى : ﴿آمنَ الرسولُ بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنونَ كلٌّ آمن بالله وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعْنا وأطعْنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ .[2]

«إن الاسلام يحتم على المسلم الا يفرق بين الرسل ، وعلى هذا يدخل الناس جميعا الإسلام ، وكل يعرف أن دينه موضع احترام ، وان نبيه مكان إجلال ، والكتاب الصحيح الذي أنزل على رسوله لايزال موقع تقدير ، بيد ان الإيمان بما جاء به الرسل السابقون يحتم أن نصل إلى حقيقة ما جاءوا به وذلك يقتضى أن نزيل الخرافات والترهات التي أدخلها بعض أتباع هذه الديانات على دياناتهم» .

ولنتدبر قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿كذلك أرسلناكَ في أُمّة قد خلَتْ من قبلها أمم﴾[3] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم ١٦٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٨٥ .

(٣) سورة الرعد ، جزء من الآية رقم ٣٠ .

فالملاحظ أن التعبير القرآني جاء في غاية الدقة بالقول بإرسال النبي محمد «في أمة» ، دلالة على أن الرسالة موجهة لأية أمة من أمم الأرض دون تحديد لهوية بعينها . وهذا دليل على عالمية الدعوة الإسلامية .

أما بشأن اختصاص كل رسول بهداية القوم الذين بعثه الله فيهم ، فذلك واضح في عدة آيات بينات منها قوله تعالى مخاطبا حبيبه المختار صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبيّنات﴾ .(١)

وحدد القرآن الكريم مهمة بعض الأنبياء بصورة مباشرة ، كما جاء في سورة هود بالنسبة لمهمة نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين﴾(٢) .

وكذلك الشأن بالنسبة لمهمة موسى عليه السلام : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين﴾ . (٣)

والشيء نفسه ينطبق على عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنيّ رسولُ الله إليكم مصدّقا لما بين يديّ من التوراة﴾ . (٤)

●●●

الأنبياء والرسل كثيرون جدا ، والمذكورون في القرآن الكريم خمسة وعشرون وهم :

آدم – إدريس – نوح – هود – صالح – إبراهيم – لوط – إسماعيل –

---

(١) سورة الروم ، الآية رقم ٤٧ .

(٢) سورة هود ، الآية رقم ٢٥ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية رقم ٤٦ .

(٤) سورة الصف ، الآية رقم ٦ .

إسحاق - يعقوب - يوسف - أيوب - اليسع - ذو الكفل - يونس - شعيب - موسى - هارون - إلياس - داود - سليمان - زكريا - يحيى - عيسى - محمد .

وقد احتفى القرآن بذكرهم جميعا ، حيث جاء ذكر :

آدم (٢٥ مرة) ، إدريس (مرتين) ، نوح (٣٣ مرة) ، هود (أربع مرات) ، صالح (ثمان مرات) ، إبراهيم (٦٩ مرة) ، لوط (٢٧ مرة) ، إسماعيل (١٢ مرة) ، إسحاق (١٧ مرة) ، يعقوب (١٦ مرة ، وذكر بلقبه إسرائيل (٤٣ مرة) ، يوسف (٢٧ مرة) ، أيوب (أربع مرات) ، إليسع (مرتين) ، ذو الكفل (مرتين) ، يونس (أربع مرات) ، شعيب (سبع مرات) ، موسى (١٣٦ مرة) ، هارون (٢٠ مرة) ، إلياس (مرتين) ، داود (١٦ مرة) ، سليمان (١٧ مرة) ، زكريا (سبع مرات) ، يحيى (خمس مرات) ، عيسى (٣٥ مرة ، وذكر بلقبه «المسيح» إحدى عشرة مرة ، وذكرت أمه مريم ٣٤ مرة) . أما حبيبنا (محمد) فقد ذكر باسمه الصريح أربع مرات ، عدا لقبي الرسول والنبي .

وكل هؤلاء الأنبياء الكرام محل تقدير وتبجيل لكل مسلم ، حيث أن المسلم لا يفرق بين أحد منهم إطلاقاً ، ويعتبر خارجاً عن الإسلام إذا قال سوءاً في حق أي منهم . عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام .

وقد قص الله تعالى قصص هؤلاء الأنبياء في القرآن الكريم ، وتفاوتت تلك القصص في طولها وقصرها . ووردت الإشارة إلى أسماء الغالبية منهم في ثلاث آيات من سورة النساء ، وأشارت إحداها إلى وجود قصص أخرى لمرسلين غير واردة في القرآن الكريم .

قال الحق تبارك وتعالى :

﴿إنّا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبٌ والأسباط (اولاد يعقوب أو اولاد اولاده) وعيسى وأيوبَ ويونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينا داود زبورا

(كتابا فيه مواعظ وحكم) . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نَقْصُصْهُم عليك وكلّم الله موسى تكليما ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة (عذر) بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما ﴾[1] .

قال ابن كثير في تفسير الآية الأخيرة وهي الرابعة والستين بعد المائة من سورة النساء :

﴿ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ : أي خَلْقاً آخرين لم يذكروا في القرآن ، وقد اختلف في عدد الأنبياء والمرسلين ، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل ، وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء؟

قال : «مائة وأربعة وعشرون ألفا»

قلت : يا رسول الله : كم الرسل منهم؟

قال : «ثلاثمائة وثلاثة عشر» .

قلت : يا رسول الله : من كان أولهم؟

قال : آدم

قلت : يا رسول الله نبي مرسل؟

قال : «نعم خلقه الله بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبيلا ا هـ» .

ومما يلفت الانتباه كثرة الأنبياء بين بني إسرائيل حتى وجد منهم في العصر الواحد نحو أربعمائة نبي كما جاء في سفر الملوك الاول . ويرى الاستاذ عباس محمود العقاد أن هؤلاء الأنبياء الكثر يختلفون كثيراً عن كبار الأنبياء مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم في ان هؤلاء الأنبياء الكبار أقدموا على أمور صعبة وشاقة ، وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها من مثل تحطيم آلهة ، وتسفيه أحلام ، وتغيير عقائد ، فضلا عن أن الفترة بين نبي وآخر كانت تطول

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم ١٦٣ .

لتبلغ مئات السنين مما يدل على أن ظهور الانبياء حادث جلل لا يتكرر في عمر الإنسان مرتين ، في حين أن أحوال النبوءة وبني إسرائيل تخالف الصورة التى يقدمها إلينا كبار الانبياء من حيث الدعوة التي يقومون بها ، والصدام الذى يتعرضون له ، والفترة التى تفصل بين نبي وآخر .

ويوجد حديث شريف يحدد بصورة واضحة مهمة الأنبياء بين بني إسرائيل ويعين مكانهم ضمن المجموع العام للسكان وخاصته ، فيروى عن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم قوله : «علماء أمتي كأنبياء بنى اسرائيل» ، ومعنى ذلك أن مهمة النبى في شعب إسرائيل لا تتجاوز مهمة العالم الفقيه في الأمة الإسلامية مجرد وعظ وإرشاد وإصلاح ، ودعوات لعمل الخير ، وتأييد للعقائد والمبادئ السامية .

الفرق بين النبي والرسول

من هوالنبي؟ ومن هو الرسول؟

كلمة «النبي» مشتقة من مادة النبأ والنبوءة ، والمعنى العربي الذى تؤديه هذه الكلمة لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى ، فهي تجمع معاني الكشف ، والوحي والإنباء بالغيب ، والإنذار والتبشير ، وهى مهمات عديدة تؤديها اللغات الأخرى بكلمات عديدة .

وقد ذكرت كلمة «النبي» «المعرفة بالألف واللام» ثلاثا وأربعين مرة في القرآن الكريم .

وورد في معجم لسان العرب لابن منظور تعريف للنبي بأنه : العَلَم من أعلام الأرض التى يُهتدى بها ، قال بعضهم : ومنه اشتقاق النبي لأنه أرفع خلق الله ، وذلك لأنه يُهتدى به .

وأوردت الموسوعة العربية الميسرة تعريفا للنبي بأنه «من يتلقى نبأً من الله وهو إنسان ذكر أوحى الله اليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، بعكس الرسول ، والأنبياء كثيرون وخاصة في بني إسرائيل ، وفي الكتاب المقدس : الأنبياء هم قادة إسرائيل الدينيون» .

من هو الرسول؟

أما الرسول فهو المرسَل «بفتح السين - للمذكر والمؤنث والواحد والجمع» . وفي التنزيل ﴿إنّا رسول رب العالمين﴾ .[1]

وأوردت الموسوعة العربية الميسرة تعريفا بالرسول فقالت : الرسول : لغة : مبعوث . واصطلاحاً : من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فله شريعة ، وقد يكون معها كتاب ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [2] ، وكل رسول نبي ولا عكس . والرسل معصومون من الزلل

(١) سورة الشعراء ، من الآية رقم ١٦ .

(٢) سورة المائدة ، من الآية رقم ٦٧ .

في رأي الأغلب ، ويرى فريق أن العصمة لله وحده» .

ومعنى ذلك وجود فرق بين الرسول والنبي .

فأهل العلم يقولون ان النبي هو من أوحى الله اليه بشرع ولم يأمره بتبليغه بل يعمل به في نفسه دون إلزام بالتبليغ .

أما الرسول فهو من أوحى الله اليه بشرع وأمره بتبليغه والعمل به ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا .

وسنلاحظ من خلال الصفحات التالية أن عدداً كبيراً من الأنبياء عاش في فلسطين ، فلا غرابة إذن أن تشتهر بأنها أرض الأنبياء . ونرى ضرورة التذكير بأن نبي الله يعقوب هو أول أنبياء بني إسرائيل ، لأنه هو نفسه كان يدعى «اسرائيل» ومن نسله «الأسباط» جاءت غالبية الأنبياء وكان آخرهم عيسى بن مريم آخر أنبياء بني اسرائيل ، ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى خاطب كل أتباع هؤلاء الأنبياء بقوله تعالى : «يا بنى اسرائيل» ، ولم يخاطبهم أبدا بـ« يا بنى يعقوب» ، وهناك بعض الأنبياء الإسرائيليين لم يعيشوا في فلسطين ولم يدخلوها وفي مقدمتهم موسى وهارون عليهما السلام .

أما بخصوص عصمة الأنبياء ، فكما أن لهم معجزات معينة فلهم أيضا عصمات معينة ، بمعنى أنهم لا يرتكبون خطيئة ولا خطأ ولا زللا لا قبل بعثاتهم ولا بعدها لان الله تعالى قد أهلهم ليكونوا سفراءه في الأرض ، واصطفاهم من بين كافة خلائقه ، ورباهم تربية خاصة ، وعلمهم تعليما خاصا ، فهو تعالى أعلم حيث جعل رسالته كما أنه تعالى أيدهم بالمعجزات والخوارق الخاصة بكل منهم ، . ويجب النظر إلى تلك المعجزات بالمقياس الزماني الخاص بهم ، وتقدير الظروف الحياتية التي كانوا يعيشون فيها بين أقوامهم ، مع التأكيد بأن تلك المعجزات والخوارق ستبقى «معجزات وخوارق» خاصة لا يقوى عليها إلا سفراء الله وحدهم دون سواهم .

وقد تطورت المعجزات بتطور البشرية ذاتها

فعندما خلق الله تعالى الأرض ومن عليها قدّر سبحانه الطور الابتدائي الذي يعيشه الجنس البشري ، وما يستلزم ذلك الطور من شوق جارف للمعجزات الحسية الخارقة ، فساق أنبياءه ليأتوا بها إشفاقاً ورحمة منه على عباده ، ودغدغة لعواطفهم الطفولية .

وعندما خطت البشرية خطوات متقدمة أتت المعجزات انسجاماً مع ذلك التقدم ، ومتسقة مع نضج الناس وتقدمهم .

أما عندما نضج العقل ، وتبوأت الكلمة مكانتها السامقة في عقل وقلب البشرية . أتى الله تعالى بكتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليكون معجزة المعجزات الأبدية الخارقة الذي حمله آخر الانبياء وسيد البشرية بلا منازع حبيبنا وشفيعنا محمد ﷺ ، وقد تحدى الخالق جل جلاله الإنس والجن أن يأتوا بسورة منه وقطع بعجزهم عن فعل ذلك لا حاضرا ولا مستقبلاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وقد جاءت المعجزة القرآنية متوائمة مع الرسالة القرآنية .. توحدت الرسالة بالمعجزة وتوحدت المعجزة بالرسالة . وهذه ميزة إسلامية تميز القرآن ومن حملوه ، عن باقي الرسالات السماوية ومن حملوها .

فمن الأنبياء من جاءت معجزته في زمن ساد فيه السحر والشعوذة ، فبعث الله سفيره موسى عليه السلام فتحدى قدراتهم ومهاراتهم بعصا عادية سرعان ما تحولت بقدرة الله تعالى إلى ثعبان هائل بهر الأبصار وأرجف القلوب ، وابتلع بضاعة السحرة التي استعملوها في تدبير سحرهم ، ولم يملكوا أمام هذا الموقف المرعب إلا الإيمان المطلق بالله تعالى .

ومن الأنبياء من جاءت معجزته في عصر سادت فيه الحكمة ، وانتشر الطب ، فأرسل الله سفيره عيسى بن مريم عليه السلام فتحدى

حكمتهم وطبهم . . فعمل بقدرة الله تعالى على شفاء المصابين بأمراض مزمنة ، فأبرأ الأكمه (الذي يولد أعمى ولا سبيل لعلاجه) والأبرص والمجذوم ، وأحيا الميت وصنع من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فصار طائراً عادياً .

ومن الانبياء من كانت معجزته ناقة «غير عادية» أضافها الله لنفسه فوصفها بأنها «ناقة الله» قيل إنها انشقت من الجبل وكانت تدر لبنا تشرب منه قبيلة ثمود بأكملها وذلك في ذات اليوم الذي كانت تشرب فيه الماء فلا يبقى من الماء شيء ليشرب منه قوم نبي الله صالح عليه السلام .

ونحمد الله تعالى أن قص علينا أنباء أنبيائه ، ولولا ذلك ما عرفنا حقيقتهم ولضاعت علينا فرص عظيمة لمعرفتهم معرفة حقة . ولتشعب واتسع مجال التحريف والتلفيق لدى بعض أتباع الديانات السماوية . وقد تجاوز الأمر حدود العقلانية عندما عمد محرفو التوراة إلى تجريم الأنبياء وتأثيمهم وإغراقهم في الخطايا والذنوب مثلهم في ذلك مثل بعض الناس المنحرفين من عامة البشر . ويهدف مزورو التوراة من وراء ذلك إلى التخفيف عن أنفسهم ملامة الوقوع في الخطايا والآثام ، وإلا فهل يصدق امرؤ عاقل أو نصف عاقل أن نبياً كريماً من أنبياء الله يحتسي الخمر ويرتكب الفاحشة بابنتيه الطاهرتين؟! ونبي كريم آخر يرسل أحد قادته العسكريين إلى جبهة القتال ليخلو له الجو الاجتماعي ويضاجع زوجته الجميلة ؟!

وفي الاتجاه المعاكس نرى بعض أتباع الطوائف النصرانية قد تجاوزوا حدود العقلانية ، وبالغوا مبالغة ممجوجة ومرفوضة بتقديس نبيهم وتأليهه! ومرة أخرى نتساءل : هل يصدق امرؤ عاقل أو نصف عاقل أن نبي الله الكريم عيسى بن مريم هو ابن الله ، واعتبار المخلوق ابناً للخالق؟!

والعجيب الغريب أن يقال هذا الافتراء في حق هذا النبي الذي كان يتألم وينفي عن نفسه ذلك الافتراء ويقول لمن ألهوه : ﴿ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ . (١)

واعترافه صراحة بأنه عبد لله سبحانه وتعالى ، وقد كلفه بأداء الرسالة النبوية .

قال ربّنا العزيز الحكيم في سورة «مريم» :

﴿قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾(٢) .

وعيسى بن مريم هو النبي المتواضع الذي «كان يتوسد الخشن .. ويأكل الخشب ، وكان إدامه الجوع ، وسراجه بالليل القمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها ، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يلفته ، ولا طمع يذله ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه» (٣) .

ولولا وجود القرآن الكريم بين ظهرانينا لأضلتنا الأهواء والنزوات ، ولضاعت الحقائق والمسلّمات بين الإخلال والنقصان من جانب العابثين التوراتيين ، وبين الغلو والتطرف من جانب المتطرفين النصرانيين .

●●●

والآن حان موعد اللقاء النوراني المنتظر مع سفراء الله في أرض فلسطين .

وقبيل أن أَطرق الباب مستأذناً ، مستأنساً ، ومستلهماً ، أتوضأ

(١) سورة الزخرف ، الآية ، رقم ٦٤ .

(٢) سورة مريم ، الآية رقم ٣٠ .

(٣) (شرح نهج البلاغة للامام علي بن أبي طالب - ابن أبي الحديد - المجلد الثاني - دار إحياء التراث العربي - القاهرة) .

وأتطهر ، وأبسمل وأتعوذ وأحوقل ، وأصلي وأسلم على كافة أصفياء الله البررة ، وعلى حبيبنا وشفيعنا يوم الزحام الاكبر «أبي الزهراء» . صلوات وسلامات لا محدودة ولا مقطوعة على كافة السفراء الأطهار منذ بعثهم الله في الأولى ، وحتى يبعثهم في الثانية .

وسلامات الله وصلواته الأبدية على حامل وحي السماء للأرض ، إلى الروح الامين جبريل رسول الله إلى أنبياء الله .

.... وهنا لابد لي من الاعتذار .. بكل مفردات وأساليب الاعتذار في كل لغات ولهجات الكائنات .. لسفراء الله وأمنائه على تجرئي وقصوري معاً ، تجرؤي على الكتابة عنهم ، وقصوري المؤكد في إعطائهم جزءاً متواضعاً من حقوقهم علينا مهما كان جهدنا .

ونحمد الله تعالى حمدا كثيراً طيباً دائماً مباركا فيه ، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وقديم إحسانه ، حمداً بعدد خلقه ، ورضى نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ، وواسع رحمته .

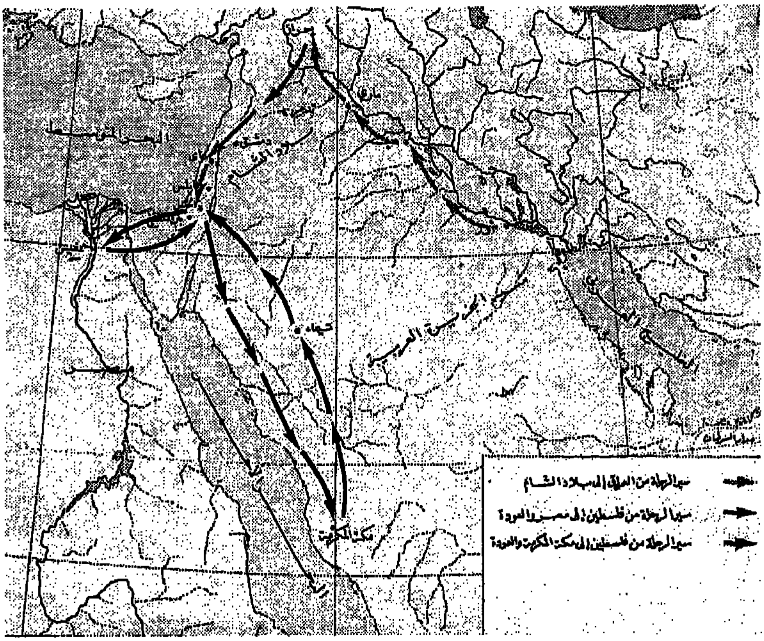
﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾ .

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملتَهُ على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ .

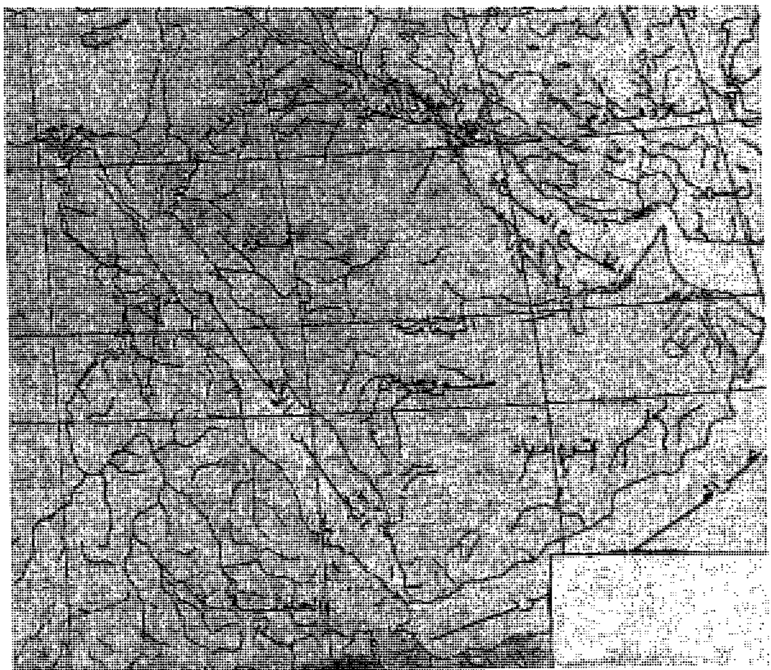
«أبو خلدون»
١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م

الباب الأول

نبي الله... إبراهيم



خط سير إبراهيم عليه السلام



أماكن العرب البائدة في شبه الجزيرة العربية



بعض الأماكن التاريخية القديمة

الفصل الأول
إبراهيم إمام التوحيد والموحدين

أحني هامتي إجلالا لهذا النبي العظيم الذي وصل بعظمته إلى الأنس بالله وحده .أحني هامتي تقديراً مطلقاً للنبي العظيم الذي اتخذه الله خليلاً وصديقاً ، ولم يتخذ قبله ولم يتخذ بعده خليلاً ولا صديقاً باستثناء حبيبنا المصطفى عليه وعلى كافة إخوانه الأنبياء الصلوات والسلامات الأبدية ، قال الحق تبارك وتعالى : ﴿واتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَليلاً «الخلة شدة المحبة»﴾ (١) .

وتتجلى عظمة إبراهيم كونه اول من نادى بفكرة التوحيد فهو إمام التوحيد والموحدين بلا منازع . كما أنه أول من تصدى للوثنية فازدرى أتباعها ، واحتقر آلهتها .

اتخذه الأنبياء الكرام أسوتهم الحسنة وقدوتهم العليا في السلوك والمنهج وقادهم إلى الخير المطلق دينا ودنيا وآخره . وهو أشرف أولي العزم بعد حبيبنا المصطفى الذين أخذ الله منهم ميثاقاً غليظاً والمنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء مصداقاً لقوله تعالى في سورة الأحزاب :

﴿وإذْ أخَذْنا من النبيين ميثاقَهُمْ ومنْكَ ومن نوح وإبراهيمَ وموسى وعيسى بن مريم وأَخذْنا منهم ميثاقا غليظاً (عهدا وثيقاً)﴾ .(٢)

وكذلك قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿شرع لكم من الدّينِ ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين (دين التوحيد ، وهو دين الإسلام) ولا تتفرقوا

(١) سورة النساء ، الآية رقم ١٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية رقم ٧ .

فيه ﴾ .[1]

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أكثر الأنبياء ذكراً بالاسم في القرآن الكريم حيث ورد اسمه تسعاً وستين مرة في ستة وعشرين سورة من بينها سورة تحمل اسمه بالذات ، وأكثرها في سورة البقرة . وهو خير ذرية آدم بعد حبيبنا المصطفى ، وذكره لا ينقطع على لسان كل مؤمن في كل صلاة بقوله :

«اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم انك حميد مجيد» .[2]

وهو «أبو الأنبياء» لأنه كان رائد الدعوة النبوية في العالم قاطبة ، ومنه تناسل الأنبياء الكرام وتتابعوا فجميع أنبياء بني إسرائيل من نسله لأنهم من أولاد يعقوب (وهو نفسه إسرائيل) بن إسحاق ، واسحاق هو ابن إبراهيم ، فمن إبراهيم تفرعت شجرة النبوة حتى حبيبنا محمد خاتم الانبياء فهو صلى الله عليه وسلم من نسله لأنه من سلالة إسماعيل صلى الله عليه وسلم ، وذلك مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى في سورة العنكبوت : ﴿وَوَهبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ وجعلنا في ذريته النبوةَ والكتابَ﴾[3] .

إذن كل الأنبياء الكرام بعد إبراهيم هم أولاده وأحفاده ، ولم يبعث الله بعده نبياً إلا جاء من نسله ، وهو الذي طبعت الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام بطابع دعوته فاستحق أن يُدعى أبو الأنبياء[4] وقد لقبه الحق جل جلاله بهذا اللقب فقال في سورة الحج :

(١) سورة الشورى ، الآية رقم ١٣ .

(٢) صحيح البخاري الجزء الرابع ص ١٨ .

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٢٧ .

(٤) عباس محمود العقاد ، إبراهيم أبو الأنبياء ، المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا .

﴿مِلَّة أبيكُمْ إبراهيم﴾ .[1]

وهو الأب الثالث للجنس البشري ، فأبونا الأول هو آدم وأبونا الثاني نوح ، وأبونا الثالث وشيخ أنبيائنا هو إبراهيم عليه السلام[2] .

هكذا ويمكننا ان نجمل الفضائل والصفات الكسبية لإبراهيم في النقاط التالية :

- الحنيفية : والحنيف هو المستقيم على إسلامه لله تعالى المائل عن الشرك إلى دين الله .
- الاسلام : وهو الانقياد إلى الله تعالى وإسلام امره لخالقه
- الحلم : وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب
- التأوه : وهو الخاشع المتأوه لذكر عذاب الله
- الانابة : وهي الرجوع إلى الله بالتوبة والعمل الصالح
- الشكر : وهو تصور النعمة وإظهارها
- الدعاء : وهو عبادة الله وسؤاله واستغاثته
- القنوت : وهو لزوم الطاعة مع الخضوع
- سلامة القلب : وهو الإقبال على الله بصفاء ونقاء
- إكرام الضيف : وهو من أبرز صفات المروءة والنبل
- الوفاء : وهو من أسمى صفات إبراهيم مع ربه

وإبراهيم هو النبي الوحيد الذي حاول أتباع الديانتين السابقتين للاسلام ان ينتسبوا إليه ، بل إن مشركي مكة زعموا أنهم ورثته في رسالته وسدنة بيته ، لكن القرآن الكريم سفّه أقوالهم وقرر - وتقريره

---

(١) سورة الحج ، من الآية رقم ٧٨ .

(٢) عندما دخل حبيبنا المصطفى جوف الكعبة وجد أن المشركين صوروا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يستقسمان بالأزلام فقال : «قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام» . (صحيح البخاري - كتاب الأنبياء - الباب الثامن) .

الحق – أنه : ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً (مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق) مسلماً (موحداً ومطيعاً لله) وما كان من المشركين﴾ .[1]

ويأتي القرآن الكريم في آية أخرى مخاطبا كافة المؤمنين بانتهاج طريق التوحيد قائلاً لهم : ﴿وجاهدوا في اللّه حَقَّ جهاده هو اجْتَباكُمْ (اختاركم لدينه وعبادته) وما جَعَلَ عليكم في الدين من حرج ملّةَ أبيكم إبراهيمَ هو سمّاكم المسلمينَ من قبل وفي هذا ليكونَ الرّسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ .[2]

وإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو النبي الذي ابتلاه ربه بعدة ابتلاءات هي فوق طاقة البشر العاديين ، وامتحنه عدة امتحانات قاسية لم يمتحن بمثلها إنسان من الناس قبله ولا بعده . ولكنه نجح بتفوق مطلق في كافة تلك الابتلاءات والامتحانات بل إنه على إثر كل امتحان منها كان يزداد إيماناً ويقيناً وتوهجاً ، بل إنه في أمور الطاعة الإلهية زاد على الوفاء بالإحسان فامتدحه ربه قائلاً في سورة النجم : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ .[3]

ونتيجة لنجاحاته الباهرة كافأه ربه مكافأة مجزية ، فقد جعل كل عقلاء البشرية يتبعون دينه الحق فقال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عن (يزهد وينصرف) مِلَّةِ إبراهيمَ إلا من سفهَ نفسَه (امتهنها أو اهلكها) ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرةِ لَمن الصالحين﴾ .[4]

ثم أثنى الله تعالى عليه ثناءً خاصاً به بقوله في سورة النحل :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٧ .

(٢) سورة الحج ، من الآية رقم ٧٨ .

(٣) سورة النجم ، الآية رقم ٣٧ .

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم ١٣٠ .

﴿إن إبراهيم كان أمّةً (كأمة واحدة في عصره) قانِتاً لله (مطيعاً خاضعاً له تعالى) ولم يك من المشركين﴾ .[1]

لقد استحق إبراهيم هذا الثناء وهذه التزكية الربانية فهو الذي ابتعد عن الشرك بيقين كامل ، واستظل بمظلة التوحيد ، وليس هذا بغريب عليه لأن الحق جل جلاله آتاه الرشد والهداية فقال في سورة الأنبياء : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ .[2]

إشراقة إبراهيم على الحياة

في بواكير المرحلة الطفولية الاولى من عمر هذا الكون ، وعندما كانت الأرض ظمأنة لينبوع عذب تطفئ به غليل ضياعها الروحي ، وتبلل به جوفها الخاوي من غذاء العقل والرحمة ، ولد إبراهيم في بابل بأرض العراق زمن الكلدانيين حسب تعبير أستاذنا أحمد بهجت .

وأثبتت المصادر الإسلامية بوجه خاص وجوده وقيامه بأداء رسالته التوحيدية ، وبشكل خاص القرآن الكريم ، في الوقت الذي شكك فيه أصحاب النفوس المريضة بوجوده أصلا . ونسبه القرآن الكريم إلى أبيه آزر ، بيد أنه لم يذكر أية مرتبة أعلى من هذا النسب ، فكان لابد من الاعتماد على التوراة لمعرفة نسبه الكامل والذي يخلو من ذكر اسم آزر ، وذكر أنه إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروخ بن أرغو بن فالخ بن عابر بن شافخ بن أرفكتاد بن سام بن نوح .

ويقال أن بين ولادة إبراهيم وولادة نوح عليهما الصلاة والسلام ٨٩٠ سنة ، وإذا أخذنا بما أوردته التوراة من أن عمر نوح كله قبل الطوفان وبعده كان ٩٥٠ سنة ، فمعنى ذلك ان إبراهيم عاصر نوحاً ستين سنة ، والله تعالى أعلم بالحقيقة .

(١) سورة النحل ، الآية رقم ١٢٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٥١ .

ويلاحظ وجود اختلاف في أسماء أبي إبراهيم وأجداده وذلك بسبب طول العهد من جانب والاختلاف في الترجمات عبر اللغات القديمة من جانب آخر .

وأورد القرآن الكريم نسب إبراهيم لأبيه آزر بصورة واضحة في قوله تعالى في سورة الانعام : ﴿وإذ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزر أتتخذُ أصْناماً آلهةً إني أراكَ وقومَكَ في ضلال مبين﴾ .[1]

ولا نريد الخوض في اختلافات المفسرين في اسم أبيه ، لكننا نأخذ المعنى من ظاهر الآية . . والله تعالى أعلم .

اما اسم «إبراهيم» ذاته فهو أعجمي غير معرب ،واللفظ سرياني وعبراني في وقت واحد ومعناه في السريانية «أب رحيم» ومعناه في العبرانية «عدد كثير» .

وفي شأن صفاته الجسمية فيقال أنه كان طويلاً جداً لا يكاد المرء يرى رأسه طولاً ، . ويقال أيضا انه أول من سنَّ سنة الاختتان ، وانه اختتن وهو ابن ثمانين سنة وسيكون أول من يكتسى يوم القيامة .

ونشأ إبراهيم في زمن كان بعض الناس يعبد فيه الكواكب والنجوم والشمس والقمر ، وكان بعض آخر يعبد التماثيل والأصنام والأوثان ، والبعض الآخر يعبد الملوك وذوي السلطان الأكبر .

كان أبوه صانعاً ماهراً ومشهوراً لتماثيل الآلهة ، وقد أكسبته تلك المهنة نوعاً من الاحترام والمهابة في قومه ، وكان مؤملاً أن يسير إبراهيم في ركاب أبيه ، لكن الحق تبارك وتعالى أنار بصره وبصيرته ، وقذف في عقله وقلبه فيضاً من أأوار رحمته وبركته ، وظهر ذلك جلياً في كافة مراحل حياته التي امتدت مائة وخمساً وسبعين سنة .

أي تكريم هذا التكريم؟ وأية مكانة سامقة تلك التي وضع الله عبده

---

(١) سورة الأنعام ، الآية رقم ٧٤ .

وخليله فيها؟

أي انسان كان إبراهيم؟

إن غاية المؤمنين - كل المؤمنين - أن يصلوا بحبهم إلى الله تعالى ، أما أن يصل عبد مؤمن إلى أن يحبه الله ويختصه بالحب وحده ، وبالخلة ذاتها فهذه - لعمري - أعلى درجات السمو الذي لا يعرف مداها الا الله الواحد القهار . وهذا فيض الهي نابع من نور الله وحده .

إبراهيم . . . يتأمل الكون

خطى إبراهيم الخطوة الاولى في رحلته الإيمانية الطويلة بالشك والتأمل . شك بداية في الآلهة التي يعبدها قومه ، فليس من المنطق في شيء أن يصنع الناس آلهتهم بأيديهم ثم يعبدونها ويقدسونها ، وفي نهاية المطاف تبلى تلك الآلهة او تحترق أو تموت إن كانت حجراً أو خشباً أو ملكاً من الملوك .

وعاش إبراهيم مرحلة برزخية محيرة

تأمل فيما حوله من مخلوقات

ورنا ببصره وبصيرته إلى ذلك العالم الرحيب اللامتناهي . . . المجهول ، وأمعن في التفكير والتدبر عله يجد أجوبة مقنعة لاسئلة كثيرة تتزاحم في مخيلته .

نظر ذات مرة إلى السماء وتأمل أحد الكواكب ليلاً وراقبه جيداً لكن الكوكب غاب بعد مدة وجيزة ، وهنا تشكك إبراهيم بينه وبين نفسه ، وقرر أن الإله الحق لا يغيب .

وفي ليلة ثانية تأمل القمر بعد أن غاب الكوكب ، لكن القمر سرعان ما غاب أيضاً . . وتساءل إبراهيم مرة ثانية : إذا كان بعض الناس من قومه الكلدانيين يؤلهون القمر ويعبدونه فهل يغيب الإله عن الوجود؟ وقال بثقة : إن الإله الحق لا يغيب .

ثم صعد درجات اختباره وتأملاته ، وذات مرة ثالثة تأمل في الكون الرحيب ، ولكنه اتجه في هذه المرة صوب الشمس وهي الأكثر توهجاً وحجماً ، وذات السيادة في النهار ، ولكن حدث للشمس ما حدث للقمر وللكوكب من قبل .

وارتقت وتيرة التفكير في عقله وقلبه ، وأقام الحجة على قومه ، فالكواكب والقمر والشمس تظهر وتختفي ، وما دامت كذلك فلا يمكن إلا أن تكون مخلوقة لا خالقة ، عابدة لا معبودة ، مسيرة لا مخيرة ، ولا يمكن أن تكون ربًا أو الهاً لأن الرب لا يغيب عن مخلوقاته ، ولا تخفى عليه خافية .

وقد ورد هذا التأمل مفصلاً في سورة الأنعام حيث قال تعالى :

﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت[1] (ملك أو آيات) السماوات والارض وليكون من الموقنين . فلما جَنَّ عليه الليلُ (ستره بظلامه) رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أَفَلَ (غاب) قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا (طالعا) قال هذا ربي فلما أَفَلَ قال لئن لم يهدني ربي لأَكَونَنَّ من القوم الضّالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تُشركون . إني وجهتُ وجهي للذي فَطَرَ السماوات (أوجدها وخلقها) والأرضَ حنيفاً (مائلا عن الباطل إلى الدين الحق) وما أنا من المشركين﴾ .[2]

وبعد هذه التأملات المعمقة خرج إبراهيم بنتيجة حاسمة ، وهي أن وراء هذا الكون العظيم رباً أكثر عظمة ،

وهكذا قذف الله تبارك وتعالى الحق المطلق في قلب إبراهيم ، بعد أن شك وتأمل وتفكر ، ثم اهتدى رويداً رويداً . لذلك كان ايمانه

---

(١) الملكوت بمنزلة المُلك إلا أنه أبلغ في اللغة لأن الواو والتاء يُزادان للمبالغة .

(٢) سورة الأنعام ، الآيات من رقم ٧٥ إلى رقم ٧٩ .

بوحدانية ربه إيمانا كاملاً غير منقوص ، . واتخذ قراره الحاسم ، وأعلن براءته التامة من الشرك والمشركين وقال :

«وما أنا من المشركين» .

وشعر «المؤمن» إبراهيم بعد النتيجة التي توصل إليها بسعادة تغمر فؤاده الذي استضاء بنور ربه الوهاج ، واتخذ من هذه النتيجة نقطة انطلاق للدعوة إلى وحدانية الله تعالى ، خاصة وأنه أشهرها على الملأ الذين استنكروا استنكافه واستنزاهه عن عبادة الآلهة التي يعبدونها .

وقد أشار القرآن الكريم لإحدى العظات العقلية التي وجهها إبراهيم إلى قومه . قال تعالى في سورة الانعام :

﴿وحاجَّه قومُه (خاصموه في التوحيد) قال أتحاجُّونيّ في الله وقد هدانِ ولا أخافُ ما تُشْركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيءٍ علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إنْ كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفعُ درجاتٍ من نشاء إنَّ ربَّك حكيم عليم﴾ .(١)

يبدو - والله اعلم - ان موعظته هذه كانت مع أهل حران لانهم كانوا يعبدون الكواكب .

كيف يحيي الله الموتى؟

ولكي يطمئن قلب إبراهيم اطمئناناً مطلقاً إلى الإيمان الذي لا تشوبه أية شائبة بعد ان أستقر النور في قلبه أصلاً ، توسل إلى ربه

---

(١) سورة الأنعام ، الآيات من رقم ٨٠ الى رقم ٨٣ .

تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى ، فاستجاب له ربه على الفور . وقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الذي ورد في سورة البقرة :

﴿واذ قالَ إبراهيمُ ربِّ أرني كيف تحيي الموتى قال أَو لَمْ تؤمن قال بلى ولكنْ ليطمئن قلبي قال فخذ أربعةً من الطير فَصرْهُنَّ اليك (قطعهن) ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءاً ثم ادْعُهُنَّ يأتينَك سَعْياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ .[1]

لقد سأل الخليل ربه عن كيفية إحيائه للموتى مع إيمانه الجازم بقدرة الله تعالى على فعل ذلك . لكنه كان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به الوجدان ، ولهذا خاطبه ربه بقوله : أولم تؤمن . . . قال : بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب برؤية ذلك أمام ناظري .

وامتثل إبراهيم لأمر ربه وأتى بأربعة طيور حية ثم ذبحها وقطعها إرباً إرباً ، ووزعها على عدد من الجبال ، ولما انتهى المشهد العادي الأول ، بدأ المشهد الثاني غير العادي الذي وصفه ابن عباس رضي الله عنه قائلاً : وأخذ «إبراهيم» رؤوسهن بيده ، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعيا ليكون أبلغ في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي بيد إبراهيم عليه السلام ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فاذا قدم اليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته[2] .

وبعد أن أسدل الستار عن محاججة إبراهيم لعبدة الكواكب من

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٦٠ .

(٢) من تفسير الحافظ بن كثير في تفسير سورة البقرة .

أهل حران ، افتتح الستار مرة أخرى على عبدة الأصنام والتماثيل من أهل بابل ، وهم أهل إبراهيم وذووه .

وابتدأ إبراهيم خطته العقلانية الهادئة مع أبيه ، أقرب الناس منه ، وأحبهم اليه ، بعد أن أمره الله تعالى بدعوة قومه إلى التوحيد .

وكان أبوه - كما ذكرنا سابقا - يصنع التماثيل الدقيقة ويبيعها لمن شاء ان يعبدها .

ودليل عقلانية إبراهيم في هذه الدعوة أنه لم يبدأها بتسفيه معبودات ابيه ، أو تحقير آلهته احتراماً لمشاعر الأبوة اولاً ، وخوفاً من ردة فعل أبيه غير محدودة العواقب ثانياً .

وقصد مخاطبته بأسلوب أبوي لين يفيض أدباً وعذوبة وحياءً ، وفي كل مرة يمس شغاف قلبه فيخاطبه أربع مرات بالكلمة الموحية الندية في صدر كل جملة يخاطبه فيها : يا أبت . . يا أبت . وذلك استمالة له ، وترقيقاً لقلبه .

وهنا تبدو وداعة إبراهيم وحلمه وأدبه في اختيار ألفاظه وتصرفاته ومواجهته لفظاظة أبيه وجهالته .

وقد صور القرآن الكريم تلك الحادثة التاريخية منقطعة النظير بقولــه :

﴿واذكر في الكتاب إبراهيمَ إنه كان صِدِّيقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبتِ لِمَ تعبد مالا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنك شيئا . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتّبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطانَ كان للرحمن عَصيّا . يا أبت إني أخاف أن يَمسّك عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان وليّا (قرينا) . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجُمنَّكَ واهجرني مَلِيّا (فارقني دهرا طويلا) . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا (برا رحيما) وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا

أكون بدعاء ربي شقياً﴾ (خاثباً ضائع السعي) .[1]

وواضح من الآيات ان الأب لم يتقبل دعوة ابنه ، وأخذته العزة بالاثم فتوعّد إبراهيم وهدده بالرجم والهجر ، لكن إبراهيم الحليم امتص ذلك كله بقوله لأبيه : سلام عليك ، أي برغم أنك لم تستجب للهداية إلا أنك ستبقى آمناً ، ولن يمسسك مني مكروه أو اذى ، وهذا اسلوب وادع شفاف على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة ، والمعروف بالمتلوف ، وهو خطاب المؤمن للجاهل . بل إن إبراهيم زاد أباه برا وإحساناً بقوله : سأستغفر لك ربي انه كان بي حفياً . أي لطيفاً ورحيماً في هدايتي لعبادته تعالى ، وقد عودني الإجابة لما اطلبه منه .

وقد أوفى إبراهيم بوعده لأبيه فاستغفر له خلال أدعيته في البداية ، ولكن عندما أيقن إبراهيم أن أباه مُصِرٌ على عداوته لله تعالى ، أعلن براءته منه ، وابتعد عنه . قال الحق تبارك وتعالى : ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن مَوْعِدَةٍ وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه (لكثيّر التأوه خوفا وشفقا) حليم﴾ .[2]

---

(١) سورة مريم الآيات من رقم ٤١ الى ٤٨ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٤ .

الفصل الثاني
إبراهيم يقدح زناد الثورة على المشركين

بعد أن فقد إبراهيم الأمل في هداية أبيه ، اتجه نحو قومه الذين يشكلون الدائرة الواسعة لدعوته ، وكان يدرك أهمية هذه الجولة الإيمانية الأكثر حدة والأرحب مجالاً ، ويدرك أنه سيخوض مواجهة قاسية وشرسة مع قوم عتاة جهلاء لاتأخذهم في الباطل لومة لائم ، لكنه لا يملك خياراً آخر فقد هداه الله إلى الحق وعرفه طريق الصواب ، ولا بد ان ينشر طيوب الدعوة التوحيدية بين الناس .

بدأ إبراهيم التمهيد لثورته بسؤال وجهه إلى قومه :

﴿ . . . . ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون .

قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين .

قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين .

قال بل ربكم ربُّ السماوات والارض الذى فَطَرَهُنَّ وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ .[1]

ولما يئس إبراهيم من إقناع قومه بأسلوب المحاورة انتقل من القول إلى الفعل ، ومن مرحلة تغيير المنكر باللسان إلى تغييره باليد ، فقال لهم متحديا : ﴿وتا الله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولوا مُدْبرين﴾[2] .

فسمعه رجل مشرك فأفشاه عليه ، ودخل إبراهيم إلى بيت الأصنام ونظر إلى تماثيل الآلهة وأمامها الطعام الذي أهداه الناس إليها فسألهم سؤالا استنكاريا ﴿قال ألا تأكلون﴾[3] .؟!

١ـ سورة الأنبياء ، الآيات من رقم ٥٢ الى رقم ٥٦

٢ـ سورة الأنبياء ، الآية رقم ٥٧

٣ـ سورة الصافات من الآية رقم ٩١

وأتبعه بسؤال ساخر آخر :

﴿مالكم لاتنطقون﴾[1] .؟!

ثم هوى بفأسه الضخمة على الأصنام المؤلهة ، لكنه استبقى تمثالاً واحداً فقط عمد إلى تعليق الفأس في عنقه ، ومضى إلى حال سبيله سعيداً .

وعندما جاء قوم إبراهيم إلى مكان عبادتهم فوجئوا بأن آلهتهم أضحت حطاما عدا كبيرهم الذي أبقاه إبراهيم دليلاً حياً وملموساً على بطلان عبادة قومه للأصنام ، هذا هو المنهج الإبراهيمي في الإقناع .

أراد إبراهيم بهذا العمل البالغ الذكاء أن يقيم الحجة على قومه وبالبرهان الساطع على ان عبادة هذه الأصنام لايخشى عقابها ولا يرجى نفعها وهي لا ولن تجلب لهم خيراً إن استمروا في عبادتها ، لا ولن تجلب لهم سوءاً ان هجروها وتركوا عبادتها .

وقد صورت أحدى اللوحات القرآنية العظيمة تنفيذ إبراهيم لتهديده وكذا المحاورة الساخنة التي جرت بينه وبين كبار الشخصيات الدينية والسياسية . قال الحق تبارك وتعالى في سورة الانبياء :

﴿ . . . فجعلهم جُذاذاً (قطعا صغيرة) إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون .

قالوا مَنْ فعل هذا بآلتهنا إنه لمن الظالمين .

قالوا سمعنا فتى يذكرهم يُقال له إبراهيم .

قالوا فائتوا به على أعْين الناس لعلّهم يشهدون .

قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم

قال بل فَعَله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون .

فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون .

١- سورة الصافات الآية رقم ٩٢

ثم نُكسوا على رؤوسهم (رجعوا إلى الباطل والعناد) لقد عَلِمْتَ ما هؤلاء ينطقون .

قال أفتعبدونَ مِنْ دون الله ما لاينفعُكُم شيئاً ولا يضُركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون[1]»؟

هذا وقد تضمنت سورة«الشعراء» لوحة خلابة لمحاورة إبراهيمية أخرى مع قومه الظالمين فقال الرحمن الرحيم :

﴿واتل عَليهمْ نبأَ إبراهيمَ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون .

قالوا نعبد اصناماً فنظلّ لها عاكفين .

قال هل يسمعونكم اذ تدعونَ أو ينفعونكم او يضرون .

قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدوّ لي الارب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يُطْعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يُميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . ربِّ هَبْ لي حكماً وألحقنى بالصالحين»[2] .

لقد ران الضلال على قلوب القوم ، فاستحبوا العمى على الهدى وزين لهم الشيطان سوء ردهم على البراهين الساطعة التي أوردها إبراهيم عله يقنعهم بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، لكنهم لما عجزوا عن مواجهة حججه ومنطقه لم يجدوا إلا القوة وسيلة للتفاهم معه والقضاء عليه . وبهدف نصرة سفههم ، وتأييد ضلالهم ، قرروا أن يعدموه حرقاً وقذفه في أتون النار الملتهبة أمام مرأى ومسمع كل الناس .

وتم القبض على إبراهيم وانحصرت حيثيات الحكم في العبارتين التاليتين اللتين ذكرهما القرآن الكريم :

١- صورة الصافات الآية رقم ٩٢ .

٢- سورة الأنبياء ، الآيات من رقم ٥٧ الى رقم ٦٧

﴿قالوا حرقوه«أحرقوه» وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين[1] ﴾ .

﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم[2] ﴾ .

وانتشر خبر إلقاء القبض على إبراهيم وكذلك موعد حرقه في كافة انحاء المدينة ، وهرع الناس من كل فج ليشهدوا حرق ذلك الإنسان الذي تجرأ على «قدسية» آلهتهم فحطمها مع سبق الاصرار والترصد .

حفروا حفرة عميقة وجاءوا بكمّ هائل من الأخشاب وكل المواد القابلة للاشتعال ، وقدحوا الزناد واشتعلت النار ، وتأجج لهيبها وجيء بإبراهيم مقيد اليدين والقدمين ووضعوه في فوهة المنجنيق وبعد لحظات أصدر الكاهن الأعظم أوامره بقذف إبراهيم في النار واستقر إبراهيم في الأتون الملتهب ، وتعالت صيحات المشاهدين الذين حبست أنفاسهم بين شامت وحاقد ومشفق .

وصاح بعض الملاحدة شامتاً : أين رب إبراهيم ؟ لماذا لم يهب لإنقاذه؟

ولكن هيهات هيهات أن يخذل الخالق خليله ، أو أن يفقد المخلوق الثقة في خالقه .

وفوجئ القوم بما لم يكن في حساب أي بشر فيهم أن إبراهيم لم يحترق لان الله تبارك وتعالى عطل وظيفة النار في الحرق حيث أصدر أمره الصارم : ﴿قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[3] .

وتجلت عظمة الله تعالى حين لم يقف النص القرآني عند كلمة «برداً» في قوله :«يانار كوني برداً» لأن النار لو تحولت مباشرة إلى برد لمات إبراهيم من شدة البرودة لكنه سبحانه ـ وهو الشفيق الرؤوف ـ أتبع

١ـ سورة الأنبياء ، الآية رقم ٦٨

٢ـ سورة الصافات الآية رقم ٩٧

٣ـسورة الأنبياء الآية رقم ٦٩

أمره بكلمة «وسلاماً» في قوله : ﴿يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ وهي تعني السلامة الكاملة من كل سوء .

«أطاعت النار فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم أحرقت قيوده فقط ، وجلس إبراهيم وسطها كأنه يجلس وسط حديقة كان يسبح بحمد ربه ويمجده لم يكن قلبه يسع غير حب الله»[1] .

وهكذا فشلت المؤامرة ورد الله كيد المشركين في نحورهم ﴿وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين[2]﴾ .

وخرج إبراهيم من الحفرة منتصراً متواضعاً ، سعيداً ، ويقال إن أباه علق على تلك الحادثة موجهاً تعليقه إلى إبراهيم : نعم الرب ربك يا إبراهيم!

وكذا تجلت حكمة الحق جل جلاله من إلقاء إبراهيم في النار فإذا فيها الخير كل الخير حيث بدا الظاهر شراً وهمّاً وغمّاً فإذا الموقف يكشف برمته عن تنفيذ قدر الله وقضائه ، وهذا الحال ينطبق كذلك على حادثتي إلقاء يوسف في الجب وإلقاء أم موسى لرضيعها في اليم .

وبعد أن نجح إبراهيم في إقامة الحجة على عبدة الكواكب والتماثيل جاء دوره الفاعل في إقامة الحجة على عبدة الملوك والسلاطين .

وتضمنت سورة البقرة وصفا دقيقاً لمناظرة خليل الرحمن مع ملك بابل ويدعى النمرود وهو ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح وقد ادعى لنفسه الربوبية فألجمه الخليل حجته وبرهانه ، فبهت النمرود ورسب في المناظرة رسوباً مخزياً .

وذكر بعض المفسرين أن هناك أربعة عظماء ملكوا الدنيا قديماً مؤمنان وكافران .

١- أحمد بهجت - أنبياء الله - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٧م

٢- سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٠

أما المؤمنان فهما سليمان وذو القرنين ، وأما الكافران فهما النمرود وبختنصر .

ويقال أن النمرود حكم بابل بالحديد والنار والإرهاب مدة طويلة من الزمن .

ولنعد إلى تفاصيل المناظرة السريعة والحاسمة التي جرت بين خليل الرحمن وخليل الشيطان .

وقد وصف الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة هذا المشهد قائلاً :

﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يُحْيي ويميت قال أنا أحيي وأميت! قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشَّمس من المشرق فأْت بها من المغرب فَبُهِتَ (غلب وتحير) الذي كفر والله لايَهْدَي القومَ الظالمين[1]﴾ .

والنمرود بادعائه القدرة على أنه يحيي ويميت انما يعني إذا أُتي برجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر!

وقد جاراه إبراهيم في مقولته ولكنه أفحمه إفحاماً معجزاً حين تحداه بأن يأتي بالشمس من المغرب لأن الله تعالى يأتي بها من المشرق ، لكن النمرود بهت ولم يستطع الإجابة وربح إبراهيم الجولة . . ككل جولة .

١ـ سورة البقرة ، الاية رقم ٢٥٨

الفصل الثالث

هجرة إبراهيم إلى مصر

حاول إبراهيم استثمار الضجة الكبرى التي حدثت في مجتمع الكفر جراء حادثة الإحراق الفاشلة ، وكذلك جراء المناظرة المفحمة بمواصلة الدعوة إلى عبادة الله تعالى . وقد بذل جهوداً مضنية لهداية قومه . ولكنه لم يجد منهم إلا الصدود والهجر . ولم تسفر تلك الجهود إلا عن هداية رجل واحد وامرأة واحدة .

أما الرجل فهو ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر .

وأما المرأة فهي زوجه الأولى سارة والمشهور أنها ابنة عمه هاران ، وبرغم أنها كانت عاقراً إلا أنها كانت أحب الناس إلى قلبه بعد أمه .

ولأن الداعية إلى الله مهتم بالدعوة إلى الله ، فلا يهمه بعدئذ زمان ولا مكان . لذلك قرر إبراهيم- بوحي من ربه- أن يهجر قومه ويهاجر إلى مكان خصيب يواصل فيه دعوته لعله يجد قلوباً مشرعة ، وعقولاً واعية .

فبعد أن خذله الحرانيون ولم يستجيبوا لدعوته ، واصل رحلته إلى فلسطين ، وأقام شرقي بيت المقدس برفقة سارة ولوط . ومكث فترة ينشر دعوته بين الناس ، ثم اجتاحت أرض الشام موجة قحط عاتية فخرج إبراهيم عليه السلام إلى مصر ، لا طلباً للميسرة في المقام الأول ولكن دعوة إلى الله ، ثم سعياً في مناكب الأرض للأكل من رزق الله(١) .

لكن إبراهيم لم ينعم طويلاً بخيرات مصر ، لأن مصر كانت مبتلاة بملك جبار ظالم ، فاضطر إبراهيم للعودة إلى فلسطين ومعه أنعام

---

(١) ابن سعد- الطبقات الكبرى- الجزء الأول ص ٤٦ .

وأموال ، ورافقته زوجته الجديدة «هاجر» التي قدمها الملك هدية لسارة بعد أن رأى من كرامتها ما رأى كما يقول ابن كثير .

وسواء أكانت هاجر عليها السلام جارية أو ابنة لفرعون مصر نفسه كما تقول بعض الروايات- فقد كانت امرأة مؤمنة صابرة ، ولأجلها ولأجل ابنها - كما سنرى لاحقاً- فَجَّر الله بئر زمزم ، وعلى نسق جريها لاهثة بين الصفا والمروة باحثة عن الماء ، يسعى ملايين المسلمين منذ ذلك الزمن السحيق وحتى يوم الدين في إحدى شعائر الحج والعمرة لمن يحج أو يعتمر .

ولن نتعرض في هذا المقام إلى تفاصيل ما ذكرته التوراة ونقلته عنها كثير من الروايات بهدف تشويه صورة الخليل وزعمها أن إبراهيم كان يستغل وضاءة وجه زوجته وجمالها (!) (وهي ابنة الثمانين عاماً) استغلالاً شائناً ومعيباً . وذكرت التوراة أن إبراهيم اتفق وسارة على أن تقول للملك أنه «أخي» وهو يقول «أختي» لئلا يقتلوها .

وعاشت «هاجر» مع إبراهيم وسارة فترة من الزمن ، وتحركت في نفس سارة نوازع الخير ، فأشفقت على زوجها ألا يكون له ولد منها بسبب عقمها ، وكثيراً ما كانت تسمعه يدعو ربه قائلاً : ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ (١) .

ففعلت سارة المؤمنة فعلاً لم تفعله امرأة ، إذ وهبت له هاجر ليتزوجها حتى تنجب له أولاداً كما قال بعض المفسرين وكانت هاجر في نحو الثلاثين من عمرها ، بينما وقفت سارة وإبرهيم على عتبات الثمانين . فتزوجها الخليل وحملت منه ، ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ (٢) .

وولدت هاجر ابنها الأول «إسماعيل» ، وعندئذ تحركت نوازع الغيرة

---

(١) سورة الصافات ، الآية رقم ١٠٠

(٢) سورة الصافات ، الآية رقم ١٠١

النسوية في قلب سارة كما تزعم الروايات ، فتوسلت إلى زوجها أن يذهب بالوليد وأمه بعيداً عن عينيها . فأوحى الله تعالى إلى خليله أن يهاجر بهاجر وإسماعيل إلى الحجاز بواد غير ذي زرع ، وامتثل إبراهيم لإرادة مولاه . وهنا بدأ فصل جديد في حياته وحياة كل المسلمين من بعده .

يقتضينا السياق العودة إلى لوط عليه الصلاة والسلام حيث أوحى الله إليه بالتوجه إلى أرض «سدوم وعمورة» بمنطقة أريحا شرقي القدس ، ويقال أن المنطقتين كانتا في نفس مكان البحر الميت المعروف ببحر لوط .

وكانت مهمته محصورة في هداية قومه الذين كانوا قوم فواحش ومعاص .

ولما لم يستجيبوا لنصائحه قرر الحق تبارك وتعالى أن ينتقم منهم ، فأرسل بعض كرام ملائكته وقد تخفوا في هيئة رجال ، إلى المنطقة ، فمروا بالخليل إبراهيم فظنهم ضيوفاً آدميين فحياهم بالسلام ، وأكرم وفادتهم ، وقام بواجب ضيافتهم ، فذبح عجلاً سميناً وشواه على النار وقدمه إلى ضيوفه ، لكنهم أمسكوا عن أكله ، فارتاب بشأنهم ، وأوجس منهم خيفة ، ثم اتفقوا عليه وأبلغوه أنهم ملائكة بعثهم الله تعالى لأداء مهمتين هما : تقديم البشرى لإبراهيم وزوجه بميلاد غلام عليم (هو إسحاق كما سنعلم لاحقاً) .

أما المهمة الثانية فهي الانتقام من قوم لوط .

وقد صور القرآن الكريم ذلك المشهد في اللوحة التالية :

﴿هل أتاكَ حديث ضيف إبراهيم المكرَمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قوم منكرون .

فراغ (ذهب في خفية من ضيوفه) إلى أهله فجاء بعجل سمين .

فقربه إليهم قال ألا تأكلون .

وأَوْجَسَ منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم﴾ .[1]

ولما سمعت «سارة» هذا النبأ الغريب المفاجئ ، أقبلت صائحة محتجة ، ولطمت وجهها استياءً وغضباً وقالت أليس غريباً أن أضع مولوداً وأنا عجوز عاقر؟ فأجابها الرجال بأن هذا قرار إلهي حاسم .

وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله :

﴿فأقبلتْ امرأته في صَرّةٍ (في كرب وشدة) فَصَكَّت وجهها (لطمته) وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ [2] .

ثم واصل إبراهيم حواره مع الملائكة مستفسراً :

﴿قال : ما خطبكم أيها المرسلون .

قالوا إنّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارةً من طين . مُسَوَّمَةً (معلمة بأنها حجارة عذاب) عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾[3] .

ومن جانب آخر فقد تضمنت سورة «هود» وصفاً ثانياً للقاء الملائكة مع إبراهيم ، واشتمل على تحديد اسم إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، قال تعالى :

﴿ولقد جاءتْ رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (مشوي) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نَكِرهمْ (أنكرهم ونفر منهم) وأَوْجَسَ منهم خيفةً قالوا لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي (زوجي)

---

(١) سورة الذاريات ، الآيات من ٢٤ إلى ٢٨

(٢) سورة الذاريات ، الآيتان ٢٩ و٣٠

(٣) سورة الذاريات ، الآيات من رقم ٣١ إلى ٣٥

شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبينَ من أمْرِ الله رحمةُ اللهِ وبركاتهُ عليكُم أهلَ البيت إنه حميدٌ مجيد﴾[1] .

ولم يمر عام على سارة حتى حملت بإسحاق وهي بنت تسعين سنة على ذمة الروايات ، ولما وضعته أسمته- كما يقال- «يصحق» أي يضحك وتريد بذلك أن كل من سمع بولادته من أبويه العجوزين يضحك لما في هذه الولادة من الغرابة والبعد عن المألوف .

وشاء الله تعالى أن يصبح «يصحق» أو إسحاق نبياً . قال تعالى :

﴿وبشرناهُ بإسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما مُحْسِنٌ وظالمٌ لنفسه مبين﴾[2] .

وهكذا أكرم الله تعالى خليله بزوجين وولدين ، أكرمه بإسماعيل من هاجر ، وأكرمه بإسحاق من سارة ، ومن وراء إسحاق يعقوب . . . حفيده .

قال الحق تبارك وتعالى في سورةِ العنكبوت :

﴿ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وجعلنا في ذريته النبوة والكتابَ وآتيناهُ أجره في الدنيا وإنه في الآخرةِ لمن الصالحين﴾[3] .

وزاد الله تعالى في إكرامه ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي بعثه بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء بعده ، فعلى أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له ، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه ، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة

---

(١) سورة هود ، الآيات من ٦٩ إلى ٧٢

(٢) سورة الصافات الآيتان ١١٢ ، ١١٣

(٣) سورة العنكبوت ، الآيتان ٢٦ ، ٢٧

ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه [1] .

وهذا تشريف كبير من الله تعالى لعبده ورسوله إبراهيم أن يحصر النبوة والكتب في ذريته ، فلا يكون بعده نبي إلا من نسله ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى جاء آخرهم عيسى بن مريم عليه السلام فبشر بخاتم الأنبياء النبي العربي القرشي الهاشمي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ولا نبي من سلالته سواه [2] .

---

(١) الحافظ ابن كثير- قصص الأنبياء- دار اليقين- مصر

(٢) أحمد البراء الأميري- إبراهيم عليه السلام- دار المنارة- جدة- ١٩٨٦

الفصل الرابع

الركب الإبراهيمي في مكة المكرمة

وصل الركب الإبراهيمي المتواضع إلى الحجاز ، ونزل إبراهيم عليه السلام من فوق دابته ، وأنزل زوجه وطفله ، وأقاموا بواد غير ذي زرع ولا ضرع في بلاد لا يكاد يقيم بها أحد إلا قوم من جرهم يجاورون البيت أو بقايا البيت المهدم قبل أن يعيد إبراهيم وإسماعيل بناءه .

ووضع إبراهيم عندهما- كما يقول ابن عباس رضي الله عنه- جراباً فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ، ثم قفّى(عاد) إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أي مظهر من مظاهر الحياة؟

رددت ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت :

هل الله تعالى أمرك بهذا؟

قال : نعم . قالت : إذن لن يضيعنا .

ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ، ورفع يديه إلى السماء متضرعاً :

﴿ربّنا إني أسكنْتُ من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليُقيموا الصلاةَ فاجْعل أفئدةً من الناس تَهْوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلمُ ما نُخفي وما نعلنُ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ (١) .

ومضى إبراهيم عائداً إلى فلسطين . .

(١) سورة إبراهيم- الآيتان ٣٧ ، ٣٨

ومضت هاجر من جانبها ترضع ابنها ، وتشرب من ذلك الماء المحدود الذي سرعان ما نفد ، مما أثر تأثيراً سلبياً على حياتها وحياة رضيعها ، وتلفتت حولها مراراً ، وانطلقت على غير هدى باحثة عن ماء ووقفت على قمة مرتفع يدعى «الصفا» ، وأخذت ترسل بصرها في كل الاتجاهات لعلها تجد ماءً ، لكنها لم تجد ، ولكنها أيضاً لم تيأس ، انحدرت مسرعة في الوادي ، فلم تجد ماءً ، ثم صعدت إلى مرتفع آخر يدعى «المروة» ففعلت فيه ما فعلت بالصفا ، وأخذت تسعى مراراً بين الجبلين الصغيرين اللذين لا تزيد المسافة بينهما عن سبعمائة متر تقريباً ، ووصل عدد مرات سعيها ، سبع مرات . ومن ذلك التاريخ يتبع حجاج ومعتمرو بيت الله الحرام نهج أمهم وأبيهم في السعي بين الجبلين .

قال الحق تبارك وتعالى مؤكداً ضرورة السعي بينهما :

﴿إن الصفا والمروةَ من شعائر الله فمن حَجَّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه (لا إثم عليه) أن يطّوّف بهما ، ومن تطوّع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ (١) .

ويقول المفسرون إن سبب نزول هذه الآية هو امتناع بعض الصحابة عن السعي بين الصفا والمروة من حيث أنه كان سعياً قبل الإسلام بين الصنمين الشهيرين «أساف ، ونائلة» ، فجاء القرآن الكريم ليرفع عنهم هذا الحرج .

وبعد الجهد المضني الذي بذلته هاجر وابنها أدركتهما عناية الله تعالى ، وبوحي منه جَلَّ جلاله أتى جبريل عليه السلام على هيئة طائر وضرب الأرض بجناحه فانفجرت بئر زمزم . .

ويرى بعض العلماء أن الله تعالى أوحى إلى إسماعيل فضرب

---

(١) سورة مريم ، الآية رقم ١٥٨

الأرض بقدمه فانفجرت البئر .

وفرحت هاجر فرحاً عظيماً كما لم تفرح من قبل ، فمعنى وجود الماء يعني وجود الحياة نفسها ، وغرفت من الماء في سقائها بيديها وهي تكاد لا تصدق ما تراه ، فشربت وسقت وليدها ، وشعرت بالراحة والطمأنينة بعد الشقاء والألم .

ويقال إن ملكاً من الملائكة قال لها : لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتاً لله سيبنيه هذا الغلام عندما يشتد ساعده وأبوه . وإن الله لا يضيع أهله . ودبت الحياة في المنطقة بأسرها ، فحيثما يوجد الماء توجد الخيرات والبركات . .

ويقال من ناحية أخرى إن قبيلة جرهم كانت متجهة إلى ديار الشام ، فشاهد أفرادها على البعد طيوراً تحوم وتحط في المنطقة فعرفوا بذكائهم الفطري أن الطيور لا تحط إلا على ماء ، فأرسلوا رسولاً يستطلع الأمر ، ولما عاد حمل لقومه بشرى تفجر زمزم ، فارتحلوا إليها من فورهم ، واستأذنوا السيدة هاجر في مجاورتها ، فرحبت بهم ، وأنست لوجودهم ، ثم تكاثر الناس حول زمزم . واتخذ البعض من المنطقة مستقراً ومقاماً . وجعل الله أفئدة من الناس تهوي إليها .

ومضت الأيام والسنون وتعلم إسماعيل العربية على أيدي الجراهمة ، ولما شب واشتد ساعده وبلغ مبلغ الرجال تزوج إحدى الفتيات الجرهميات . ويقال أن السيدة المجاهدة المهاجرة هاجر توفيت بعد أن أدت رسالتها وأوفت عهدها . ودفنت في مكة المكرمة .

وفي تلك الآونة جاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام لزيارة ولده ، فلم يجده في بيته ، لكنه وجد زوجته الجرهمية ، فسألها عن حالهم ، وأحوالهم ، فأخذت تشكو له العوز والفاقة ، وقسوة الحياة ، وعندئذ أدرك الخليل أن هذه الزوجة لا تصلح

لولده إسماعيل ، فقال لها قبل سفره :

عندما يحضر زوجك أخبريه أن يغير عتبة بيته . ومضى في حال سبيله ، وعندما عاد إسماعيل أخبرته زوجه بنبأ الشيخ الذي جاء وسأل عنه ، وأبلغته بسلامه عليه بالمقولة التي قالها بضرورة تغيير عتبة بيته . فأدرك إسماعيل على الفور مغزى الرسالة . فقال لامرأته :

ذاك أبي ، وأنت عتبة بيتي التي أمرني بضرورة تغييرها ، فالحقي بأهلك . وبالفعل طلقها ، ولحقت بأهلها .

وتزوج إسماعيل امرأة أخرى يقال أنها من نفس القبيلة الجرهمية ، وتكرر المشهد الأول مع بعض الاختلافات الجوهرية .

جاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لزيارة ابنه إسماعيل . فلم يجده ، كان كالعادة في رحلة صيد . فاستقبلته امرأة تختلف في شكلها ومضمونها عن المرأة الأولى . فسألها عن الحال والأحوال ، فلهج لسانها بالثناء وفاض بالحمد فانشرح صدره ، واطمأن قلبه ، فقد وجدها قانعة وراضية وشاكرة .

ثم سألها إن كانت تعرف مكان وجود زوجها ، فأخبرته أنه انطلق للصيد ، قال فما طعامكم؟ قالت : اللحم والماء . فقال : اللهم بارك لهم في لحمهم ومائهم ، اللهم بارك لهم في لحمهم ومائهم ، اللهم بارك لهم في لحمهم ومائهم .

وقبيل أن ينصرف إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال لها : إذا جاءك زوجك فقولي له : جاء ها هنا شيخ من صفته كذا وكذا وهو يقرئك السلام ويقول لك : قد رضيت لك عتبة بابك فأثبتها .

ومضى إلى حال سبيله . . .

ولما حضر إسماعيل من رحلة صيده أخبرته زوجه بما حدث معها ، فقال : ذاك أبي ، وهو يبارك زواجنا ، وقد أمرني ألا أفارقك ، فلازمها

طوال حياته[1] .

وورد في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين أن الله رزق إسماعيل باثنى عشر ولداً ، وكانوا رؤساء قبائل ، وسميت «العرب المستعربة» [2] .

---

(١) أتحفظ كلية على موضوع الزيارتين الإبراهيميتين وما رافقهما من أحداث عائلية بشأن تغيير عتبة البيت أو تثبيتها . وقد اضطررت لذكرهما برغم شكوكي الشخصية بعدم حدوثهما أصلاً . ولكرام القراء حرية الحكم عليهما سلباً أو إيجاباً .

(٢) يقسم المؤرخون الأمة العربية إلى قسمين كبيرين هما :

أولاً : العرب البائدة وهم الذين امحت آثارهم نهائياً مثل عاد وثمود وطسم وجديس .

ثانياً : العرب الباقية ، وهم قسمان كبيران :

أ- عرب الجنوب : وهم العرب العاربة ويسمون القحطانيين ، وقد نشأ نبي العرب إسماعيل بين العرب العاربة (الجراهمة) عند بيت الله الحرام .

ب- عرب الشمال وهم العرب المستعربة ، ويسمون العدنانيين وقد وفدوا إلى الجزيرة العربية من البلاد المجاورة .

المرجع : خضر تايه ونبيل الآغا- شعراء حول الرسول- دار البشير- الأردن- ١٩٩٨ .

الفصل الخامس

خليل الله نموذج الصبر الجميل

وهذه محنة جديدة يتعرض لها الأب إبراهيم الخليل ويتعرض لها ابنه إسماعيل في وقت واحد ، وهي محنة رهيبة وقاسية بكل المقاييس والمعايير لم يتعرض لها أب وابن من قبل إبراهيم وإسماعيل ولا من بعدهما .

فقد رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام في المنام ـ ورؤيا الأنبياء حق وأحلامهم صدق ـ أنه يُؤْمر بذبح ولده الحبيب إسماعيل الذي وهبه الله له على كبر في العمر وظمأ في الذرية ، والذي تعرض قبل ذلك لمحنة الحرق في نار الحقد ، ومحنة ترك زوجه وبكره في واد غير ذي زرع ، وامتثاله في كل المواقف الحرجة لتعليمات ربه ايماناً واحتساباً .

والذبح ثاني محنة يتعرض لها الابن إسماعيل ذاته ، فالمحنة الأولى تجسدت في تركه وأمه وحيدين في صحراء قاحلة دونما أنيس ولاجليس سوى انتظار رحمة الله .

والمحنة الجديدة أشد وأدهى وأكثر مرارة وقسوة .

وقد تلقى إبراهيم إشارة ربانية عاجلة تأمره أن يذبح ابنه الوحيد بيديه وليس بيد احد سواه ودونما ذنب ارتكبه ذلك البريء! إنه ابتلاء قاس ورهيب بكل معايير القسوة والرهبة ولكن . .

من يقدر على تنفيذ هذه المهمة العظيمة سوى نبي عظيم كإبراهيم؟ ومن في البشرية حتى ذلك الزمان أعظم من خليل الله إبراهيم فالعظائم كفؤها العظماء ، وعلى قدر عمق الإيمان يأتي عمق الابتلاء!

لقد اتجه إبراهيم اتجاهاً مباشراً إلى الله بقلبه السليم وأسقط ماسواه اسقاطاً كلياً من كافة حساباته ، وأسلم وجهه لله وحده لاشريك له ولذلك كان بلاؤه أشد ، واذا علمنا أن إبراهيم كان أفضل الأنبياء بعد

حبيبنا محمد صلى الله عليه وآله أدركنا أنه كان أشدهم بلاءً ، وما ابتلاؤه بذبح وحيده إسماعيل إلا دليل قوي على انه بلغ الذروة في الابتلاء بين جميع أخوانه الانبياء عدا الحبيب الخاتم .

وقد روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل : أي الناس اشد بلاءً؟ قال : «الانبياء ، ثم الامثل فالامثل» .

لم يأخذ إبراهيم ابنه على حين غرة ، ولم يخادعه أو يحتل عليه لتنفيذ الأمر الإلهي ، بل صارحه بالموقف واستشاره في كافة حيثيات الموضوع ليكون ذلك أهون عليه وأطيب له ، ولينال هو أيضاً أجر الطاعة ويتذوق حلاوة التسليم لإرادة الله .

وجاءت استجابة الابن بمقدار إيمان الأب سواءً بسواء ، لم يتردد ولم يتلعثم ولا عجب في ذلك إنه الإيمان الذي يصنع المعجزات .

وجاءت الاجابة في منتهى الأدب والشفافية والطاعة :

﴿يا أبتِ افعلْ ما تُؤْمر ستجدُني إنْ شاء اللهُ من الصابرين[1]﴾ .

إن هول المَوقف ، وشدة الكرب لم ينسياه فضيلة التأدب الجم مع أبيه فخاطبه بـ«ياأبت» كما خاطبه أبوه بنفس الأسلوب قائلاً له :«يابني» وفي التصغير هنا مافيه من رقة وحنوّ وعذوبة .

ثم إراد الابن أن يخفف عن أبيه لوعة الثكل ، ويرشده إلى أقرب السبل لتنفيذ أمر الله فيه فقال : يا أبت اشدد وثاقي واحكم رباطي حتى لا أضطرب واكشف عن ثيابي حتى لا ينضح عليها شيء من دمي فينقص أجري ، ولتحد شفرتك ولتسرع أوارها على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد ووقعه اليم[2]»

وجاءت لحظة التنفيذ العملي بعد أن انتهت المقدمات النظرية . .

١ـ سورة الصافات ـ من الآية ١٠٢

٢ـ محمد أحمد جاد المولى ـ قصص القرآن ـ القاهرة ١٩٧٣ .

استلقى إسماعيل على الأرض وتعمد وضع وجهه على وجه الأرض لكي لا يرى نفسه وهو يذبح ، ولكي لاينظر أبوه إليه فتغلبه الشفقة فيتردد في تنفيذ أمر ربه .

وأشهر إبراهيم السكين وَهَمَّ أن يضعها على ظهر رقبة إسماعيل ليحزها ، وعندئذ نادى الله تعالى خليله إبراهيم أن قد نجحت في الامتحان وتفوقت في الاختبار ، وفدى الله إسماعيل بكبش أبيض أقرن قيل إنه رعى في الجنة أربعين خريفاً جاءت به الملائكة فذبحه إبراهيم ووزع لحمه على الفقراء والمحتاجين ، وصار ذلك اليوم عيداً للمسلمين الذين جاءوا بعدئذ والمعروف بعيد الأضحى المبارك .

وفي اللوحة القرآنية التالية تصوير دقيق وبليغ لهذه الأحداث :

﴿فلما بلغَ معه السَّعْي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما (استسلما لأمر الله) وتَلَّهُ للجبين . «أضجعه على جبينه على الارض»وناديناه ان يا إبراهيم قد صَدَّقْتَ الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الاخرين . سلامٌ على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين . انه من عبادنا المؤمنين[1]﴾ .

وقال الشهيد سيد قطب معلقاً على هذا المشهد المثير :

«ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان وجمال الطاعة وعظمة التسليم والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم الذي تتبع ملته ، والذي ترث نسبه وعقيدته ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها

(١) سورة الصافات الآيات من رقم ١٠٢ الى رقم ١١١

أو تقوم عليها ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لاتسأل ربها : لماذا؟ ولاتتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة وأول توجيه[1]» .

وصدق الله العظيم القائل في حق إسماعيل قولاً فصلاً ورد في سورة مريم : ﴿واذكر في الكتاب اسماعيلَ إنه كانَ صادقَ الوعْد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مَرْضياً[2]﴾ .

هذا ويدعي اليهود والنصارى وبعض أهل العلم من المسلمين بأن الذبيح هو إسحاق . وليس إسماعيل ، وهذه ادعاءات قائمة على أسانيد ضعيفة لايعتد بها ومطعون في صحتها سواء من حيث السند أو من حيث الأصول التاريخية ، وهي لاتخلو من وجود العصبية الدينية أو العنصرية في تركيبتها والله تعالى أعلم .

إبراهيم واسماعيل يرفعان قواعد البيت الحرام

بعد ان أدرك إبراهيم أن ابنه اسماعيل يحيا حياة سعيدة وهنيئة اطمأن قلبه وثلج صدره وأصبح على يقين بأن إسماعيل مهيأ نفسياً وجسمانياً ومعنوياً للاشتراك في العمل العظيم الذي ينتويه .

فقد أمره صاحب خلته ببناء الكعبة ، وإقامة أول بيت مخصص للعبادة بين الناس ، إذ كانت العادة في ذلك الزمن ان يبني الناس بيوتاً لعبادة الأصنام والتماثيل ، لكنها المرة الأولى في تاريخ البشرية التي يخصص فيها مبنى لعبادة الله تعالى وحده .

هذا رأي فريق من العلماء والمفسرين .

وهناك فريق آخر من العلماء والمفسرين أيضاً يرى أن البيت الحرام

---

(١) سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ الجزء الخامس ص ٢٩٩٦

(٢) سورة مريم ـ الآيتان ٥٤ ، ٥٥ .

بُني قبل بعثة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأن بقايا البيت هي التي كانت موجودة ، وأن إقامة إسماعيل وأمه هاجر كانت بجوار تلك الآثار وقد انحصـــرت مهـمـة إبراهيم وإسمـاعيل في رفع القـواعـد والاثار ليـــس الا .

ومن جملة أدلتهم على ذلك نص الحديث الشريف المروي عن أبي ذر رضي الله عنه حين قال : قلت يارسول الله : أي مسجد وضع في الارض أولاً؟

قال : «المسجد الحرام» . قال : قلت : ثم أي : قال : «المسجد الاقصى» . قلت كم كان بينهما ؟ قال : «اربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصل فإن الفضل فيه[1]» .

ونحن نميل إلى هذا الرأي مرجحين أن يكون إبراهيم الخليل تلقى إشارة ربانية بالتوجه إلى تلك البقعة الطاهرة المعنية ذاتها لإعادة الحياة فيها وهداية الناس إليها والله تعالى أعلم .

وأفضى إبراهيم بنيته إلى ابنه إسماعيل فرحب ترحيباً عظيماً وصار عونا لأبيه في بناء ذلك العمل العظيم حتى إذا ارتفع البناء جاء بحجر كبير أسود فوضعه له فقام عليه إبراهيم لإتمام البناء ، ولما أتما المهمة دعيا ربهما أن يتقبل منهما ذلك العمل ، ثم سألا ربهما عز وجل أن يبعث في الناس رسولا «هو رسولنا الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم» ليعلمهم كتاب الله «وهو القرآن الكريم» والحكمة«أي الأمور الدينية الشاملة» .

وقد ورد ذلك مفصلاً في سورة البقرة بقوله تبارك وتعالى :

﴿وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبلْ منَّا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مُسْلمَيْنِ لك (منقادين او مخلصين لك) ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرِنا مناسِكنا (معالم حجنا او

(١) أخرجه البخاري الجزء الرابع ص ١٧٧

شرائعه) وَتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ ويزكيهم إنك أنْتَ العزيز الحكيم[1] ﴾ .

وقد تقبل الله تعالى دعاءهما وجعل البيت الحرام مرجعاً للناس يأتونه كل عام ، كما جعله مصدر أمن وطمأنينة لكافة قاصديه قال تعالى في سورة البقرة :

﴿واذ جعلنا البيت مثابة (مرجعاً او ملجأً او موضع ثواب) وأمناً[2] ﴾ .

وأنزل الله على نبيه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم أمرا ربانيا مكملاً للآية السابقة باتخاذ مقام إبراهيم مصلى يصلي المؤمنون عنده شكراً لله وحمداً له[3] :

قال تعالى في نفس الآية من سورة البقرة :

﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىٍ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أنْ طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ .

ثم دعا الخليل ربه أن يجعل مكة المكرمة وأهلها «والمقصود المنطقة بأكملها» وطناً آمناً ، وان يرزق اهلها الخير والبركة وهي الدعوة المستجابة التى مازلنا نرى أثرها العظيم على رخاء المملكة العربية السعودية ، قال تعالى :

﴿واذ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الاخر قال ومن كفر فأُمتِّعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير[4]» .

(١) سورة البقرة – الآيات من رقم ١٢٧ الى رقم ١٢٩

(٢) سورة البقرة – من الآية رقم ١٢٥

(٣) مقام إبراهيم هو الحجر الاسود الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناء البيت وقيل هو مقامه المعروف في المسجد الحرام .

(٤) سورة البقرة الآية رقم ١٢٦

وفي نفس هذا الاطار تقريبا ورد في سورة إبراهيم قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وإذْ قال إبراهيم رب اجعلِ هذا البلد آمنا واجنبني وبَنِيَّ أن نعبد الاصنام . رب إنهن أضْللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون(١)﴾ .

واذن خليل الله للناس بالحج إلى بيت الله الحرام وله ثواب من ربه مادام البيت قائماً والمسلمون إليه يحجون ويعتمرون ، ويتجهون نحوه في صلاتهم ، إن حركة إبراهيم وهاجر وطفلهما إسماعيل غيرت مسار التاريخ وجغرافية العالم إلى يوم الدين بل هي الحدث العظيم الثاني بعد طوفان نوح الذي تحكم في مسار السفينة البشرية ، فبتلك الحركة المباركة التى قامت بها هاجر وزوجها العظيم وابنهما الصديق أصبح الوادي المهجور غير ذي الزرع محجاً لملايين المسلمين ومقصداً لطلاب الماء وطلاب الأمن وطلاب القربى من الله ، ويكفي للتدليل على حجم هذا التحول في النمو البشري والوجود السكاني في هذه المنطقة التى كانت قفرا يكفي تذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم «صلّى في مسجد الخيف سبعون نبياً منهم موسى» .

فكم سار على خطوات إبراهيم وإسماعيل وهاجر من طائف وساع وحاج وواقف بالمناسك ؟ وكم سيسير قبل أن يأذن الله بطي صفحة الحياة الدنيا وبدء صفحة جديدة من الحساب والمآل بعد الحساب(٢) .

لنتدبر قوله الله تعالى في سور «الحج» :

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيات من رقم ٣٥ الى ٣٧ .

(٢) عوض محمد أحمد ـ جريدة الوطن ـ الدوحة ٣٠-١١ ـ ١٩٩٨م

﴿وإذْ بوأنا لإبراهيم (وطأنا او بينا له) مكان البيت ألاّ تشرك بي شيئا وطَهِّرْ بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود . وأذّن في الناس (ناد فيهم واعلمهم) بالحج يأتوكَ رجالاً (مشاة) وعلى كل ضامرٍ (بعير مهزول من طول المسافة وبعد الشقة) يأتينَ من كل فجٍّ عميقٍ (طريق بعيد) . ليشهدوا منافعَ لهم ويَذْكروا اسم الله في أيام معلوماتٍ على مارزقهمْ من بهيمة الأنعامِ (الابل والبقر والغنم) فكُلوا منها وأطعموا البائسَ الفقيرَ ثم ليقضوا تَفَثَهُمْ (يزيلوا بالتحلل أوساخهم أو ثم ليؤدوا مناسكهم) وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق[1] ﴾ .

وهكذا كان البيت الحرام مباركاً وهدى للعالمين من عابدين وطائفين تعظيماً لله واجلالا للواحد القهار .

ويكفي خليل الله فخراً ويكفينا بعده شرفاً ان البيت الذي رفع قواعده مع ولده إسماعيل سيبقى افضل بيت لله في أرض الله إلى يوم البعث الأكبر ، ويكفيه فخراً وتيهاً ان أصبحت بعض الأماكن التي اختبره الله فيها مناسك وفرائض أوجب على المسلمين أداءها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد خلّد الحق تبارك وتعالى لخليله إبراهيم ذِكْراً عطراً وسيرة وهاجة بالمجد ، وقدوة صالحة للاجيال المتتابعة ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ . كما وجه الحق لإبراهيم أعظم تحية من أكرم كريم في قوله : ﴿سلام على إبراهيم﴾ ، وقد ذكر لفظ السلام منكراً ليدل على الشمول . كما شرف الله خليله بقوله : ﴿كذلك نجزي المحسنين ، انه من عبادنا المؤمنين﴾ انها شهادة من الرب على عمق إيمان إبراهيم عليه السلام ، وانه نال مرتبة الاحسان التي هي أعلى مراتب السلوك في الدين .

رضوان الله على أبي الأنبياء الذي كان أول نبي هاجر من وطنه في سبيل دعوته .

---

(١) سورة الحج ، الآيات من رقم ٢٦ الى رقم ٢٩

الفصل السادس
خليل الرحمن في رحاب الخلود

انتهت بهذه السطور المتواضعة رحلة التطواف سريعة الإيقاع والتي نقلتنا إلى عالم الوحدانية المطلقة والسمو الروحي والأخلاقي في قمة تألقهما ، وعالم الملة الإبراهمية في أنقى نقائها ، وأصفى صفائها .

وعالم خير البرية كما سماه حبيبنا وشفيعنا المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وعالم الخلة الأبدية المثالية التي ستبقى نبراساً سرمدياً لعلاقة غير مسبوقة بين الخالق والمخلوق .

لقد أكرم الله خليله إبراهيم أيما إكرام . وأكرم في شخصه كل الانبياء والمرسلين والبشر أجمعين .

وقد «وفّى» الخليل في طاعة خليله أيما وفاء ، وقد شرف بوفائه كل الانبياء والمرسلين والبشر اجمعين .

وناجى الخليل ربه وهو في الوادي القفر ودعا بالخير والبركة لكل الناس ، خص نفسه وذريته ثم عمم الدعاء على من تبعه ، ثم على من عصاه ، ثم دعا لذريته بالخير والبركة وأن يأوي إليهم الناس حباً وشوقاً وهوى تفيض فيه دموعهم وتذوب أكبادهم وهم يأتون من كل فج عميق . ثم دعا مرة أخرى لنفسه وذريته ثم للمؤمنين كافة بالمغفرة والرحمة يوم يقوم الحساب .

ويكفي إبراهيم الخليل فخراً ويكفينا بعده شرفاً أن الله العزيز الحكيم جعل في ذريته النبوة والحكم والكتاب ، وأنه اعتبر دين خليله إبراهيم أحسن الأديان ، واعتبر ملته أحسن الملل ، وان الله تعالى امر حبيبه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم- وهو إمام الخلائق كلهم- باتباع ملة جده الاعظم إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ولأن إبراهيم في النهاية مخلوق ، وأن لحياة كل مخلوق نهاية ، فقد توفى الله خليله ، ونقله إلى جواره وهو أرفع واشرف جوار يطمح اليه مخلوق أي مخلوق .

ولكن ، كم سنة عاش إبراهيم؟

لم يذكر القرآن الكريم ذلك ، لكن سفر التكوين في أصحاحه الخامس والعشرين ذكر أن خليل الرحمن عاش مائة وخمساً وسبعين سنة ، وأن إبراهيم ولوطاً كانا متعاصرين فلوط ابن أخ لإبراهيم . وقد آمن لوط بعمه إبراهيم ، وكذلك إسماعيل رزق به إبراهيم وهو ابن ست وثمانين سنة ، وعندما ولد اسحاق كان عمر إبراهيم مائة سنة وهذا التصنيف كله على ذمة سفر التكوين ، وقيل إن سارة ماتت قبل إبراهيم الخليل ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة ، ودفنت بقرية «حبرون» وهي مدينة الخليل الفلسطينية المعروفة والتي سميت باسم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

وعند وفاتها حزن عليها زوجها حزناً كبيراً ورثاها ، واشترى من رجل «حيثي» يقال له «عفرون بن صخر» مغارة «المكفيلة» بأربعمائة شاقل من الفضة ودفن سارة فيها .

وقيل أيضاً : ثم خطب إبراهيم على ابنه إسحاق فزوجه «رفقة» بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الإبل[١] .

وعند أتباع التوراة ان الله تعالى أمر خليله بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم .

وأخرج الامام مالك في موطئه في كتاب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيبي قال : «كان إبراهيم أول من أضاف الضيف ، وأول الناس اختتن ، وأول الناس قص شاربه ، وأول الناس رأى الشيب فقال : يارب : ماهذا؟ فقال الله :

«وقار» ، فقال : يارب زدني وقاراً»[1]

صورة مصغرة عن الشطط التوراني

لقد أساء كتبة التوراة ومحرفوها إلى كثير من الأنبياء الكرام ، وفي مقدمتهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقد ادعوا «إنه كان يكذب ليصيب أموالاً وثروات من وراء زوجته» «سارة» برغم بلوغها سن الشيخوخة لتأكيد أن إبراهيم كان يرتكب المعاصي والأخطاء ، وبالتالي فإن زواجه من هاجر كان أحد اخطائه التي انزلق إليها ، ومن ثم عدم استحقاق اسماعيل للدخول في عهد أو ميثاق الله مع إبراهيم ، وما يترتب على ذلك من نفي النبوة عن اسماعيل ونسله حسداً لإسماعيل على البشارات التي كرمه الله بها ، ولعدم مشاركة بني إسرائيل في تميزهم عن باقي الشعوب كما يدعون .

وكان لتكرار نسبة الكذب إلى إسحاق تأكيد لشيوع هذه الصفة في الأنبياء ، وأنها لم تكن قاصرة على إبراهيم ، رغم أن ملابسات هذه القصة تنفي تماما ما زعمه كتبة التوراة .[2] . .

ومن هنا علينا الانتباه تماماً إلى عدم حجية التوراة في دراسة العقائد والتاريخ نتيجة الوقوع في خطيئة التناقض وتسفيه الأنبياء فهناك اسفار في التوراة تدل على أنها كتبت في عهد الملوك أي بعد استيلاء إسرائيل على بلاد الكنعانيين وذلك بعد وفاة موسى عليه السلام بعدة مئات من السنين .

ومما يدل على أن هناك تحريفاً واضحاً في التوراة استعمال بعض الاستدلالات اللغوية واختلافها حسب البيئة والزمان من مثل كلمة الإله : فهي تستعمل عندهم أحياناً باسم «إلوهيم» ومرة أخرى باسم «يهوه» مع الاختلاف في نطق هاتين الكلمتين .[2]

(١) الحافظ ابن كثير- قصص الأنبياء- مرجع سابق

(٢) محمد قاسم محمد- التناقض في تواريخ وأحداث التوراة -القاهرة- ١٩٩٢م . . .

هل اليهود شعب الله المختار؟!

هذا . . ويزعم بنو إسرائيل أنهم شعب الله ا لمختار وهم في ذلك يعتمدون على عهد إبراهيم القديم وليس على ملة إبراهيم . وعهد إبراهيم عبارة عن خرافة اخترعها اليهود وجعلوها محوراً وغاية وهدفاً .

ويزعم اليهود أن الله جل جلاله جاء لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في المنام وقال له : انظر يميناً وشمالاً ، هذه الأرض لك أعطيتها ولنسلك ، ثم تكرر المجيء لإبراهيم اربع مرات كانت مساحة الارض تزيد في كل مرة حتى وصلت إلى النيل ، ثم تكرر هذا العهد لإسحاق ويعقوب «هذه الارض لك ولنسلك» .

لكن هذا الوعد كما يقول أستاذنا الشيخ عبدالمعز عبدالستار لم يتحقق فقد عاش إبراهيم مائة سنة في فلسطين لم يملك فيها شبراً كما جاء في سفر «أعمال الرسل» ولما ماتت زوجه سارة لم يكن يملك لها قبراً كما جاء في سفر التكوين[1] .

وكذلك عاش إسحاق ويعقوب اكثر من مائة سنة بفلسطين أصحاب خيام وأنعام ثم ارتحل يعقوب «إسرائيل» ببنيه إلى مصر وبقوا فيها ٤٣٠ سنة .

أخيراً بعث موسى بعد نحو سبعمائة سنة وبدأ يحقق هذا الوعد ويثير الحرب لامتلاك الأرض ، ولما مات تابع تلميذه يشوع النبي غاراته فاستولى على فلسطين بنفس مخطط الإبادة . إنه ولا شك وعد كاذب ولكن الشعب المختار جعله السند القانوني في امتلاك الأرض .

ويزعم اليهود أن الله أطلق لهم الحرية والتملك في البلاد وقال لهم : «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم»! مع أنه يقول

(١) عبدالمعز عبدالستار – الشعب المختار في الميزان – القاهرة – ١٩٩٨ .

تعالى في كتابه الخالد : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1] .

إذن جعل الله وراثة الارض لعباده الصالحين وليس لشعب معين وجعل سبحانه مقياس الاستحقاق الصلاح للعمارة والعبودية لله تعالى .

الخليل . . تحتضن رفات الخليل

لقد تباركت ذرات التراب الفلسطيني في مدينة الخليل ، فضمت بكل الحنو والتحنان رفات أنبياء الحق : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف ولوط ويونس ، فاستحقت بجدارة لقب «مدينة الأنبياء» إضافة إلى لقبها الأول مدينة خليل الرحمن .

وقد دعيت الخليل بداية باسم «حبرون» زمن وجود يوشع بن نون وذلك نسبة إلى أحد أقطاب اليهود الذي مات ودفن فيها ، وحبرون اسم يهودي معناه «الرباط» .

والمشهد الذي نراه اليوم على رفات الخليل بناه الأمويون فوق مغارة«المكفيلة»[1] وهناك بعض المسلمين يعتبرون الحرم الإبراهيمي رابع مسجد في الإسلام بعد المسجد الحرام بمكة المكرمة . والمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة . والمسجد الأقصى المبارك بالقدس الشريف .

وجدير بالذكر أن مغارة المكفيلة ظلت موصدة في وجوه الزوار والمقيمين مدة تزيد عن سبعمائة سنة ، لكن بعد سقوط مدينة الخليل في قبضة المحتلين الصهاينة عام ١٩٦٧ ، استباح اليهود لأنفسهم حرية الدخول إلى المغارة والعبث فيها وفي الحرم الإبراهيمي ذاته .

لقد ظل اليهود قبل احتلالهم للمدينة يرفعون شعار «العودة إلى

---

(١) المكفيلة كلمة سامية معناها «المغارة المزدوجة» .

حبرون مدينة الأنبياء» ولما تحقق أملهم- في غياب الوحدة العربية والاسلامية- صاروا يمارسون أحقادهم على الحرم الإبراهيمي وعلى السكان الفلسطينيين ، وأعلنوا تحويل الحرم إلى كنيس يهودي سموه «كنيس مكفيلة» وقام حاخام إسرائيل الأكبر بإقامة قوس للحاخامية بجوار ضريح إبراهيم الخليل ، ووضع عليه التوراة بعد أن أزاح القرآن الكريم عن موضعه(١) .

وتحت نفس الشعار «العودة إلى حبرون» أيضاً استولت إسرائيل على آلاف الدونمات التابعة لمدينة الخليل وفي عام ١٩٧٠ باشرت تلك السلطات ببناء أكبر واخطر وأول مستعمرة يهودية في المدينة باسم «كريات أربع» في محاولة آثمة لاعادة الدعوى بيهودية الخليل . وقد عبر عن ذلك صراحة مجرم الحرب ميناحيم بيجن حين قال : إن استيطان الخليل هو استيطان ميراثي لليهود .

ويقيم في هذه المستعمرة حاليا نحو أربعمائة من غلاة ومتطرفي اليهود ممن لا تأخذهم في إيذاء المسلمين ومقدساتهم لومة لائم أو نقد ناقد ، بينما يزيد عدد سكان المدينة العرب عن مائة وعشرين الف نسمة . وعمد أحد متطرفي المستعمرة ويدعى «غولدن روبنشتاين» إلى إطلاق النار على المصلين المسلمين داخل الحرم الإبراهيمي الشريف في شهر رمضان المبارك من عام ١٩٩٤ ، مما أدى إلى استشهاد تسعة وعشرين مصلياً ، وجرح أكثر من ثلاثمئة .

وفي عام ١٩٩٧ تم الاتفاق بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية على تقسيم مدينة الخليل ، واحتفظت اسرائيل بنحو عشرين بالمائة من مساحة المدينة ومن ضمنها -للأسف- الحرم الإبراهيمي الشريف . حيث تسيطر إسرائيل على نسبة ٦٥ بالمائة من مساحته التي تشمل

١- نبيل خالد الآغا- مدائن فلسطين- المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت- ١٩٩٣ .

قبور يعقوب وزوجه لائقه والنبي يوسف ، بينما يسيطر الفلسطينيون على نسبة ٣٥ بالمائة وهي المساحة المتبقية وتشمل قبور إبراهيم وزوجه ساره وإسحاق وزوجة رفقه ، ويتبادل الطرفان إغلاق القسمين عشرة أيام في السنة لكل منهما .

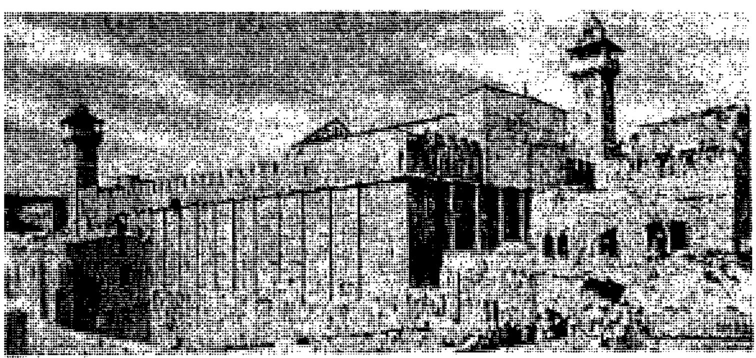
والله وحده العالم إلى أين ستنتهي حدود الأطماع اليهودية في ديار العرب والمسلمين .

حقيقة لقد أعطت الديار الفلسطينية المقدسة للبشرية بعداً حضارياً ، وعمقاً انسانياً ، حتى غدت وجهة لكل عباد الله من مسلمين ومسيحيين ويهود . إلا ان العدو الصهيوني التوراتي قد أهان -وما برح- كل القيم الإنسانية النبيلة لانه لا يرى في الاديان والرسالات إلا وسيلة تبرر غاياته التوسعية المحمومة .

واخيراً . . لنردد دعاء خليل الرحمن صبيحة كل يوم :

اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه علي بطاعتك ، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك ، وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها ، وضعفها لي ، وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم .

قال : ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه ، وسلام على إبراهيم في العالمين .



الباب الثاني

نبي الله لوط

الفصل الأول
لوط ظلمه قومه فأنصفه ربه

ترتبط قصة حياة لوط عليه الصلاة والسلام ارتباطاً وثيقاً ببعض جوانب قصة حياة عمه الأكبر إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

وكان الحق تبارك وتعالى قد أوحى إلى نبييه الكريمين أن يفترقا عن بعضهما البعض ليكمل كل منهما ما عليه من تبعات الرسالة التوحيدية وواجباتها .

فتوجه لوط وأهله إلى سدوم وعمورة بمنطقة أريحا شرقي القدس والتي يقول بعض المؤرخين انها كانت تشمل سبع قرى في مكان البحر الميت حالياً ، ولكن سدوم وعمورة كانتا أشهر تلك القرى . وسدوم بالذات هي الأكثر شهرة وانتشاراً .

وقد ذكرنا خلال استعراضنا لحياة إبراهيم الخليل بأن الملائكة الثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل الذين تشكلوا على هيئة رجال مروا بأبي الأنبياء فبشروه وزوجه العجوز العاقر بغلام عليم ، وقد انتهت بتلك البشارة المهمة الأولى للملائكة الكرام .

وابتدأت مهمتهم الثانية .

ولأمر لايعلمه إلا الله تعالى فقد صدرت التعليمات الإلهية لهم بإخبار إبراهيم عن مهمتهم تلك ، وقد كان باستطاعتهم الاتجاه مباشرة إلى سدوم لتنفيذ المهمة دون المرور بإبراهيم أو حتى دون إخباره بالمهمة أصلاً ، لكن يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ ان ذلك الامر كان إكراماً شخصياً لإبراهيم وتقديراً إلهيا خاصاً بخليل الرحمن .

ورداً على استفساره القائل لهم : ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾

أجابوه على الفور :

﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ .

وفي آية كريمة أخرى حددوا مهمتهم بصورة مباشرة وقالوا :

﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية إن اهلها كانوا ظالمين[1]﴾ .

وعلى الفور تحركت في قلب إبراهيم الأواه الحليم صلة الدم والروح التي تربطه بابن اخيه لوط ، فقال للملائكة الاطهار مشفقا : ﴿ان فيها لوطا﴾ فردوا عليه مباشرة : ﴿نحن أعلم بمن فيها﴾ .

وأكدوا له ان لوطاً سيكون في أمان الله مع أهله باستثناء زوجته وأكدوا على قولهم :

﴿لننجّيّنهُ وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين (الهالكين[2]) .

فما قصة هؤلاء القوم؟

وما الجريمة التي ارتكبها قوم لوط حتى استحقوا غضب الله الشديد عليهم وقد وصفهم بالمجرمين تارة وبالطاغين تارة أخرى؟

ولماذا انتقم الله منهم واستثنى لوطاً وأهله ولم يستثن زوجته فأصابها ما أصاب أهل القرية؟

وماطبيعة الانتقام الذي انتقمه الله منهم؟ ولماذا كان ذلك الانتقام مميزاً لهم عمن سواهم من المجرمين؟

●●●

لقد ذكر الله تعالى لوطاً وقومه سبعاً وعشرين مرة في سور عديدة في القرآن الكريم بلغت أربع عشرة سورة هي :

الأنعام ، الأعراف ، هود ، الحجر ، الأنبياء ، الحج ، الشعراء ، النمل ، العنكبوت ، الصافات ، ص ، ق ، القمر ، التحريم .

كانت مهمة لوط عليه الصلاة والسلام مهمة عسيرة وشاقة ومضنية ، وربما كان مبعث ذلك العسر أن لوطاً كان يفتقر إلى قبيلة تحميه ، وعصبية تشد ازره ولم تكن له سطوة ولاقوة يستند عليها في

(١) سورة العنكبوت - من الاية ٣١

(٢) سورة العنكبوت - من الاية ٣٢

أداء مهمته ، إضافة إلى أن أهل سدوم كانوا مجبولين على الشر في أسوأ صورة وأبشع أشكاله لذلك لم تكن استجابتهم للوط لتلقى منهم القبول أبداً بل على العكس من ذلك فقد استهزؤوا بلوط وأهله واتهموهم بتهمة هى في حد ذاتها مبعث شرف لكل الأتقياء والانقياء حيث اتهموهم بأنهم ﴿أناس يتطهرون﴾ .

وأصدروا حكمهم الجائر على آل لوط وقالوا : ﴿اخرجوا آل لوط من قريتكم﴾!

وقد تجسدت في قوم لوط عديد من الصفات القبيحة والعادات المرذولة والسلوكيات الحقيرة التي أضحت عناوين بارزة لهم بل ولصقت بهم إحدى أبشع الجرائم في التاريخ البشري وكذلك بمن يسلك سلوكهم إلى يوم الدين لأنهم أول من ابتكروها وهي جريمة معاشرة الرجال الرجال ، وإتيان الذكران من العالمين ، وترك ما أحل الله من معاشرة الزوجات لإطفاء شهوة الغريزة الجنسية من جانب وللإبقاء على استمرارية الجنس البشري من جانب آخر .

سلوك غريب وعجيب ومقزز ومجاف لكل الطبائع البشرية والحيوانية أيضاً ، فالحيوانات العجم لا تسلك هذا السلوك الممقوت الذي تأباه الشهامة وتنبذه المروءة وتمجه الفطرة الإنسانية السوية التي فطر الله الناس عليها .

ومن غريب أن هذا الفعل تم إلْصاقه عن عمد أو عن جهل أو كليهما معاً بالرسول النقي الطاهر لوط عليه الصلاة والسلام فيقال فلان«لوطي» وهذا افتئات على الواقع ، وتجن على لوط نفسه ، والأصح أن يقال «سدومي» نسبة إلى سدوم ، أو يقال إن فلاناً أخطأ ففعل فاحشه قوم لوط ، وذلك بهدف إبعاد الفعل عنه عليه السلام .

ومما يضاعف من بشاعة عمل قوم لوط أنهم كانوا يجاهرون بمعاصيهم ويتباهون بارتكابها أمام الناس ، ولا يستترون ببلائهم ولايستحيون من

أهليهم فقد كانوا كلهم أمام الشيطان سواء لاتمييز بينهم إلا بالاستمرار في ارتكاب المعاصي .

قال تعالى على لسان لوط وهو يعظ قومه :

﴿وتأتون في ناديكم (مجلسكم الذي تجتمعون فيه) المنكر[1]﴾ .

أما الجريمة الثالثة التى كان يرتكبها قوم لوط فقد كانوا يقطعون الطريق ويتربصون بكل قادم إلى المنطقة فيستولون على ممتلكاته فهم كما قال الله فيهم ﴿ويقطعون السبيل[2]﴾ .

وتفصيلا لهذه الجريمة أورد الشيخ عبدالوهاب النجار في كتابه الشهير«قصص الأنبياء» وصفا لهذه المعاملة نقلاً عن إحدى كتب الأدب العبري ، فقد كان قوم لوط يتربصون لكل داخل إلى مدينتهم ويجتمعون عليه ويمدون أيديهم إلى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئاً قليلاً حتى لايبقى في يده شيء ، فاذا جلس حزيناً وجأر بالشكوى يأتى الواحد منهم ويقول كل هذا لأني أخذت هذا الشيء اليسير؟ دونكه «خذه» فيقول : ما عسى أن ينفعني ما جئتَ به بعد أن ذهبت بضاعتي؟

اذهب عني بهذا الذي جئت به .

فإذا انصرف جاءه آخر بشيء تافه يريد رده عليه فيتركه الرجل لزهادة ما أتى به وينصرف .

وهكذا يخسرالرجل بضاعته بتفرقها في الأيدي الكثيرة فهم كما قال تعالى فيهم ﴿ويقطعون السبيل﴾ .

وهناك نموذج آخر من ظلم اهل سدوم . .

يقال إن «سارة» زوج إبراهيم عليه الصلاة والسلام أرسلت إلى كبير

---

(١) سورة العنكبوت - من الآيه رقم ٢٩

(٢) سورة العكنبوت - من الآية رقم ٢٩

العبيد لدى إبراهيم ويدعى «اليعازر» ليأتيها بأخبار تطمئنها عن سلامة لوط ابن أخ زوجها .

فلما دخل الرجل إلى المدينة لقيه أحد مواطنيها فعرف على الفور انه غريب فقذفه بحجر فأسال دمه بغزارة فتمادى السدومي في ظلمه وامسك بثياب الرجل وقال له :

ان هذا الدم لو بقي في جسمك لأضرك ويجب عليك أن تعطيني أجراً لإسالتي دمك!

فرفض «اليعازر» حتى انتهيا إلى قاضي سدوم ، فلما سمع أقوال الخصمين حكم على «اليعازر» بأن يعطي للسدومي أجر ماضربه بالحجر وأسال دمه .

فلما رأى «اليعازر» ظلم القاضي والخصم ، تناول حجراً وضرب رأس القاضي فأسال دمه وقال له :

الأجر الذي وجب لي عليك بإسالتي دمك عليك أن تعطيه للرجل الذي ضربني جزاء ضربه إياي وإسالة دمي!

ومثل هذا الظلم أدى إلى قول المعري :

وأي امرئ في الناس ألفى قاضيا
ولم يمض أحكام لحكم سدوم .

قوم لوط يعتزون بفواحشهم !

استنكر لوط كافة ممارسات قومه الخاطئة ، وجاهد بكل ما آتاه الله من قوة الحق ومنطق العقل ليبين لقومه أبعاد الخطايا التي يمارسونها ويغرقون في مستنقعاتها .

ولم يطلب منهم اجتراح المعجزات أو عمل شيء خارج عن نطاق قدراتهم البشرية ، كان طلبه واضحاً ومتواضعاً وصريحاً : اعبدوا الله الواحد القهار الذي لاشريك له : واتركوا كافة أنواع الخطايا التى

ترتكبونها فأنا رسول الله إليكم فأطيعوني تسلموا وتنالوا الخير والبركة ، لكنهم ركبوا رؤوسهم وكذبوا رسولهم كما كذبوا غيره من الرسل .

لنتدبر هذه اللوحة القرآنية من سورة الشعراء :

﴿كَذَّبتْ قومُ لوطٍ المرسلين . اذ قال لهم أخوهم لوطٌ الا تتقون . إنّي لكم رسول امين . فاتقوا اللهَ وأطيعونِ . وما أسألكم عليه من أجْرٍ إن أجري إلا على رب العالمين . أتأتونَ الذكرانَ من العالمين . وتذرونَ ما خلق لكم ربُّكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون«متجاوزون الحد من المعاصي»[1]﴾ .

وفي لوحة أخرى من سورة «الأعراف» نقرأ استنكار لوط لخطايا قومه : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتونَ الفاحشةَ ماسبقكم بها من أحد من العالمين انكم لتأتون الرجالَ شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مُسرفون[2]﴾ .

ومرة ثالثة يتكرر استنكار لوط لممارسات قومه . . تقول اللوحة القرآنية من سورة النمل :

﴿ولوطاً اذ قال لقومه أتأتونَ الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون[3]﴾ .

فماذا كانت محصلة هذا الكم الوافر من النصائح والإرشادات؟

أخذت قوم لوط العزة بالإثم وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم وتمادوا في غيهم وضلالهم ورفضوا وصفات العلاج التي قدمها لوط لهم .

ليس هذا فحسب بل طالبوا باخراج لوط وأهله من المدينة ووجهوا لهم تهمة هي في حد ذاتها الشرف نفسه والفضيلة بعينها .

---

(١) سورة الشعراء ـ الآيات من رقم ١٦٠ الى رقم ١٦٦

(٢) سورة الأعراف ـ الآيتان رقم ٨٠ ، ٨١

(٣) سورة النمل ـ الآيتان رقم ٥٤ و ٥٥

تقول اللوحة القرآنية من سورة الأعراف :

﴿وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون[1]﴾ .

وتكرر الرفض ثانية في سورة «النمل»

﴿فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهرون [2]﴾ .

ولم يكتف الظالمون بهذا الإجراء التعسفي بل استهزؤوا برسالة نبيهم الكريم وبوعيده لهم بعذاب الله فتحدوه وقالوا :

﴿إئتنا بعذاب الله ان كنتَ من الصادقين[3]﴾ .

السماء تنقذ لوطا

لقد أدرك لوط في نهاية المطاف أنه يواجه قلوباً متحجرة لاينفجر ماؤها ولافائدة ترجى من محاولات إضافية لهدايتها ، ففوض أمره لخالقه وبعث الله جل جلاله ثلاثة من كرام ملائكته الاطهار هم بأعينهم الذين ورد ذكرهم في سيرة أبي الأنبياء إبراهيم وهم جبريل وإسرافيل وميكائيل والذين بشروه بابنه إسحاق ثم أخبروه بأنهم متوجهون للانتقام من قوم لوط .

ومن المؤكد أن الملائكة في قصص القرآن الكريم يتصرفون في دائرة عبوديتهم لله ، فلا يعصون لله أمراً بل يفعلون ما يؤمرون ، وهذا جوهر مهمتهم وهم ليسوا قوى خفية لهم القدرة على التصرف في الكون كما يشاءون ، وإنما هم في تلك الحالات عباد من عباد الله الطائعين

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية رقم ٨٢

(٢) سورة النمل ، الآية ٥٦

(٣) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٢٩

المخلصين وقد تجلى ذلك واضحاً في سيرة إبراهيم وهنا في قصة لوط فقد تشكلوا في صورة بشر أسوياء ، وإن اختلف المؤرخون والمفسرون في تحديد عددهم بالنسبة للنبيين الكريمين .

جاء الملائكة على هيئة فتيان حسان الوجوه والجسوم ، ودخلوا قرية سدوم عصراً في مهمة اختبارية أخيرة لهؤلاء الفاسقين وإقامة للحجة عليهم .

يتحدث المؤرخون عن مقابلة الفتيان لفتاة سدومية كانت ترعى الغنم على تخوم القرية ، طرحوا عليها السلام ، راعها جمالهم وحسنٍ هيئتهم ودماثة أخلاقهم ، سألوها عن مأوى يمكنهم الإيواء إليه ليلاً أشفقت عليهم ـ بينها وبين نفسها ـ من شراسة قومها ، ناشدتهم عدم التوغل إلى أعماق القرية خشية عليهم من سوء سلوك قومها معهم كدأبهم مع كل الغرباء ، استأذنتهم بالانصراف لإبلاغ أبيها لوط بالامر على أن تعود إليهم بالجواب دونما إبطاء ولاتأخير منها ، وفوجئ لوط بالنبأ فلم يسعد به وقال بعفوية الأبرياء :

هذا يوم عصيب .

لكنه لم يجد بداً من استقبالهم والعمل على حمايتهم

قال الحق مترجماً حال لوط في تلك الساعة :

﴿ولما أن جاءت رُسلنا لوطاً سيء بهم (نالته المساءة بمجيئهم) وضاق بهم ذرعا (طاقة ووسعا) وقال هذا يوم عصيب (شديد شره[1]) ﴾ .

كان لوط كريما كعمه إبراهيم ، وكان بوده أن يكرم أضيافه ويفتح لهم قلبه ويطبقه عليهم احتفاءً بهم وخوفا عليهم في ذات الوقت!

وتسللوا كلهم إلى داخل بيت لوط فلم يعلم بدخولهم أحد إلا أهل بيته ، ومن سوء الحظ أن زوجة لوط لم تؤمن بما آمن به لوط ، ولم

---

(١) سورة هود ـ الآية رقم ٧٧ .

تستجب لدعوته بعبادة الله وحده لاشريك له وظلت على ولائها لقومها الكفرة الفجرة .

ولم يشأ الله العزيز الحكيم ـ ولحكمة عليا هو سبحانه أعلم بها ـ أن يقذف الإيمان في قلبها وهي زوجة لرسول كريم لم تكتف بالكفر ذنباً وجريمة بل اضافت إليه ذنباً آخر وجريمة أخرى فأصبحت كافرة وخائنة في وقت واحد لكن لم تكن خيانة زوجية أو أخلاقية . بل كانت خيانة تسريب خبر مجيء الأضياف ونقله بسرعة إلى قومها البغاة .

الفصل الثاني
لماذا أهلك الله امرأة لوط؟

لقد استحقت امرأة لوط لقب المرأة الخائنة لأنها بمجرد علمها بدخول هؤلاء الأضياف الحسان إلى بيتها ، بادرت بالتسلل وإبلاغ بعض رجالات قومها ، وأخبرتهم بأن في بيت لوط أضيافاً حساناً ، فالتقط القوم الخبر وهرعوا من فورهم إلى بيت لوط ، فاقتحموه محاولين الاعتداء الجنسي على من نزلوا فيه من الأغراب .

قال تعالى معبراً عن هذا الموقف :

﴿وجاءه قومُهُ يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾[1] .

وربما تساءل لوط بينه وبين نفسه وهو في ذروة الغضب والانفعال :

كيف وصل الخبر إلى قومه؟ ومن الذي أخبرهم بهذه السرعة؟

وساوره الشك في تصرفات زوجته ، بحث عنها داخل أركان البيت ليسألها ، لكنه لم يجدها . وأصبح الشك يقيناً ، إنها الزوجة الخائنة التي خانت أسرار زوجها .

هذا وقد ارتبطت خيانة امرأة لوط بخيانة امرأة نوح في سورة «التحريم» فقال الحق تبارك وتعالى : -

﴿ضربَ الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدَيْن من عبادنا صالحيْن فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما (ولم يمنعا عنهما) من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[2] .

وبحث لوط عن آخر قطرة في مداد نصائحه وإرشاداته لقومه ، حاول أن يوقظ فيهم آخر نبضات الرجاء والأمل ، أرشدهم إلى غشيان

---

(١) سورة هود ، من الآية رقم ٧٨

(٢) سورة التحريم ، الآية رقم ١٠

نسائهم وهن بناته شرعاً لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿النبي أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾[1] .

كما أن النساء أطهر للرجال من الرجال للرجال بما لا يقاس .

قال العزيز الحكيم في سورة «هود» مصوراً بدقة هذا العرض على لسان لوط لقومه :

﴿قال : يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾؟![2] .

فأجابه قومه بكل جلافة ووقاحة :

﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وأنك لتعلم ما نريد﴾ [3] .

وأسقط في يد لوط . . .

أحس بالضعف يسري بين جوانحه للحظة واحدة ، وبالضيق يطبق عليه ضلوعه ، وأحس بالغربة تنهش قلبه ، فهو عاجز عن دفع الأذى عن ضيوفه ، والكفرة الفجرة يقفون على مقربة منهم يترصدونهم ، ويضيقون الخناق عليهم وعلى مضيفهم ، فقال لوط متأوهاً ومتحسراً :

﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي (أستند) إلى ركن شديد﴾ [4] .

وبهذه الكلمات وصل مؤشر الغضب والقهر عند لوط أعلى الدرجات ، ومنتهى القدرات .

وعندئذ أصدر الحق تبارك وتعالى إشارة البدء بالخلاص ، وانطلق رسل الله انطلاقة هادئة ومسؤولة ومطمئنة ، وكشفوا للوط للمرة الأولى عن هويتهم ومهمتهم .

---

(١) سورة الأحزاب من الآية رقم ٦

(٢) سورة هود من الآية رقم ٧٨

(٣) سورة هود من الآية رقم ٧٩

(٤) سورة هود من الآية رقم ٨٠

﴿قالوا يا لوط إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾[1] .

فهدأ روع لوط ، واطمأن قلبه ، وسرت قشعريرة السعادة في قلبه وكيانه ، ولسان حاله يقول :

الحمد لله لقد أويت إلى ركن الله الشديد ، ونِعْمَ ركن الله الشديد .
لكن الإشارة بطبيعة الحال لم تستقبلها آذان الظالمين الظامئين لارتكاب الخطيئة الكبرى التي كانوا أول المبتكرين لها ، وأول المنتهجين لبذاءتها ، واندفعوا نحو البيت كالثيران الهائجة ، وانقضوا على الأضياف ، فانقضّ عليهم أمين وحي السماء عليه السلام وضربهم بطرف جناحه ، فطمست عيونهم ، بل زال عن وجوههم ، وصاروا يتحسسون جدران البيت باحثين عن سبيل للنجاة .

وفي السياق القرآني نقرأ اللوحة التالية من سورة «القمر» :

﴿ولقد راودوه عن ضيفه (طلبوا منه تمكينهم منهم) فطمسنا أعينهم (أعميناهم) فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبّحهم بُكرة (أول النهار) عذاب مستقر﴾ .

ورسم الملائكة خطة طوارئ محكمة لإنقاذ لوط وأهله من هذه القرية الظالم أهلها .

أمروا لوطاً أن يخرج بصحبة أهله آخر الليل ، ويتركوا هذه القرية الملعونة التي قدر الله تعالى أن ينزل بها العقاب الشديد الذي تستحقه ، وطلبوا ألا يلتفت أحد من أهل لوط وراءه حتى لا يروا ما سيحل على القوم الفاجرين من العذاب الذي يكفي لوقوعه بالإنسان مجرد النظر إليه!

وقد استثنت خطة الإنقاذ الملائكية امرأة لوط الكافرة من الإنقاذ ، فلا بد أن يصبيها ما سيصيب قومها من الهلاك ، برغم كونها امرأة لهذا

---

(١) سورة هود من الآية رقم ٨١

النبي الكريم ، لكنها لم تكن على أية حال امرأة كريمة ، فلا بد أن تدفع ثمن خيانتها ، وتأييدها لقومها الكفرة الفجرة .

وأمر الملائكة لوطاً أن يتذرع بالصبر والسكينة ، عند نزول العذاب بالقوم الضالين .

واستفسر لوط من الملائكة عن موعد تنفيذ العقاب ، فأخبروه أن ذلك سيتم بإذن الله صباحاً ، وكأنه عليه الصلاة والسلام استبطأ ذلك الصباح .

وقد صور القرآن الكريم ذلك المشهد في سورة «هود» .

﴿فأسْر بأهلك بقطع (بطائفة) من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾؟! (١) .

وفي الموعد المحدد خرج لوط وأهله من مدينة الآثام .

وكان خروجهم بناءً على قرار رباني حكيم . ولم يكن قراراً سدومياً كالذي اتخذوه من قبل والذي قالوا فيه :

﴿أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ (٢) .

كان القرار ربانياً بحتاً يهدف إلى نجاة الطاهرين الطائعين من عباد الله المخلصين . . وكان تمهيداً لتنفيذ قرار رباني صارم بمعاقبة المعاندين لله ولرسوله .

وبقدر ما كانت بشاعة الجرائم السدومية بقدر ما كانت صرامة الانتقام الرباني . .

فما نوع ذلك العقاب؟ وما حجمه؟ وما هي عواقبه؟

ردود هذه الأسئلة وردت في سور قرآنية عديدة ، وآيات قرآنية

---

(١) سورة هود – من الآية رقم ٨٠

(٢) سورة الأعراف – من الآية رقم ٨٢

مختلفة .

أما السور فمنها :

الأعراف ، هود ، الحجر ، الشعراء ، النمل ، النجم ، الذاريات ، أما الآيات فمنها :

﴿فلما أن جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل (طين طبخ بالنار) منضود (متتابع في الإرسال) . مسوَّمة (معلَّمة للعذاب) عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ [1] .

وقال تعالى في سورة «النجم» .

﴿والمؤتفكة (قرى قوم لوط) أهوى (أسقطها إلى الأرض بعد رفعها) فغشّاها (ألبسها وغطاها) ما غشّى ، فبأي آلاء ربك (نعمه) تتمارى (تتشكك)﴾؟ [2] .

وقال تعالى في سورة «الشعراء» .

﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساءَ مطر المُنْذَرين﴾[3] .

وجميع هذه الآيات الكريمة تؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد أهوى بسدوم وأهلها وقلب عاليها سافلها ، وغشاها بمطر هائل ومتلاحق من حجارة خاصة مطبوخة بالنار ، وكل حجر يحمل رقماً خاصاً مسجلاً عليه اسم صاحبه الذي سقط عليه فأماته .

وقال المفسرون أن جبريل عليه السلام اقتلع بجناحه الضخم قرار المدائن السبع بمن فيها من الأمم ، وما معهم من الحيوانات ، وما يتبع تلك المدائن من الأراضي والمساكن ، فرفع الجميع حتى بلغ بهم عنان السماء ، وسمعت الملائكة أصوات ديكتهم ، ونباح كلابهم ، ثم قلبها جبريل عليهم فجعل عاليها سافلها ، ﴿وقُطع دابر القوم الظالمين والحمد

(١) سورة هود - الآيتان ٨٢ و ٨٣

(٢) سورة النجم ، الآيات من رقم ٥٣ إلى رقم ٥٥

(٣) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٧٣

لله رب العالمين﴾ .
وهنا لا بد من ملاحظة . . .
فجزاء قوم لوط كان من نفس جنس خطيئتهم ، فهم حينما أتوا الرجال شهوة من دون النساء لم يسبقهم إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة سابق من العالمين . .
فهم قلبوا ميزان البشرية التي فطر الله الناس عليها وهي اشتهاء النساء دون الرجال .
فعاقبهم الله تعالى بقلب قراهم وأماكن وجودهم رأساً على عقب .
وأمطر عليهم مطراً منتناً رمزاً لمائهم الدنس الذي وضعوه في غير الموضع الطبيعي الذي أمرهم الله تعالى أن يضعوه فيه ، والذي من شأنه أن يحفظ للجنس البشري طهره وشرفه وكرامته ، إضافة إلى استمرار نسله .
ولكن . . ماذا تم بشأن امرأة لوط؟
يقال أنها خرجت مع زوجها وبنتيها ، ولما سمعت أصوات الانتقام الرباني في المنطقة التفتت خلفها لترى ماذا حل بقومها ، مخالفة بذلك أمر ربها سابقاً ولاحقاً . . وصاحت خائفة مذعورة :
واقوماه . . .
فسقط عليها الحجر الذي كان معلماً ومسمى باسمها . فقضى عليها في الحال . وذكرت التوراة أن زوجة لوط عندما كانت مبتعدة عن المدينة ، التفتت وراءها ، فصارت عمود ملح . . . . ثم ذابت!!
هذا . . وقد رسم الشاعر العربي المعرووف أمية بن أبي الصلت لوحة شعرية لحال سدوم وأخواتها جاء فيها :

ثم لوط أخو سدوم أتاها
إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا :

قد نهيناك أن تقيم قراها

عرض الشيخ عن ذاك بنات

كظباء بأجرع ترعاها

غضب القوم عند ذاك عذاباً

جعل الأرض سُفلها أعلاها

ورماها بعاصب ثم طين

ذي حروف مُسوَّم إذ رماها

وقال الحق جل جلاله مصوراً جانباً من حال سدوم وأخواتها :

﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾(١)

.... ونقف قليلاً عند الآية الأخيرة :

﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ .

.... ونقف قليلاً أيضاً عند قول الحق في سورة «الحجر»

﴿... وإنها لبسبيلٍ مقيم (طريق ثابت لم يندثر)﴾ (٢) .

.... ونقف قليلاً وللمرة الثالثة عند قول الحق في سورة «الصافات» :

﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون﴾؟ (٣) .

.... ونتوقف للمرة الأخيرة قليلاً عند قول العزيز الحكيم وأيضاً في سدوم واخواتها :

﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون﴾(٤) .

---

(١) سورة الذاريات – من الآية رقم ٣٥ إلى رقم ٣٧

(٢) سورة الحجر – من الآية رقم ٧٦

(٣) سورة الصافات – الآيتان ١٣٧ – ١٣٨

(٤) سورة العنكبوت – الآية رقم ٣٥

فهذه الآيات تشكل في مجموعها حزمة ضوئية قوية مسلطة على الجريمة السدومية المبتكرة، وأنها ما زالت قائمة حتى الآن وإن بصور مختلفة، وأشكال متباينة، وإن عقوبة الله تعالى ليست ببعيدة بمن يتشبهون بقوم لوط في فعلهم المنكر.

وقد ذهب كثير من الصحابة والعلماء والفقهاء على قتل اللائط سواء أكان محصناً أو غير محصن، سواء أكان فاعلاً أم مفعولاً به.

فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[1].

ولكن حدث خلاف بين ذوي الاختصاص في كيفية قتل اللوطي:

فقيل يجب أن يقتل بالسيف ثم يحرق لعظم المعصية ...

وقيل يجب أن يلحقى عليه حائط .../

وقيل يجب أن يلقى من أعلى بناء في البلد ...

وقيل يُرجم ...

وروي عن النخعي إنه قال:

ولو كان يستقيم أن يُرجم الزاني مرتين لرُجم اللوطي.

خطيئة قوم لوط لم تندثر

إذن آية قوم لوط لم تندثر ...

والمكان الذي عاش فيه قوم لوط ما زال موجوداً .. فأين هو؟

قال بعض العلماء إن مكان سدوم وأخواتها حالياً هي البحر الميت بفلسطين.

وهو بالمناسبة ليس بحراً بمعناه العلمي الدقيق ... إنما هو «بحيرة» مغلقة تقع على الحدود بين المملكة الأردنية الهاشمية شرقاً وفلسطين غرباً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمزي وأبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي.

وقد عرف عبر التاريخ بأسماء مختلفة فهو :

بحر الملح عند اليهود ...

وبحر الأسفلت عند الرومان ...

والبحر الميت عن الإغريق ...

وبحيرة لوط عند العرب ...

والبحر الميت مستطيل الشكل تقريباً ، ويبلغ طوله ٧٦ كلم ، ويبعد عن القدس نحو ٢٤ كيلومتراً ، ويبعد عن أريحا نحو ١٤ كلم .

والبحر الميت أكثر نقاط الكرة الأرضية انخفاضاً عن مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط . حيث يصل عمقه إلى نحو ٢٥٠ متراً .

وإضافة إلى ذلك فإن حرارة الطقس في المنطقة مرتفعة جداً يصل حدها الأقصى إلى واحد وخمسين درجة مئوية صيفاً . وبسبب ذلك فإن المرء يلاحظ بعينه المجردة تشكيل طبقات ضبابية كثيفة على سطحه نظراً لتبخر مياه الطبقة العليا من البحر .

وتوجد في البحر الميت كميات كبيرة من الأملاح التي لا تسمح لأي كائن حي بالحياة فيه ، وهو بحر هادئ تماماً لا يعرف الموج ولا الموج يعرفه ، لذلك فقد صدق الرومان حينما أسموه «البحر الميت» فله من اسمه نصيب .

هذا . . وكانت مدينة أريحا واقعة منذ عام ١٩٦٧ تحت الهيمنة الإسرائيلية ، ولكن نتيجة لتوقيع اتفاقية «أوسلو» بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل ، فقد خضعت أريحا للحكم الذاتي الفلسطيني منذ عام ١٩٩٤ ، حيث أعادت القوات الإسرائيلية انتشارها وانسحبت من وسط المدينة غير نادمة على ذلك لأن أريحا مدينة ملعونة في الشريعة اليهودية ، وورد أن «يشوع» حلف قائلاً : ملعون قدام الرب الذي يقوم ويبني هذه المدينة .

وفي شهر سبتمبر من عام ١٩٩٨م شهدت أريحا ومنطقتها ميلاد

خطيئة جديدة تمثلت في بناء ملهى «الواحة» الذي يشكل المرحلة الأولى لتشييد منتجع سياحي سيكون الأكبر من نوعه في منطقة الشرق الأوسط ، ويقدر إجمالي تكلفته الشاملة بمائة وخمسين مليون دولار أميركي .

وحسب ما ذكرته مجلة «تايم» الأميريكية فإن أربعة بالمائة من الأموال المستثمرة هي أموال فلسطينية ، وتوجد حالياً بالملهى مئتان وعشرون ماكينة قمار ، يقامر عليها مئات المقامرين من جميع أنحاء العالم .

وإلى جانب المقامرات والمراهنات فهناك بطبيعة الحال كثير من المفاسد والمعاصي والآثام ترتكب تحت سقوف هذا المنتجع اللعين الذي يلقى معارضة شديدة من غالبية الشعب الفلسطيني ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومن حقنا أن نتساءل في هذا الإطار :

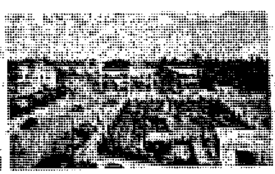
هل يشكل افتتاح ملهى «الواحة» بداية غير سعيدة لميلاد خطيئة جديدة تكون مقدمة لانتقام رباني جديد من المدينة ومن خلفاء قوم لوط؟؟!

وأخيراً . . لا بد لنا من إضاءة أخيرة على قصة هذا النبي العظيم الذي وقف في وجه الفاحشة بكل ما آتاه ربه من قوة . فتحدى قومه وانتصر بإرادة الله تعالى عليهم ، لكن هذا المنقذ من الضلال أوقعته التوراة المحرفة في أتون جريمة بشعة بلغت ذروتها في الفحش والفجور والتجني ، فقد اتهمه اليهود بارتكاب فاحشة ما سبقه إليها أحد من العالمين فيزني بابنتيه ، وتكون ابنتاه هما اللتان تتآمران عليه وتسقيانه الخمر وتحملان منه وحجتهما في ذلك أن يقيما من أبيهما نسلاً!

جاء في سفر التكوين ف ١٩ من التوراة ما نصه : إن الله لما دمر قوم لوط ذكر إبراهيم فأطلق لوطاً فأقام في الجبل هو وابنتاه . فقالت

الكبرى للصغرى : ان أبانا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها . تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونحيي من أبينا نسلاً فسقتا أباهما خمراً وجاءت الكبرى فضاجعته ولم يعلم بمنامها ولا قيامها . فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى : تعالي ضاجعي أبي كما فعلت أنا أمس لنقيم من أبينا نسلاً ، وضاجعته الصغرى فحملت ابنتا لوط من أبيهما ، وولدت الكبرى ابناً وسمته (مؤاب) ، وهو أبو المؤابيين إلى اليوم ، وولدت الصغرى ابناً وسمته (بن عمي) وهو ابو بني عمون إلى اليوم!) .

استغفر الله العظيم . . أي جريمة أقبح من هذه الجريمة . . بل هي ليست واحدة بل مجموعة جرائم يقترفها نبي كريم . معاذ الله . . ما هذا الافتراء والبهتان والإفك؟


الباب الثالث

نبي الله إسماعيل

الفصل الأول
إسماعيل . . قمة الطاعة في العبادة والتضحية

بدأ هذا النبي الكريم رحلته الإيمانية مبكراً ، ومبكراً جداً ، فقد كان غلاماً «حليماً» كما وصفه الله تعالى في بشراه لأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام . ولما قوي زنده ، وبلغ أشده أدى كل المهمات الجليلة التي كلفه ربه بأدائها . فاستحق بجدارة مطلقة أن يجعله الله مثلاً يحتذى ، وقدوة تُقتدى .

قال الحق تبارك وتعالى في تقريظ نبيه الكريم :

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقَ الوعد وكان رسولاً نبياً . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾[1] .

هذا وقد بعث الله تعالى إسماعيلَ عليه الصلاة والسلام إلى القبائل اليمانية وإلى العماليق القاطنين شمالي الجزيرة العربية ، وقد تركزت دعوته- كباقي الأنبياء الكرام- إلى وحدانية الله تعالى وعبادته والإخلاص له .

وقد أيده الله وبارك فيه ، وجعل له الغلبة على أعدائه ، فأخرج العماليق من جزيرة العرب وشتت شملهم .

وتعتبر قصة حياة إسماعيل جزءاً لا يتجزأ من قصة حياة أبيه إبراهيم عليهما وعلى رسولنا الأعظم الصلاة والسلام ، وهو ما ينطبق أيضاً على قصة حياة إسحاق أيضاً . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً عند حديثنا عن حياة أبي الأنبياء .

لكن بودنا أن نشير إلى نقطة مهمة ، فمعلوم أن أعظم حدثين حدثا في حياة جدنا إسماعيل هما طاعته اللامتناهية في تنفيذ أوامر أبيه إبراهيم التي تلقاها بدوره عن ربه جل جلاله وتأمره أن يذبح ابنه ،

(١) سورة مريم- الآيتان رقم ٥٤ ، ٥٥

حيث استسلم إسماعيل راضياً مرضياً لرغبة أبيه وإرادة خالقه . وفي اللحظة الحاسمة افتداه الله «بذبح عظيم» ، أي جعل فداء ذبح إسماعيل ما يسره الله تعالى له من العوض عنه ، فكان ذلك العوض كبشاً أبيض أقرن قيل أنه رعى في الجنة أربعين خريفاً .

وفي مثل هذه المواقف نلاحظ أن اليهود ينفثون سمومهم ، ويحرفون ما قد يكون قد ورد في كتبهم من أخبار لتخدم أغراضهم السياسية أو الدينية أو الاجتماعية . نقول هذا وتمثل أمامنا قصة الذبح والتضحية التي ينسبها اليهود إلى إسحاق عليه الصلاة والسلام وليس إلى إسماعيل كما تشير كافة المصادر التاريخية والدينية .

لكن أهل التوراة والكتب المزيفة يريدون أن يكون أبوهم إسحاق هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو ما زال صغير السن!

ولن نضيع وقتنا في مناقشة هذه القضية ، . . .

ولكن حسبنا أن نشير إلى أن الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه سأل عالماً يهودياً- بعد أن أسلم وحسن إسلامه :-

أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟

فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم [1] .

وأما الحدث المهم الثاني في حياة جدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام فهو اشتراكه الفعال مع أبيه إبراهيم في بناء الكعبة وتطهيرها وتهيئتها لطواف الطائفين ، واعتكاف المعتكفين ، وعباده الراكعين الساجدين .

قال الحق تبارك وتعالى :

---

(١) الحافظ ابن كثير- قصص الأنبياء- مرجع سابق

﴿وإذْ يرفعُ إبراهيْم القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (١) .

وقوله عز وجل أيضاً :

﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيلَ أن طهِّرا بيتي للطائفينَ والعاكفينَ والرُكَّع السجود﴾ (٢) .

ومرة أخرى يزور اليهود التاريخ . ويزعمون أن إبراهيم لم يبن البيت أصلاً ، كما أن إسماعيل نفسه لم يكن بمكة يومئذ ولم يتوجه إليها ، وربما كانت هناك بلدة أخرى اسمها «بكة» تقع خارج شبه الجزيرة العربية وهي غير مكة التي وُجد بها ذلك البيت الذي أخبر الله أنه أول بيت وضع للناس .

هذا جانب من أقوالهم ، وإذا ما سألتهم عن إثبات أقوالهم لووا رؤوسهم وعجزوا عن إثبات ذلك!

جدير بالذكر أن لفظ «بَكَّة» عربي صميم ، ومعروف أن العربية إحدى اللغات السامية . قال تعالى : ﴿إن أول بيت وُضع للناس للذي بِبكَّةَ مباركاً وهدى للعالمين﴾ (٣) .

وقد قال المؤرخ المعروف «جورجي زيدان» في كتابه «العرب قبل الإسلام» إن لفظ «بيك» يعني البيت ، وعزا ذلك إلى لغة سامية .

ويدرك العلماء وأرباب اللغة العربية إن من المسائل الجائزة في العربية إبدال الباء ميماً وبالعكس كما تفعل ذلك قبيلة مازن العربية المشهورة بفصاحتها فيلفظ أبناؤها كلمة «بكر» بدلاً من «مَكْر» ، وكذلك لفظهم لكلمة «بَكَان» بدلاً من مكان وهلم جرا .

لذلك فلفظ «بكة» بمعنى «مكة» كما ورد في القرآن الكريم ، ليس

---

(١) سورة البقرة– الآية رقم ١٢٧

(٢) سورة البقرة– الآية رقم ١٢٥

(٣) سورة آل عمران– الآية رقم ٩٦

غريباً عن اللغة العربية وعلى أبنائها .

ومسألة التجني والتشكيك عند كتبة التوراة ليست جديدة ولا فريدة ، فلقد تجنوا على كثير من أنبياء الله الكرام ، وقد نال إبراهيم وإسماعيل قسطاً وافراً من تجنياتهم ، فقد نسبوا لإبراهيم إنه كان يكذب ليصيب أموالاً وثروات من وراء زوجته سارة- رغم أنها كانت عجوزاً- لتأكيد أن إبراهيم كان يرتكب المعاصي والأخطاء . وبالتالي فإن زواجه من «هاجر» كان أحد أخطائه التي انزلق إليها ، ومن ثم عدم استحقاق إسماعيل للدخول في عهد أو ميثاق الله مع إبراهيم ، وما يترتب على ذلك من نفي النبوة عن إسماعيل ونسله حسداً لإسماعيل على البشارات التي كرمه الله بها ، ولعدم مشاركة بني إسرائيل في تميزهم عن باقي الشعوب كما يدعون ، وكان لتكرار نسبة الكذب إلى إسحاق تأكيد لشيوع هذه الصفة في الأنبياء ، وإنها لم تكن قاصرة على إبراهيم . [1] .

كم سنة عاش إسماعيل ؟

ورد اسم إسماعيل عليه الصلاة والسلام اثنا عشرة مرة في القرآن الكريم موزعة على ثماني سور .

هذا وقد وردت في سفر التكوين معلومات تفيد بأن إسماعيل عليه الصلاة والسلام عاش مائة وسبعاً وثلاثين سنة ، وإنه مات بفلسطين . لكن المؤرخين العرب ذكروا أنه مات بمكة ، ويظن أنه دفن بمنطقة «الحِجْر» بجوار البيت الحرام هو وأمه هاجر والله تعالى أعلم .

وأورد سفر التكوين أيضاً قائمة بأسماء أولاد إسماعيل الذكور وهم اثنا عشر ولداً وكانوا رؤساء قبائل ، وسموا «العرب المستعربة» كما ذكرنا سابقاً .

وأورد سفر التكوين العبارة التالية في مقدمة القائمة :

---

(١) محمد قاسم محمد- التناقض في تواريخ وأحداث التوراة- مرجع سابق

«وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذي ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم» .

وتعميماً للفائدة سنذكر أسماءهم كما وردت بترتيبها في الإصحاح الخامس والعشرين من السفر المذكور:

نبايوت (الولد البكر لإسماعيل)

قيدار ، واديئل ، مبسام ، مشماع ، دومة ، مسا ، حدار ، تيما ، يطور ، نافيش ، قدمه .

وصلاة الله تعالى وسلامه على إسماعيل وعلى كافة أنبياء الله المكرمين ، وعلى حبيبنا المصطفى سيد الأولين والآخرين .

الباب الرابع

نبي الله إسحاق

الفصل الاول
إسحاق ميلاد استثنائي في ناموس البشرية

برغم ورود اسم إسحاق عليه الصلاة والسلام سبع عشرة مرة في القرآن الكريم ، موزعة على اثنتي عشرة سورة ، إلا أن تلك المرات لم تتناول ترجمة مفصلة لحياة ذلك النبي الكريم ، وتلك- لعمري- حكمة ربانية ربما لا يعلم أحد من البشر سرها .

في الوقت الذي تمادى فيه كتبة التوراة ومن على شاكلتهم في الشرح والتفصيل والتضليل ، ونحن مضطرون لولوج ذلك الباب المعرفي غير المحكم في فتحه وفي إغلاقه .

وكنا قد ذكرنا من قبل أن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا المصطفى الصلاة والسلام اتخذ سارة زوجة له ، ولما تبينت إنها عقيم نصحته بالزواج من هاجر التي أضحت فيما بعد أمّاً لإسماعيل عليه الصلاة والسلام .

وقد تجاوزت سارة بعدئذ السن القانونية للإنجاب الأنثوي المعتاد وهي سن اليأس بلغة العصر الحالي . .

لكن الإرادة الإلهية شاءت للعجوز العقيم أن تحمل من العجوز الهرم ، ليرزقهما الله تبارك وتعالى بإسحاق عليه الصلاة والسلام .

وقد كان ميلاده حدثاً غير عادي في حياة البشرية .

وكنا قد تطرقنا- من خلال الحديث عن سيرة إبراهيم الخليل- إن الملائكة الثلاثة الأطهار- جبريل وميكائيل وإسرافيل- والذين ظهروا في صور آدمية مروا بإبراهيم وبشروه بميلاد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

قال تعالى في سورة «هود» :

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ [1] .

---

(١) سورة هود- من الآية رقم ١١٢

وقال تعالى أيضاً مفصلاً ذلك الحدث :

﴿وامرأته قائمة فضحكتْ فبشَّرناها بإسحاقَ ومن وراء إسحاقَ يعقوبَ . قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي (زوجي) شيخاً إن هذا لشيء عجيب .

قالوا أتعجبينَ من أمر الله رحمةُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ (1) .

وللسيدة «سارة» رضي الله عنها الحق في استغرابها واستهجانها لبشرى ولادتها وهي في تلك الحالة من العقم . . . وزوجها في ذلك الوضع العمري المتقدم .

إنه لشيء عجيب وغريب بالنسبة للطبائع البشرية محدودة القدرات ، لكن الأمر مختلف جداً بالنسبة للإرادة الإلهية غير محدودة القدرات .

البشارة جاءت على لسان الملائكة . .

والفعل جاء من الله سبحانه وتعالى . .

فالبشارة بميلاد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، كرم رباني إضافي لمضاعفة سعادة الزوجين . .

فميلاد إسحاق سعادة في حد ذاته . .

ثم ميلاد حفيدهما يعقوب سعادة أخرى تضاف إلى السعادة الأولى . .

ربما كان ذلك تعويضاً لهما عن معاناة الصبر والقلق والانتظار الطويل دونما إنجاب .

ويقال أن الحول لم يحل على سارة حتى حملت بإسحاق ، ولما ولدته أسمته «يصحق» وترجمتها «يضحك» وأسمته كذلك لأن كل من سمع بحقيقة ولادته يضحك لما تحمله تلك الحقيقة من مفارقات ،

(1) سورة هود- الآيات من رقم ٧١ إلى رقم ٧٣

واستغراب .

وربما كانت هذه المعلومة نابعة من الإسرائيليات ، وهي على أية حال معلومة أكثر من ثانوية وهي لا تضر ولكنها قد تنفع .

هذا . . وقد أوردت التوراة تفاصيل متشعبة عن حياة إبراهيم وسارة وإسحاق ، ولكن تجني كتبة التوراة كان كبيراً ومستهجناً حين قيل أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام اتفق مع سارة على أن يقول لفرعون مصر إنها «أختي» وتقول هي أنه «أخي» ، وذلك حتى تنجو من براثن ذلك الطاغية .

ونحن ننزه إبراهيم إمام التوحيد وشيخ الأنبياء من مثل هذا السفه الذي لا طائل من ورائه سوى النيل من هذا النبي العظيم الذي اتخذه الله خليلاً ، وحاشا لله أن يتخذ له خليلاً لا يتمتع بالأهلية الكاملة لهذه الخلة .

وقد ذكرت التوراة في إصحاحها الرابع والعشرين شيئاً مثل ذلك مع نبي الله إسحاق عليه الصلاة والسلام ، فقد زعمت أنه بعد زواجه من ابنة عمه رفقة بنت بتوئيل بن ناحور- حدثت مجاعة في المنطقة فتغرب مع زوجته في جرار عند أبي مالك . فقالت رفقة عن زوجها إسحاق أنه «أخي» ، وكذلك قال إسحاق عن زوجته أنها «أختي» ، وعندما رأى الرجل إسحاق يلاعبها ويداعبها عرف أنها زوجته ، فوجه العتاب لإسحاق وحصل لهما كما حصل في شأن إبراهيم وسارة . . . . إلخ .

ويقال أن رفقة ولدت توأمين هما : عيسو ويعقوب . . وتلك قصة أخرى .

أما بالنسبة للمدة الزمنية التي عاشها إسحاق فقد ذكرت التوراة أنه عليه الصلاة والسلام عاش مائة وثمانين سنة .

وقد تم دفنه عند أبيه إبراهيم وزوجه رفقة في مغارة «المكفيلة» بمدينة

«حبرون» وهي مدينة الخليل العربية الفلسطينية . إضافة إلى أمه سارة و«ليئة» أو «لائقة» زوجة ابنه يعقوب عليهم السلام جميعاً ورحمة الله وبركاته .

الباب الخامس

نبي الله يعقوب

الفصل الاول
البشارة به قبل ولادة أبيه

. . . والملائكة الثلاثة الأطهار أنفسهم هم الذين حملوا نبأ البشارة بميلاد يعقوب فبشروا به جده إبراهيم وجدته سارة في نفس النبأ الذي حملوا فيه بشارة ميلاد أبيه إسحاق عليهم جميعاً وعلى حبيبنا المصطفى الصلاة والسلام .

ويعقوب هو أول نبي كريم بشرت الملائكة بولادته قبل أن يولد أبوه . فالبشارة بميلاد الأب والابن جاءت على لسان جبريل في خبر واحد ورد في سورة «هود» في قوله تعالى :

﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراءِ إسحاقَ يعقوب﴾[1] .

ويعقوب هو أول نبي أتى من صلب إسحاق .

وقد ورد ذكره في القرآن الكريم ست عشرة مرة في عشر سور .

ولكن يعقوب له اسم آخر أيضاً هو «إسرائيل» . .

وورد إسم «إسرائيل» في القرآن الكريم ثلاثاً وأربعين مرة موزعة على ثماني عشرة سورة .

ما الفرق بين العبراني والإسرائيلي ؟

وهنا لا بد من توضيح . . .

فكلمة «إسرائيل» تطلق على العبرانيين من أنسال يعقوب عليه الصلاة والسلام .

أما «العبراني» فهو الإنسان المنحدر من صلب إبراهيم أو إسحاق أو يعقوب .

والتوراة تطلق على إبراهيم لفظ «العبراني» ، وبناءً على هذا المفهوم فهذه الكلمة تطلق على اليهود والإسرائيليين معاً .

---

(١) سورة هود من الآية رقم ٧١

وقد تسمى العبرانيون بهذا الاسم لأنهم- كما يقال- من أنسال عابر بن سام بن نوح .

وعلى قول آخر فقد دعوا بالعبرانيين لأنهم عبروا نهر الأردن إلى أرض كنعان «فلسطين» .

أما اليهودي فهو العبراني أو الإسرائيلي الذي كان تابعاً لمملكة يهوذا البائدة .

ولكن استعمالها شمل- فيما بعد- جميع اليهود .

أما الصهيوني فهو المنتمي إلى الصهيونية . .

والصهيونية كلمة مشتقة من لفظ «صهيوني» وهو في الأصل جبل يقع شرق القدس .

وورد في التوراة أن النبي داود عليه الصلاة والسلام انتزع هذا الجبل من اليبوسيين العرب الذين كانوا يسكنون فلسطين قبل غزو العبرانيين لها .

والصهيونية بمعناها العام اليوم حركة سياسية تستمد أصولها من الفكر الصهيوني النابع من عقائد التوراة وشرائع التلمود ، كما تستمد حيويتها من ارتباط الفكر الصهيوني بعقائد دينية وعنصرية ثابتة في أذهانهم وأفكارهم .

وهناك رأي آخر في سبب تسمية النبي يعقوب «بإسرائيل» .

فقيل إنه سُمّي كذلك لأنه كان يسير بالليل ويكمن بالنهار ، لأن كلمة «الإسراء» تعني السير ليلاً ، وحدث له ذلك أثناء زيارته لخاله «لابان» في العراق .

وفي تفصيل حياة النبي يعقوب ذكرت التوراة أنه- عليه الصلاة والسلام- تزوج أربع نساء ، فجمع بين أختين حرتين ، وأختين أمتين (جاريتين) .

أما الحرتان فهما : «ليئة» و«راحيل» ابنتا خاله «لابان» .

حيث أنجب من «ليئة» ستة من الأسباط (الأنبياء) هم على التوالي :

روبيل ، شمعون ، لاوي ، يهوذا ، يساكر ، زبولون ، وقد جاء النبي موسى عليه السلام من نسل لاوي .

وقد أنجب من زوجته «راحيل» ابنه يوسف عليه الصلاة والسلام ، وأخاه «بنيامين» ، لكن راحيل توفيت في نفاس «بنيامين» . ويقال أنها دفنت جنوبي القدس بالقرب من بيت لحم تحديداً .

ويطلق الفلسطينيون حالياً على ضريحها «قبة راحيل» [1] . والقبة بناء إسلامي يعود إلى القرن (١٨) ويزعم اليهود أنه مكان مقدس لديهم ، وإن حكومة الانتداب البريطاني التي أشرفت على إدارة شؤون فلسطين (١٩٢٣-١٩٤٨) اعترفت بأن قبر راحيل يمثل الديانة اليهودية وذلك حينما أصدرت تلك الحكومة طوابع عن الأماكن المقدسة المختلفة في فلسطين!

أما الجاريتان الأختان فهما «بهلة» جارية راحيل ، و«زلفا» جارية «ليئة» ، وقد أنجبتا رهطين من الأسباط وهما : «دانا» و«نفتالي» ومن «بهلة» ، و«جاد» و«أشير» من «زلفا» .

من هم الأسباط ؟

وقد سُمّوا بالأسباط لأن كل واحد منهم صارت له قبيلة . .

وفي «المعجم الوسيط» ورد أن «السِّبط» هو ولد الابن والإبنة .

والسِّبط من اليهود كالقبيلة من العرب ، جمعها أسباط . وفي التنزيل العزيز ﴿وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾ [2] .

وولد الأسباط الاثناعشر في العراق باستثناء «بنيامين» الذي ولد

---

(١) «راحيل» كلمة عبرانية معناها «شاه» ، و«بنيامين» كلمة عبرانية أيضاً ومعناها «ابن اليد اليمين»

(٢) سورة الأعراف من الآية رقم ١٦٠

في أرض كنعان «فلسطين» كما ذكر ابن كثير ، وهؤلاء كلهم إخوة يوسف الصديق الذي رأى في منامه أحد عشر كوكب والشمس والقمر له ساجدين كما سنرى لاحقاً في سيرته عليه سلام الله ورحمته .

وعودة ثانية إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام . .

فالإنسان يقف مبهوراً أمام عمق إيمانه الذي تجلى في مواقف عديدة وردت في سورة يوسف سنعرض لها في حينها إن شاء الله .

لكن موقفاً آخر شدني ورد في سورة «البقرة» ، وصور المشهد الحياتي الأخير في سيرته .

ففي الوقت الذي يفكر فيه الإنسان المحتضر . . في قضايا الموت والفراق والأهل والولد والميراث ، نشاهد أن يعقوب ساعة احتضاره وقرب رحيله الأبدي عن هذا العالم يريد أن يطمئن على إيمان أولاده ، ومعرفه مدى نجاحه وتوفيقه في تربيتهم وهدايتهم إلى صراط الله المستقيم .

يسأل أولاده : ماذا تعبدون بعد رحيلي عنكم؟

فيسمع من أولاده البررة جواباً يطمئن به لعله آخر وأسعد كلام عانق سمعه ، وأذكى بصيرته وبصره . .

لنقرأ ذلك في اللوحة القرآنية البليغة التي وردت في سورة البقرة :

﴿أم كنتمْ شهداءَ إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون﴾ (1) .

وبرغم عظمة هذا النبي الكريم ، إلا أن اليهود عمدوا إلى إهانته وتحقيره واتهامه بالطمع والجشع والحسدا

وكنا قد ذكرنا في قصة حياة إسحاق عليه السلام أن زوجته رفقة أنجبت توأمين هما عيسو ويعقوب ، فعيسو هو البكر . . والذي نزل من

(١) سورة البقرة – الآية رقم ١٣٣

بطن أمه أولاً ثم نزل أخوه بعده وهو ممسك بعقبه ولذلك سمي يعقوب .

ومارس يعقوب عندما اشتد عوده مهنتي الحرث والرعي .

أما عيسو فقد امتهن مهنة الصيد في الصحراء ، وكان ماهراً في استعمال القوس والسهام .

لكن الأم رفقة رضي الله عنها كانت أكثر حباً ليعقوب من عيسو ، بل كانت تبغضه في الوقت الذي كان فيه إسحاق يحب عيسو لأنه كان يطعمه من الصيد الذي يصطاده!! هكذا تزعم شريعة اليهود!

وكان من المقرر عند شريعة القوم في ذلك العهد أن الولد البكر يأخذ من الميراث ضعفي غير البكر ، وتذكر التوراة وهي في معرض حديثها عن يعقوب أن روح الطمع والجشع والحسد تحركت في نفسه ليأخذ البكورية من أخيه . . برغم أن يعقوب ليس بكراً . . بل عيسو هو البكر ، وهو الأحق بأخذ الضعف من الميراث .

وسنذكر القصة التالية التي أوردتها التوراة في معرض إساءتها لهذا النبي الكريم الذي تتهمه بشراء «بكورية» أخيه بأكلة عدس . وقد جاءت القصة في سفر التكوين من التوراة (ف ١٥) :

إن يعقوب طبخ طبيخاً فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا . فقال عيسو ليعقوب : أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت (تعبت) فقال يعقوب : بعني اليوم بكوريتك . فقال عيسى : أنا ماض في الموت فلماذا إلى بكورية . فقال يعقوب : احلف الي اليوم ، فحلف له ، فباع بكوريته ليعقوب فأعطى يعقوب عيسى خبزاً وطبيخ عدس ، فأكل وشرب ومضى فاحتقر عيسو البكورية .

يقول أستاذنا وشيخنا عبدالمعز عبدالستار معلقاً على هذه القصة :

هذا هو يعقوب «إسرائيل» أبو الشعب المختار يضن على شقيقه وأخيه لأمه وأبيه بأكلة عدس وهو قد أعيا من الجوع حتى ليقول لأخيه

أنا ماض إلى الموت . لقد كانت تذكر لنا حكايات ونوادر عن بخل اليهود ولؤمهم وأنانيتهم وكنا نظن أن فيها مبالغة أو أنها نسج من خيال الرواة .

وما ظننا أن تبلغ منهم ذلك الذي وقع من يعقوب مع شقيقه عيسو لا يطعمه إلا إذا تنازل له عن بكوريته!

ويطعمه ماذا؟

يطعمه عدساً!!

ما كنا نظن أن يحدث مثل هذا لولا أنا قرأناه في كتاب مقدس(١) .

هذا . . ونحن كمسلمين ننزه الله تعالى ورسله الكرام عن كل ما ذكره اليهود عن أنبيائهم ومرسليهم ، ولكننا ذكرنا هذه المحادثة العابرة عن يعقوب عليه السلام في معرض حديثنا عنه ، لنجلو للقراء حقيقة مشاعر الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار الذين ينظرون باحتقار وازدراء إلى باقي شعوب الأرض ، زاعمين أن الله قد اختارهم ليكونوا أسياد العالم! أهكذا ينظر الشعب المختا رإلى أنبيائه؟!

أما بشأن وفاة يعقوب عليه السلام ، فمعلوم أنه فَقَدَ بصره حزناً على غياب ولده «يوسف» الذي مكر به إخوته ، ثم رد الله له بصره بعد أن ألقى البشير قميصه على وجهه ، ثم سافر إليه من فلسطين إلى مصر ، وبعد أن مكث يعقوب سبعة عشر عاماً في ضيافة ولده الحبيب توفاه الله تعالى عن ١٤٧ عاماً ، وكان قد أوصى بدفنه مع أبيه إسحاق في مغارة مكفيلة بمدينة الخليل (حبرون) . فنفذ يوسف الوصية . وذكر الغزولي في «مطالع البدور» أن يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أوصى أن يحمل إلى مقابر آبائه ، فمنع اهل مصر أولياءه ، فلما بعث الله موسى عليه السلام وأهلك فرعون حمله إلى مقابرهم» .

---

(١) الشعب المختار في الميزان - مرجع سابق

الباب السادس

نبي الله يوسف

الفصل الأول
يوسف . . . آية الطهر والجمال

اعترف بداية أن قصة حياة هذا النبي الكريم استهوتني منذ نعومة أظافري ، وشدت انتباهي أكثر من غيرها من قصص القرآن الكريم لما فيها من إثارة واحداث مشوقة متتابعة ، ابتدأت بحلم غريب ، وبتفسير عقلاني حكيم لهذا الحلم من لدن يعقوب عليه السلام .

وتتابعت الفصول القصصية ، وكل فصل يشدني إلى تفصيلاته ، ثم يحيلني إلى الفصل الذي يليه وأنا أكثر شوقاً وأشد لهفة .

وكم من مرة انفطر فيها قلبي ، ودمعت خلالها عيني ألماً وحزناً وشفقة على يوسف . . ضحية الغدر الأخوي المستهجن ، وتعاطفاً مع الأب الصابر المؤمن المحتسب يعقوب ، وفرحاً ونشوة وحبوراً باللقاء الأسري العظيم الذي حدث في نهاية القصة .

وكم من مرة غضبت وتألمت لسلوك الإخوة الأعداء ، وحسدهم لأخيهم يوسف الذي دفعهم للتخلص منه ، وإلقائه في قاع البئر ، وحملت ايضاً بشدة وبغيظ على امرأة العزيز التي تخطت كل اعراف الشرف ، وتجاوزت كل مظاهر الأبهة والعظمة التي كانت تحيط بها باعتبارها امرأة العزيز ، وراودت يوسف عن نفسه فاستعصم ، فانتصر الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم ، وأنقذه من غدرها وسطوتها .

ولنتجه الآن صوب أحداث القصة ، ، قصة «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» كما سماه رسولنا الحبيب صلى الله عليه وعلى إخوانه الانبياء والمرسلين .

لماذا كانت قصة يوسف أحسن القصص ؟

قال الحق تبارك وتعالى في مطلع سورة «يوسف» :

﴿آلر ، تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾(١) .

وسورة «يوسف» هي السورة الثانية عشرة في ترتيب السور القرآنية وقد ورد اسم يوسف سبعاً وعشرين مرة في القرآن الكريم منها خمس وعشرون مرة في سورة يوسف نفسها ، ومرتين اثنتين في سورتي الأنعام وغافر .

ولما سئل رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم : أي الناس أكرم؟ قال : «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» . إنها لعمري سلسلة متصلة الحلقات من الطهارة الروحية ، والسمو الأخلاقي النبيل .

ولنتوقف قليلاً عند الآية الثالثة في قوله تعالى : ﴿نحن نَقُصُّ عليك أحسنَ القَصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ .

وهنا يبرز سؤال : لماذا وصف العزيز الحكيم سورة يوسف بأنها «أحسن القصص»؟ اختلف العلماء والمفسرون في إجاباتهم . قال بعضهم : لأن السورة تعرضت لذكر بعض الشخصيات البارزة وفي مقدمتهم الأنبياء ثم الصالحين ثم الملوك ، وفيها كذلك صور مختلفة من مكر النساء وكيد الإخوة وحكمة الأب .

وقال بعض آخر :

لقد وصفت السورة بأنها «أحسن القصص» لان أحداثها المثيرة ، انتهت في نهاية المطاف نهاية سعيدة جعلت القصة مميزة عما سواها من القصص ، وعلل بعض آخر ذلك باعتبار القصة متصلة الحلقات ، متكاملة العناصر القصصية الواجب توافرها في كل قصة ناجحة .

---

(١) سورة يوسف– الآيات من رقم ١ الى رقم ٣

أما آخر الآراء فيعزو السبب لاشتمال السورة على كم وافر من الحكم والمواعظ والعبر .

ونعتقد أن السبب لا يكمن في رأي واحد من تلك الآراء فحسب ، بل يشمل كافة الآراء مجتمعة ، فقصة يوسف هي أطول القصص القرآنية وقد عالجت عدة موضوعات على هامش الموضوع الأساسي وهو الإيمان المطلق بالله سبحانه وتعالى ، وهي كذلك قصة تربوية تعمق الإيمان بالله تعالى ، وتسمو بالمشاعر الإنسانية وتدعو إلى التحلي بالاخلاق الكريمة الفاضلة .

كما ان القصة تتوافر فيها - كما يقول المتخصصون- وحدة الموضوع وتعالج موضوعها الرئيسي وما يتصل به من سلوك حياتي موجود في المجتمع البشري ككل .

ولكن . . ماذا عن تفصيلات قصة يوسف؟

لقد أراد الله تعالى ليوسف أن يكون أخاً وشقيقاً لبنيامين ، ولدتهما أمهما «راحيل» .

كما أراد الله تعالى ليوسف أن يكون أخاً غير شقيق لعشرة من الأبناء ، ستة منهم من زوجة أبيه «ليئة» واثنان من زوجة أبيه الثالثة «بلهة» واثنان من الزوجة الرابعة «زلفا» .

وقد أثارت هذه «التوليفة» حساسية مفرطة بين بعض الإخوة وبين بعضهم الآخر .

وكان الأب الحكيم يعقوب يدرك الأسباب الكامنة وراء هذه الحساسية ، وقد اتهمه أبناؤه العشرة بأنه يؤثر أخاهم يوسف عليهم ، ويحبه أكثر مما يحبهم .

كانوا يغارون من يوسف لانه أشرفهم قدراً ، وأجلّهم منزلة ، وأرفعهم مركزاً ، وأجملهم شكلاً وأوسمهم هيئة .

وبدأت فيروسات الغيرة تعمل عملها السيئ في صدور وقلوب

الإخوة الأعداء ضد يوسف ، ويوسف البريء يلهو مع براءته . . و . . وحدث أن رأى في نومه حلماً غريباً لم يجد تفسيراً له ، فذهب إلى أبيه وقص عليه ما رأى . وتناول القرآن الكريم تفصيل ذلك الحلم :

﴿إذ قال يوسُفُ لأبيه يا أبت إني رأيت أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ . قال يا بُني لا تَقْصُصْ رؤياكَ على إخْوَتِكَ فيكيدوا لك كيداً ان الشيطانَ للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك (يصطفيك لامور عظيمة) ويعلمك من تأويل الأحاديث (تعبير الرؤيا) ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على ابويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم[(١)] .

وذكر المفسرون ان يوسف رأى قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكباً - وهم إشارة إلى بقية اخوته- والشمس والقمر- وهما كناية عن أبويه- قد سجدوا له . فهاله ذلك الحلم .

وعرف أبوه - بما اتاه الله من حكمة وبصيرة وبعد نظر- أن يوسف سيكون له شأن عظيم في قادم الأيام والسنين . وأن أباه وإخوته جميعاً سيخضعون له ، فأمره بكتمان هذه الرؤيا ليس فقط عن أصدقائه ومعارفه بل ايضاً عن إخوته ، أقرب الناس إليه وذلك احترازاً من حسدهم وكيدهم .

ولا شك أن الأب - بما آتاه الله من صفات النبوة وخصائصها- أدرك أيضاً ان الله تعالى يهيئ يوسف ليكون نبياً . وما اختياره واجتباؤه وتعليمه تأويل الأحاديث وتوضيحها إلا إرهاصات ومقدمات لهذه المهمة العظيمة التي تحتاج إلى صقل وتدريب قبل البدء في تنفيذها على أرضية الواقع .

فالرؤيا التي رآها يوسف كانت ككل رؤى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رؤيا حق وواجب ، فالأنبياء ينظرون إلى المستقبل بعين

---

(١) سورة يوسف ، الايات من رقم ٤ الى ٦

الحاضر لأنهم يملكون ما لا يملكه غيرهم من البشر على استجلاء واستشراف المستقبل بصور نسبية محدودة ومقننة .

واستجاب يوسف لأوامر أبيه . . ولم يخبر أحداً عما رآه في حلمه وبدأ المشهد المثير التالي . . وبدأ معه التخطيط الشيطاني لخلاص الإخوة الحاقدين من أخيهم الحليم البرىء .

وأخذ الشيطان يزين لهم سوء أعمالهم فوسوس لهم أن أباهم يحب يوسف أكثر منهم ، فقرروا أن يعاقبوا يوسف على جريمة لم يرتكبها . .

وقد صور القرآن الكريم في اللوحة التالية مشهد الترتيب للمؤامرة :

﴿إذْ قالوا ليوسف وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة (جماعة) إن أبانا لفي ضلال مبين (خطأ في صرف محبته اليه) .

اقتلوا يوسف أو اطرحوهُ أرضاً يخْلُ لكم (يخلص لكم) وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين .

قال قائل منهم لا تقتلوا يوسفَ وأَلْقوه في غَيابَةِ الجُبِّ (ما أظلم من قاع البئر) يلتقطه بعض السيَّارة (المسافرين) إن كنتم فاعلين[1]﴾ .

وواضح من سياق الأحداث أن الحسد كان موجهاً إلى يوسف وإلى اخيه بنيامين اللذان احتلا مكاناً خاصا في قلب الأب ، لكن تركيز الإخوة كان منصبا على شخصية يوسف بصورة خاصة .

لذلك قرروا التخلص منه وعندما يتم لهم ذلك فسيتحقق هدفهم وتنتصر إرادتهم ، ومن ثم سيصفو الجو لهم وينالوا محبة أبيهم ثم . . يتوبون إلى الله!

نعم يتوبون!

مساكين . . لقد اعتقد الإخوة «الأعداء» بأن التوبة ستبرر لهم هول ما سيفعلونه وليست التوبة هكذا كما يقول المرحوم سيد قطب «إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر

---

(١) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٧ - ١٠ .

حتى إذا تذكر ندم وجاشت نفسه بالتوبة ، أما التوبة الجاهزة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة فليست بالتوبة إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان»[1] .

اقترح أحدهم قتل يوسف وإزهاق روحه حتى لا تقوم له قائمة! لكن أحدهم كان الأكثر حكمة وتعقلاً ، اقترح إلقاء يوسف في البئر الرئيسي الذي ترد إليه قوافل المسافرين بين فلسطين ومصر . فيعثر أحدهم عليه ويأخذه معه ، وبذلك يتم التخلص منه وإبعاده عن فلسطين برمتها دون اللجوء إلى إزهاق روحه . واتفقوا جميعاً على وجاهة هذا الرأي ونزاهته . . ولكن . . كيف السبيل لتنفيذ هذه الخطة؟

وبدأ مشهد جديد . . وهو المشهد العملي الأول على أرض الواقع . . ليذهبوا جميعاً إلى أبيهم يعقوب وليطلبوا منه السماح ليوسف باللهو البريء معهم في الصحراء ، فيسعدون به ، ويسعد هو بالمرح والحبور والسرور . .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون . أرسلهُ معنا غداً يرتع (يتوسع في المرح) ويلعب وإنّا له لحافظون قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكلهُ الذئبُ ونحن عصبةٌ إنا إذا لخاسرون﴾ (عاجزون هالكون)[2] :

ربما كانت هذه أول مشكلة عملية واجهت العصبة في تنفيذ البند الرئيسي من المؤامرة .

انصب اهتمامهم أولاً على كسب ثقة أبيهم المهزوزة أساساً ، ولا

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن - المجلد الرابع - ص ١٩٧٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآيات من رقم ١١ - ١٤ .

شك أنهم بذلوا جهوداً حوارية كبيرة لإقناع أبيهم بوجهة نظرهم المشبوهة ولم يكن من السهل على نبي حكيم كيعقوب أن يقتنع برأيهم خصوصاً بعد إظهارهم لذلك النوع من الود المفاجئ نحو يوسف .

وبرغم حرص يعقوب على حياة يوسف وخوفه من افتراس الذئب له في غفلة عنهم إلا أنهم استمروا في المراهنة والمراوغة بزعمهم أن ذلك امر مستبعد الحدوث لأنهم عصبة من الشباب الأقوياء ، ولحكمة الهية مطلقة استسلم يعقوب لرغبة أبنائه حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . . .

إلقاء يوسف في البئر

وما كاد موكب الغل والحقد يتوغل في الصحراء حتى كشر الإخوة الأعداء عن أنيابهم . وهنا يصور الحافظ ابن كثير ذلك المشهد بقوله : إن يعقوب عليه السلام لما بعثه (يوسف) ضمه إليه وقبله ، ودعا له وذكر «السدي» وغيره ، انه لم يكن بين اكرامهم له وبين إظهار الاذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه ، وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه والفعل من ضرب ونحوه .

ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوه على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره فصعد إلى صخرة كانت في وسطه فقام فوقها[1] .

وما كان الله تعالى ليترك عبده المبتلى ونبيه المجتبى نهباً للمصير

---

(١) الحافظ ابن كثير ، تفسير القرآن الكريم ، الجزء الثاني ، دار المعرفة - بيروت .

المجهول ، فقذف السكينة في قلبه ، وأوحى إليه أنك لابد خارج من هذه المحنة ، ولتخبرن إخوتك المتآمرين بأنهم لابد أن يعضوا أنامل الندم علي جريمتهم . ويأتونك محتاجين مضطرين . قال الحق تبارك وتعالى : ﴿فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتُنَبِّئَنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾[1] .

وبدأ المتآمرون في جني الثمرة الرئيسية لخطيئتهم . . التقطوا بداية الخيط من مكمن خوف أبيهم يعقوب الذي حذرهم منه سلفاً . الذئب . . الذئب . .

فعلوا فعلتهم . . وجاءوا يبكون وينتحبون بين يدي أبيهم . ادعوا زوراً وبهتاناً بأن الذئب انقض على يوسف وافترسه ساعة ذهابهم للسباق في الوقت الذي تركوه يحرس أمتعتهم .

ومدوا حبل الكذب لتمرير مؤامرتهم . . الكذب جريمة إضافية إيضاً . . والذئب - كما هو معلوم - من أشرس الحيوانات البرية ، ومن أكثرها ضراوة ، لكنه- في هذه المرة فقط- كان بريئاً . . لذلك ضرب به المثل بالبراءة التامة في هذه القضية بالذات فقيل : فلان بريء براءة الذئب من دم يوسف . واختارت العصبة الآثمة ظلمة الليل موعداً مناسباً لإخفاء مشاعر أفرادها المزيفة ودموعهم الكاذبة .

وهذه صورة قرآنية للمشهد :

﴿وجاءوا آباهُمْ عشاءً يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نَسْتَبِقُ وتركنا يوسفَ عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن (بمصدق) لنَا ولو كنا صادقين﴾ .[2]

وحتى يدلل الجناة على إدانة الذئب (البريء) وبالتالي تبرئة أنفسهم ، استمروا في أداء فصول التمثيلية الملفقة .

---

(١) سورة يوسف - الآية رقم ١٥ .

(٢) سورة يوسف الآيتان ١٦ ، ١٧ .

ذبحوا حيواناً بريئاً ولطخوا بدمه قميص يوسف ليثبتوا تهمة افتراس الذئب لأخيهم .

ولما كانت آفة الكذب النسيان ، فقد نسي الجناة أن يمزقوا القميص تمزيقا واضحا يدلل على زعمهم ، فليس معقولاً أن يترفق الذئب بقميص يوسف فلا يمسسه بسوء في الوقت الذي مزق يوسف إرباً إرباً ومضغه ومن ثم ابتلعه في جوفه!

ولأن قلب المؤمن دليله ، وعقله مرشده ، فقد أدرك الأب الفطن أن أولاده يكذبون عليه . . وقد أشعرهم بذلك بأسلوب نبوي حكيم تناسب مع هدوء يعقوب ووقاره وحكمته .

ولكنه لاذ إلى مرفأ الصبر الجميل ، فاتكأ عليه ، واستعان بالله على سوء سلوك ابنائه .

قال الحق مصورا هذا المشهد : ﴿وجاءوا على قميصه بدم كَذِبٍ (مكذوب مفتعل) قال بل سَوَّلت (زينت او سهلت) أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾[1] .

وعودة إلى يوسف والبئر لنرصد الفصول المتبقية من القصة اليوسفية المثيرة ، فقد كانت البئر التي أُلقي يوسف في غيابتها تقع في نقطة مهمة على طريق القوافل التجارية المتجهة من فلسطين إلى مصر ، والمشهور فلسطينيا أن ضياع يوسف كان في بئر «الحفيرة» بين نابلس وجنين ، ولنا أن نتصور حال الفتى يوسف وهو يواجه أول محنة حقيقية في حياته الغضة . .

لكنه في نهاية المطاف كان مطمئناً لعدالة السماء . . ولرحمة الرحمن الرحيم ، ولم تتأخر تلك الرحمة فسرعان ما أدركته ربما أسرع مما توقع ، فهذه إحدى القوافل قد أناخت مطاياها جوار البئر طلباً للراحة وللاستسقاء معاً . سارت مسافات طويلة فسميت سيارة .

(١) سورة يوسف الآية رقم ١٨ .

وأدلى الوارد دلوه في البئر . .

وقبل أن يصل الدلو إلى الأعماق ، وثب عليه يوسف وتعلق به تعلق الغريب الغريق بطوق النجاة .

وسحب الوارد دلوه من البئر .

ولما رأى طلعة يوسف البهية صاح من فرط فرحته وهو يكاد لا يصدق ما يرى : يالبشراي . لقد عثرت على غلام . . . ويقول المفسرون : إن الذين كانوا على الماء ادعوا أنهم اشتروه من سادته واسروه بضاعة حتى وصلوا إلى مصر وشروه (باعوه) بثمنٍ بخس وكانوا فيه من الزاهدين .

يوسف العزيز في بيت العزيز

كانت تجارة الرقيق منتشرة في ذلك الزمن البعيد فاشتراه مسؤول مصري رفيع المستوى قيل إنه وزير مقرب من الملك ، وقيل إنه مدير الشرطة وقيل غير ذلك .

ومهما يكن من امر ذلك المسؤول إلا أنه توسم الخير والبركة بوجود يوسف داخل بيته حيث أوصى زوجته بالاعتناء به والإحسان إليه ومعاملته معاملة ابن لهما .

وهذه العناية - لعمري- حكمة ربانية عظيمة ستظهر قيمتها خلال الفصول اللاحقة .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿وجاءتْ سيّارة (قافلة المسافرين) فأرسلوا واردهم (من يستقي لهم) فأدلى دلوه (أرسلها في الجب ليملأها) قال يابشرى هذا غلام وأسروه (أخفوه عن بقية الرفقة) بضاعة والله عليم بما يعملون .

وشروه (باعوه) بثمن بخس (منقوص نقصاناً ظاهراً) دراهم معدودة

وكانوا فيه من الزاهدين .

وقال الذي اشتراهُ من مصر لامرأته أَكْرمي مثواهُ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمّهُ من تأويل الاحاديث (فهمها) والله غالب على أمره (لايقهره شيء) ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1] ﴾ . . .

(١) سورة يوسف الأيات من رقم ١٩ الى رقم ٢١ .

الفصل الثاني
الإخلاص عنوان بارز في حياة يوسف

انعكس حب المسؤول المصري الكبير الذي يلقبه القرآن الكريم بلقب «العزيز»- على شخصية يوسف حيث تبوأ مكانة مرموقة بين أفراد الأسرة وبين العاملين في القصر بشكل عام ، فرسخت قدمه ، وقويت شوكته ، تمهيداً للمهمة الكبرى التي يعدها الله تبارك وتعالى له :-

﴿ولما بلغ أشُدَّه (منتهى شدته وقوته) آتيناه حُكماً وعلماً و كذلك نجزي المحسنين﴾ (١) .

وهكذا هيأ الله تعالى ليوسف أن يعيش معززاً مكرماً في بيت مصري رفيع المستوى . .

ومن خلال معيشته في ذلك البيت علمه الله تعالى علماً خاصاً به لم يعلمه أحداً في مصر كلها ، هذا العلم هو تأويل الأحاديث وتفسير الأحلام ، إضافة إلى ما تعلمه في بيت النبوة الذي نشأ فيه بفلسطين من النبل والعفة والطهارة الأخلاقية والصبر .

كل هذه الصفات الرائعة جعلت من يوسف إنساناً عالماً وحكيماً . . ومحبوباً عند الناس . هذا إضافة إلى ما حباه الله تعالى من جمال جسماني أخاذ جعله مضرب الأمثال على مر التاريخ .

غير أن هذا الجمال الخلقي الفريد الذي يعتبر نعمة عظيمة لصاحبه إلا أنه بالنسبة ليوسف شخصياً لم يكن كذلك ، بل كان نقمة مؤقتة عليه ، لأنه جر عليه محنة جديدة لا تقل هولاً عن محنته مع إخوته .

فلقد افتتنت به امرأة العزيز . . ووقعت في غرامه ، ربما كان الأمر مقبولاً لو توقف عند هذه الدرجة . .

لكن الملامسة المعنوية تخطت حدودها ، وتجاوزت خطوطها ، فوقع

---

(١) سورة يوسف ، الآية رقم ٢٢

يوسف بكليته في قلبها موقع العشق والغرام والهيام . .

حاولت في البداية أن تقاوم شهوتها الحيوانية المتمردة ، لكن مقاومتها لم تصمد طويلاً .

وتخطت امرأة العزيز الإطار النفسي الذي وضعت نفسها فيه ، وخرجت من شرنقتها الذاتية المغلقة إلى الإطار الواقعي الملموس ، فطلبت من يوسف بصورة مباشرة أن يضاجعها ، ويواقعها مواقعة الزوج لزوجته ، ضاربة بذلك عرض الحائط بوصية زوجها في البداية بإكرام وفادة يوسف واعتباره ابناً لهما بعد أن حرما من نعمة الإنجاب ، وغير آبهة أيضاً بخيانة زوجها ، وبتلويث شرفه وشرفها وشرف العائلة والقصر معاً . .

وهذه قراءة متأنية في اللوحة القرآنية التي توضح تهالك «زليخة» على نيل شهوتها القبيحة بعد أن هيأت كافة السبل والوسائل لنجاح مهمتها الشيطانية ، وكذلك رفض يوسف الشريف العفيف النظيف لتلك الدعوة ، وتمسكه بأخلاق النبوة . . وبأدب الضيافة معاً :

﴿وراودتْهُ (تمحَّلَتْ لمواقعته إياها) التي هو في بيتها عن نفسِه وغَلَّقَت الأبوابَ وقالت هيت لك (أسرع وأقبل) قال معاذ الله (استغفر الله) إنه ربي (زوجها) أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ [1] .

وواضح من سياق الآية الكريمة أن دعوة المراودة هذه لم تكن الدعوة الأولى ، بل هي آخر دعوة وجهتها له بعد أن جمحت غريزتها ، واستشاطت شهوتها ، فغلقت الأبواب وتهالكت على يوسف ، وصرخت - من فرط شهوتها - وهي في قمة نزوتها وشبقها : «هيت لك» يعنى تعال بسرعة يا يوسف . . . هيا قبل فوات الأوان . . . ولقد همت به وهمّ بها وهذه تكملة في قراءة اللوحة :

﴿ولقد هَمَّتْ بهَ وهَمَّ بها لولا أنِ رأى بُرهان ربه كذلك لنصرفَ عنه

---

(١) سورة يوسف الآية رقم ٢٣ .

السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [1] .

وعند هذه الآية الكريمة وقف المفسرون والمحللون طويلاً ، فاختلفت تفسيراتهم وتباينت تحليلاتهم وآراؤهم .

ونحن لن نقف طويلاً عندها ونعرض لأهم تلك التفسيرات ، بل سنطرح الرأي الذي تبناه الشيخ محمد علي الصابوني والذي يفسر بداية معنى التعبير القرآني ﴿ولقد همّت به﴾ فيرى أن المعنى هو : أي همت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم ، عزماً جارفاً على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف[2] .

أما عندما يأتي تعبير ﴿وهمّ بها﴾ فهو يعني أنه يحمل معه ميلاً من يوسف «بالنزول عند رغبتها كحديث نفس دون عزم وقصد مبين» . والصابوني يعتمد في ذلك على تفسير الإمام الفخر الرازي حين قال «الهمّ خطور الشيء بالبال ، أو ميل الطبع كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ، لكن دينه يمنعه عنه[3] .

ومعظم مفسري القرآن الكريم يتبنون هذا الموقف بالنسبة لهذه الآية الكريمة بالذات . ويقولون أنه في الوقت الذي همت امرأة العزيز بيوسف ، هَمَّ هو بها هماً نفسياً إلى أن رأى برهان ربه فترك الأمر [4] .

ولم يجد الكريم ابن الكرماء بداً من التصرف بحكمة وبسرعة . فاتخذ من الهروب وسيلة ناجعة وفعالة للنجاة بنفسه وشرفه .

ركض نحو الباب الرئيسي . لكن «زليخة» الظامئة لارتكاب

(١) سورة يوسف الآية رقم ٢٤ .

(٢) محمد علي الصابوني- صفوة التفاسير الجزء الثاني- مطابع الدوحة الحديثة- ١٩٨١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) في ظلال القرآن ، مرجع سابق .

الفاحشة انطلقت وراءه ، فجذبته من ظهر قميصه فتمزق جزء منه ، ووقفا عند الباب ، هو يعمل جاهداً لفتحه والهروب منه وهي تعمل جاهدة لمنعه وعرقلة محاولته ، وحدثت مفاجأة لم تكن في حسبان أحد ، فقد شاءت إرادة الحق تبارك وتعالى أن يفتح الباب من الخارج فإذا بالعزيز يدلف منه برفقة أحد الأقارب ، وبرغم خطورة الموقف ، إلا أن امرأة العزيز التي لم تتدفق دماء الخجل في وجهها ، اتهمت يوسف بمحاولة الاعتداء على شرفها ، وأثارت زوجها عليه مطالبة بسجنه وتعذيبه وتعزيره .

ولنتدبر اللوحة القرآنية المصورة لهذا المشهد :

﴿واسْتَبقَا البابَ وقَدَّتْ قميصه (قطعته وشقته) من دُبُر (خلف) فألْفيا (وجدا) سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذابٌ أليم﴾[1] .

صار يوسف في وضع حرج لا يُحسد عليه . .

لم يكن بوده أن يفضح المرأة ، لكنها فضحت نفسها بنفسها حينما اتهمته زوراً وبهتاناً بأنه أراد الاعتداء عليها والإساءة لشرفها وشرف زوجها ، وإزاء هذا الموقف لم يجد يوسف بداً من النطق بالحقيقة التي طالما صمت عنها .

﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ [2] .

ويبدو أن جدلاً دار بين الغريمين بعد أن رد يوسف التهمة عن نفسه ، ولما اشتد الجدل تدخل قريب لها لإنهاء هذا الموقف ، فاقترح التأمل في قميص يوسف . . . أجل . . قميص يوسف مرة أخرى هو الوسيلة المثلى لإظهار الحقيقة في هذا الموقف .

في المرة الأولى كان القميص وسيلة مزيفة لتبرئة الأخوة الأعداء

---

(١) سورة يوسف الآية رقم ٢٥

(٢) سورة يوسف من الآية رقم ٢٦

من دم يوسف . وإدانة الذئب واتهامه بالفتك بيوسف .

وفي هذه المرة صار القميص وسيلة لتبرئة يوسف . وإدانة امرأة العزيز وفي المرة الثالثة والأخيرة- كما سنرى- أضحى القميص وسيلة لعودة البصر ليعقوب الذي فقده حزناً على غياب يوسف .

واقترح القريب الحكيم إن كان القميص تمزق من الأمام فهذا يعني أن امرأة العزيز صادقة في اتهامها ليوسف لأن أية مقاومة من جانبها دفاعاً عن نفسها ستنال من واجهة القميص نيلاً سيئاً . وسيكون يوسف مذنباً لا شك في ذلك .

أما إن كان العكس صحيحاً ، وكان القميص ممزقاً من الخلف فامرأة العزيز كاذبة في ادعائها لأنه في حالة هروب يوسف من عدوانها فمن المتوقع أن تشده من الخلف كي تمنعه من الهروب .

ولما تمت معاينة القميص وثبت بالدليل القاطع أنه قُدَّ وتمزق من الدبر فلا شك في براءة يوسف ، وثبوت التهمة على زليخة .

لكن عندما تبين للعزيز وجه الحقيقة لم يوجه اللوم لزوجته ولم يؤنبها أو ينتقم منها . لكنه وجه اللوم الخجول إلى النساء عموماً ، واكتفى بأن طلب من حليلته أن تتوب عن فعلتها الخاطئة ، بينما طلب من يوسف تناسي الموضوع وإهماله .

وهذا تصوير للمشهد كما ورد في اللوحة القرآنية :

﴿قال هي راودتني عن نفسي وشهدَ شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه قد من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين .

وإن كان قميصُه قُدَّ (تمزق) من دُبر فكذبتْ وهو من الصادقين .

فلما رأى قيمصَهُ قُدَّ من دُبر قال إنه من كيدكنَّ إن كيدَكُنَّ عظيم .

يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ (١) .

---

(٩) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٢٦ إلى ٢٩ .

فضيحة امرأة العزيز تنتشر في المجتمع

برغم حرص العزيز على عدم انتشار فضيحة زوجته خارج جدران القصر ، إلا أن الخبر سرعان ما انتشر في الأوساط المخملية بالمجتمع المصري . ولاكت ألسنة النسوة سيرة امرأة العزيز ، فنظرت النسوة إليها نظرات احتقار وامتهان لأنها لم تحترم قداسة الحياة الزوجية خصوصاً وهي زوجة بارزة لمسؤول رفيع معروف في المجتمع .

وقد صور القرآن الكريم جانباً من هذا المشهد :

﴿وقالَ نسوةٌ في المدينة امرأةُ العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شَغَفَها حباً (خرق حبه سويداء قلبها) إنّا لنراها في ضلال مبين﴾[1] .

ومن خلال هذا السياق القرآني نرى أن لائحة اتهام النسوة لامرأة العزيز تضمنت ثلاثة أمور هي : مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه ، ثم سبب هذه المراودة ، وأخيراً بيان رأيهن في زليخة ، وقد أصدرن حكمهن عليها وقلن ﴿إنّا لنراها في ضلال مبين﴾ .

وعلمت امرأة العزيز من مصادرها الخاصة أن رائحة فضيحتها قد تسربت إلى بعض نساء الطبقة الراقية التي تنتمي إليها ، والتي حاولت زليخة جاهدة للحؤول دون وصول النبأ إليهن ، وانهن يلمنها على سلوكها المشين ، وربما فلت الزمام وانتشر الخبر في البلاد كلها .

فماذا تعمل؟ وكيف تتصرف للحد من إيقاف انتشار الفضيحة .؟

تحركت جينات الدهاء في أعماقها . . وقررت مواجهة الموقف بحزم وحكمة . .

رسمت خطة محكمة تضمنت دعوة أولئك النسوة لحضور وليمة كبيرة في قصرها .

وأعدت لكل سيدة وسادة وثيرة لتتكئ عليها . .

---

(١) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٠

واشتملت الوليمة على أنواع مختلفة من الأطعمة والأشربة . .

ولبت المدعوات الدعوة . . وحضرن إلى القاعة الكبرى ، وقد ارتدين أفخر الثياب ، وتزين بأبهى الزينات . وتعطرن بأطيب العطورات . . .

وساعة تناول الضيوف لنوع معين من الفاكهة قيل أنه «الأترج» الذي لا يتم تناوله إلا بالسكين ، أشارت امرأة العزيز ليوسف أن يدخل إلى القاعة- وكانت قد هيأته وألبسته أحسن الثياب- ، ولم يكد يطل عليهن ويدخل المكان حتى حدث ما توقعته امرأة العزيز وخططت له .

بهتت كل المدعوات حينما أبصرن جمال يوسف المذهل . . وبهاءه الفريد . . ويصور مؤلف «التفسير القرآني للقرآن» ذلك المشهد قائلاً :

وأصابتهن حالة حادة من الذهول والدهشة ، ولم يعدن يدرين ماذا يمسكن في أيديهن ، وفي حركات لا شعورية أعملن السكاكين في أيديهن ، فأصابت منهن ما كان من شأنه أن يصيب الفاكهة منها ، فسالت الجروح ، ونزفت الدماء!

وعندئذ تنبهن إلى وجودهن ، وقلن حاشا لله ، ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم [1] .

إن إسالة دماء المدعوات بهذه الصورة التراجيدية يعتبر في حد ذاته انتصاراً مبدئياً لامرأة العزيز على منتقداتها ، وقد أحسنت استغلال الموقف لصالحها ، فجمال يوسف المذهل أوقعهن في غرامه ، مثلما وقعت هي في غرامه من قبل ، وتمنين كلهن كسب ود يوسف .

وهنا باحت امرأة العزيز بسر عشقها له قائلة بجرأة :

هذا هو يوسف نفسه الذي اتهمتنني فيه .

وسأعترف أمامكم بالحقيقة . . فقد دعوته لمعاشرتي ، ولكنه رفض بإباء وشمم ، ولا أخفي عليكن شيئاً ، فما برح يوسف مسيطراً على مشاعري وأحاسيسي وبرغم رفضه المستمر لمعاشرتي إلا أنني لن أيأس

(١) عبدالكريم الخطيب ، التفسير القرآني ، جـ ١٢ ص ١٢٦٦ ، بيروت .

أبداً ، وهأنذا أوجه إليه إنذاراً فإذا لم يستجب لرغبتي فسأضطر غير آسفة إلى وضعه في السجن ليلقى جزاء تمرده ورفضه لأوامري!

وقد صور القرآن الكريم هذه المشاهد في اللوحة التالية :

﴿فلما سَمعتْ بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدتْ لهنّ متكَأً (وسائد يتكئن عليها) وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه (دهشن) وقطعن أيديهن وقلن حاش لله (تنزيهاً لله) ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم .

قالت فذلكن الذي لمتنَّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصاغرين﴾ [1] .

---

(١) سورة يوسف ، الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

الفصل الثالث
المواجهة العلنية مع امرأة العزيز

بالتهديد المباشر بالسجن و الإذلال نقلت امرأة العزيز المعركة- غير المتكافئة- بينها وبين يوسف إلى المواجهة العلنية الساخنة . ونقول «غير المتكافئة» لأن امرأة العزيز تملك سطوة السلطة إلى جانب القدرة المادية التي تؤهلها لتنفيذ وعيدها يساعدها في ذلك مسؤول قوي الشكيمة خارج جدران قصره ، وزوج مطيع مروض وخانع داخل جدرانه لا يعصي لامرأته أمراً ، ولا يخالف لها رأياً . إضافة إلى حصولها على بطاقة التأييد والتشجيع من صويحباتها الماجنات .

وفي الطرف المواجه يقف يوسف كالطود الشامخ أمام إغراءات المرأة وخلاعتها وتهديداتها المتلاحقة له إذا لم يطفئ سعار شهوتها الجنسية الملتهبة . . ويوسف لا يملك من متاع الدنيا سلاحاً يواجه به جبروتها . .

لكنه يمتلك إمكانات معنوية غير محدودة مؤيدة برب السماوات والأرض ، لذلك اختار يوسف أن يدخل السجن ويبقى على عفافه ونقائه وطهره ، وتوسل إلى الله أن يصرف عنه كيدهن لأنه ضعيف إلا إذا قواه الله ، وفقير إلا إذا أغناه الله .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿قال رب السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تَصْرِفْ عني كيدهن أَصْبُ إليهن (أمِل إلى إجابتهن) وأكُنْ من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم﴾[1] .

واستجاب الحق تبارك وتعالى لدعاء عبده المستجير برحمته ، فصرف عنه أذاهن . وسنرى- لاحقاً- أن دخول يوسف إلى السجن- برغم قسوة الحياة فيه- كان مقدمة غير إيجابية لنتيجة إيجابية تمثلت

---

(١) سورة يوسف ، الآيتان ٣٣ و٣٤

في التغلب على الأزمة الاقتصادية التي مرت بها مصر واستمرت مدة سبع سنوات .

هذا وبرغم الأدلة الثبوتية- وفي مقدمها اعتراف امرأة العزيز بخطيئتها- إلا أن ميزان العدل اختل على أيدي هذه العصابة المجرمة ، ومن ضمنها العزيز نفسه- وما هو بعزيز- ، فقد اتخذوا جميعاً قراراً ظالماً تضمن قذف يوسف في السجن وإبقائه فيه مدة غير محدودة ، وشجعهم على ذلك انتشار أخبار المراودة والوليمة وتجريح الأيادي والأصابع في الأوساط الشعبية المصرية وتضخيمها أثناء عمليات تناقلها بين الألسن .

وأرادت عصبة الإفك أن تضع حداً لانتشار الشائعات والروائح الكريهة التي انبعثت من قصر العزيز أساساً . .

ويدلنا سياق القصة أن الرجل كان متواطئاً مع زوجته تواطؤاً واضحاً ضد يوسف . بدليل قوله تعالى :

﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾(١) .

وواضح أن عبارة «ليسجننه حتى حين» تعني إبقاء يوسف في السجن لأجل غير مسمى ، وذلك حتى تخبو النيران ، وتتوارى الفضيحة خلف ستائر النسيان!

. . . .

وأُدخل يوسف إلى السجن . . .

إنها محنة جديدة يا أبا يعقوب . .

ويمكن إضافتها إلى قائمة المحن والابتلاءات السابقة و . . . اللاحقة! غدر الأخوة ، والبعد عن الوطن ، وفراق الأحبة ، وفتنة زليخة وظلم الحاكم ، وظلام السجن ، سلسلة متصلة الحلقات من العذابات المتتالية ، لكنها في المنظور الإلهي مقدمات لسلسلة متصلة من

---

(١) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٥

الانتصارات المنتظرة كما سنرى لاحقاً إن شاء الله .

. . . .

استثمر يوسف فترة وجوده في السجن استثماراً عقلانياً حكيماً . . .

لم يندب حظه العاثر ، ولم يندم على شيء فعله ، بل أصرَّ على مصداقية ما فعله ، اعتبر دخوله إلى السجن تطهيراً له من الميل المعنوي إلى امرأة العزيز .

استرجع في مخيلته شريط ذكرياته ، فكّر ، وقدّر وتدبر وشكر ، واتعظ تضاعفت ثقته بنفسه وفي استقامة خط سيره ، ووجد من واجبه أن يدعو من تعرف عليهم داخل جدران السجن إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، واقترب كثيراً من فتيين مصريين دخلا السجن معه في فترة زمنية واحدة .

أحدهما يعمل خبازاً خاصاً عند «جلالة» الملك ، وثانيهما يعمل ساقياً خاصاً عند الملك نفسه ، وقد أدخلا إلى السجن بتهمة «تسميم» «جلالة» الملك والقضاء عليه بالتواطؤ مع جهات معادية .

وقد وردت تفصيلات عن هذين الفتيين في كتاب «مجموعة من التفاسير» جاء فيه :

إن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله ، فضمنوا لهذين الغلامين مالاً على أن يسمّا الملك في طعامه وشرابه ، فاستجابا إلى ذلك ، ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك . وقبل الخباز الرشوة وسمّ الطعام ، فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي :

لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم .

وقال الخباز : لا تشرب فإن الشراب مسموم .

فقال للساقي : اشرب ، فشربه ولم يضره .

وقال للخباز : كل من طعامك ، فأبى . فأطعم من ذلك الطعام دابة

فهلكت ، فأمر الملك بحبسهما مع يوسف[1] .

وقد أعجب الفتيان بشخصية يوسف ، ومجموعة الخصال التي تميز هذه الشخصية عمن سواها : دماثته ، سمته ، هدوؤه ، اتزانه ، بعد نظره ، صواب رأيه ، إخلاصه في عبادته ، طهارته . . .

ولأجل ذلك وثقا به ثقة كاملة ، فكانا يستشيرانه في كثير من أمورهما الحياتية . وحدث أن حلم هذان الفتيان أثناء نومهما حلمين غريبين عجزا عن تفسيرهما .

ومن المعلوم- كما يقول علماء التحليل النفسي- إن الأحلام ما هي إلا رغبات مكبوتة يظهرها العقل الباطن أثناء النوم ، لذلك كان حلماهما تعبيراً لا شعورياً عن حالتيهما الخاصتين . فطلبا من يوسف أن يفسر لهما هذين الحلمين .

وتجلى هذا الموقف في اللوحة القرآنية الآتية :

﴿ودخل معه السجنَ فتيان . قال أحدهما إنّي أراني أعصرُ خَمراً (عنباً يؤول إلى خمر) وقال الآخر : إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خبزاً تأكلُ الطيرُ منه ، نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين﴾ [2] .

وواضح من السياق القرآني أن ساقي الملك رأى نفسه في الحلم وهو يعصر العنب ليصيره خمراً ويسقيه للملك .

بينما رأى خباز الملك نفسه في الحلم واقفاً في مكان ما حاملاً فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه .

فأخبرهما يوسف أنه خبير بمثل هذه الأمور فقد علمه ربه تأويل الأحاديث وتفسيرها .

---

(١) البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس- «كتاب مجموعة من التفاسير»- دار إحياء التراث العربي- بيروت

(٢) سورة يوسف الآية رقم ٣٦

لكنه لم يشأ أن يفسر لهما حلميهما فوراً ، بل أراد أن يستثمر الموقف لإثبات نبوته بالأدلة والبراهين .

فلما كانت لديه معرفة مسبقة بما علمه ربه ، فهو قادر على معرفة نوع الطعام الذي سيأتيهما قبل إحضاره إليهما فعلاً .

وقد أنعم الله تعالى عليه بهذه النعمة لأنه عبد مؤمن بوحدانية الله مثله في ذلك مثل آبائه الكرام عليهم الصلاة والسلام إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين يتمتعون بمصداقية معنوية وسلوكية مثالية بين البشر ومؤيدون بالوحي الإلهي . وذلك كله من فضل الله تعالى عليه وعلى آبائه والناس أجمعين .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿قال : لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويلهِ قبل أن يأتيكما ذلكما مما علَّمني ربي إنِي تركت ملَّة قوم لا يؤمنون باَلله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعتُ ملَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل اللهِ علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ [1] .

. . . .

وواصل يوسف إبحاره في محيط الدعوة إلى وحدانية الله تعالى توحيداً مطلقاً ، في الوقت الذي عمد فيه إلى تسفيه آلهتهم التي يعبدونها من دون الله الواحد القهار ، والتي أطلقوا عليها أسماء مختلفة ما أنزل الله بها من سلطان ، وليست لها أية قيمة إيجابية في ميزان الله ، فهي لا تضر عدواً ، ولا تفيد صديقاً ، ولا تنصر مظلوماً ، ولا تقهر ظالماً .

وأوضح لهم يوسف بوضوح وجلاء إن الله هو وحده خالق الكون

---

(١) سورة يوسف ، الآيتان ٣٧ و٣٨

كله ، وهو سبحانه وتعالى المتصرف الأوحد فيه ، وكل ما فيه خاضع لإرادته ومشيئته ، إذن فهو وحده المستحق للشكر ، الجدير بالعبادة ، وأكثر الناس يتخبطون في جهالاتهم لأنهم لا يعلمون الحقيقة .

لنتأمل هذه اللوحة القرآنية المحكمة :

﴿يا صاحِبي السجن أأرباب متفرقونَ خير أم اللهُ الواحدُ القهار . ما تَعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1] .

وبعد أن أدى يوسف جانباً من رسالته الداعية إلى إعلاء كلمة الله وحده ، وجد الفرصة سانحة للإجابة عن استفساري الفتيين القلقين الحائرين . فخاطبهما بمودة قائلاً : ﴿يا صاحِبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه (الملك) خمراً وأما الآخر فيصلبُ فتأكلُ الطير من رأسه قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [2] .

أي يا صاحبيَّ في السجن إن الذي رأى في منامه أنه يعصر خمراً فسوف ينعم بالحرية بعون الله تعالى ويخرج من هذا السجن ، ويعود لأداء مهمته السابقة في سقاية الملك خمراً .

أما الذي رأى في حلمه أنه يحمل فوق رأسه خبزاً وتأكل الطير منه ، فسوف يصدر عليه الحكم بأن يموت مصلوباً .

وهنا خطرت في خاطر يوسف خاطرة سرعان ما عمل على تنفيذها ، فعندما وقف يودع الفتى الذي تمّ الإفراج عنه قال له يوسف : اذكرني عند ربك . . أي اعمل على تذكرة الملك بوجودي في السجن .

ولكن الساقي عندما استنشق عبير الحرية نسي وحشة السجن ، وأنساه الشيطان أن يذكر الملك بقضية يوسف ، وكانت نتيجة ذلك

---

(١) سورة يوسف الآيتان ، ٣٩ و٤٠ .

(٢) سورة يوسف الآية ٤١ .

النسيان أن طالت فترة مكوث يوسف في السجن والتي قيل أنها استمرت سبعة أعوام ، وهي نفس الفترة الزمنية التي أصاب فيها البلاء نبي الله أيوب عليه وعلى حبيبنا المصطفى الصلاة والسلام . . والله تعالى أعلم .

تقول اللوحة القرآنية في هذا الشأن :

﴿وقال للذي ظنَّ أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساهُ الشيطانُ ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾[1] .

وقد ابتدأت منذ الآن خطوة رئيسية لتمكين يوسف في الأرض ، وقد كانت سنوات سجنه السبع تمهيداً لتفسير رؤيا رآها الملك في منامه ، ولما استيقظ ساوره القلق ، فاستنجد بمن حوله من الكهنة والسحرة والمنجمين علهم يجدون تفسيراً لرؤياه إن كانوا يعرفون لها تفسيراً أو تأويلاً .

فماذا رأى الملك في منامه؟

اللوحة القرآنية تجيب عن هذا السؤال :

﴿وقال الملكُ إني أرى سبعَ بقرات سِمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجافٌ (مهازيل جداً) وسبع سنبلات خضر وأُخَر يابسَاتٍ يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون (تعلمون تأويلها) .

قالوا أضغاث أحلام (تخاليطها وأباطيلها) وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾[2] .

ولما عجز السحرة والمنجمون عن تفسير الرؤيا قالوا للملك : إن الحلم لا معنى له ، وإنه أخلاط أحلام لا قيمة لها ، ومع ذلك فنحن لا نعرف تفسيراً معيناً نستطيع اطلاعك عليه .

وبينما الجميع في حيرة من أمرهم إذ بالساقي يتذكر وجود يوسف

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٤٢

(٢) سورة يوسف ، الآيتان ٤٣ و٤٤

في السجن ويتذكر وصيته له ، فأبدى استعداداً وحماسة للاتصال بيوسف وإطلاعه على رؤيا الملك ، فلا شك أنه سيجد التفسير الحقيقي لها . وتم ذلك فعلاً ، ونجح يوسف في التفسير المنطقي .

لنقرأ اللوحة القرآنية المصورة لهذه الرؤيا :

﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر (تذكر) بعد أُمَّة (بعد مدة طويلة) أنا أنبئكمْ بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصدّيق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنَّ سبعٌ عجافٌ وسبع سنبلات خضر وأُخَرَ يابسات لعلي أرجع إلَى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دَأَباً (دائبين كعادتكم في الزراعة) فما حصدتم فذروهُ في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون (تخبئونه من البذر للزراعة) . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس (يُمطَرون فتخصب أراضيهم) وفيه يعصرون (ما شأنه أن يعصر كالزيتون)﴾ [1] .

ولنا بهذا الصدد ملاحظتان :

الأولى : إن يوسف لم يحاول استغلال الموقف لصالحه ويطلب الإفراج عنه أولاً ، ومن ثم يقوم بالتفسير . إنها أخلاق النبوة التي تسمو على أخلاق البشر جميعاً .

الثانية : مخاطبة رسول الملك إلى يوسف بكلمة «الصَدّيق» وهي كما يعلم أهل اللغة صيغة مبالغة تنم عن كثرة الصدق .

وقد كان يوسف صادقاً سواء في معاملته لرفيقيه في السجن أو في تأويله لرؤيتيهما .

يقول صاحب «صفوة التفاسير» في إيضاح هذه الآيات :

تزرعون سبع سنين دائبين بجد وعزيمة «فما حصدتم فذروه في

---

(١) سورة يوسف الآيات من رقم ٤٥ إلى ٤٩

سنبله» أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوس «إلا قليلاً مما تأكلون» أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله . ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ، تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ، إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة .

ثم يأتي بعد سني القحط والجدب العصيبة عام رخاء فيه يمطر الناس ويغاثون ، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه[1] .

والحقيقة أن تفسير يوسف لهذه الرؤيا كان إلهاماً ربانياً تمكن بموجبه من التخطيط الدقيق للمستقبل الاقتصادي لمصر بعد أن ظهرت ملامح هذا المستقبل من خلال تفسيره للرؤيا .

وعندما علم الملك بتأويل يوسف العقلاني للرؤيا التي حيرته أصابته الدهشة . فأمر باستدعاء يوسف إلى قصر الحكم ، لكن يوسف الصديق اعتذر عن الخروج قبل أن يحصل على وثيقة براءته من تهمة مراودة امرأة العزيز له وذلك من أعلى سلطة تنفيذية في الديار المصرية .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءهُ الرسولُ قال ارجعْ إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعنَ أيديهنَّ إن ربي بكيدهنَّ عليم﴾[2] .

وترى الباحثة الدكتورة زاهية الدجاني أن موقف يوسف هذا يحمل حكمة كبيرة في ثناياه ، فلو خرج من السجن بناءً على تقدير الملك لعلمه دون حصوله على البراءة مما اتهم به حين وضعه بالسجن (وهو مراودته لامرأة العزيز) لبقي موقفه حرجاً أمام الجميع ، ولتعرض مجدداً إلى كيد أكبر ، فإذا لم تستأصل بذرة الكيد فإنها ستعود إلى الانتعاش

(١) محمد علي الصابوني- صفوة التفاسير- مرجع سابق .

(٢) سورة يوسف ، الآية رقم ٥٠ .

في الوقت المناسب لأن كيد النسوة له كان كبيراً ، مؤلماً ومجحفاً بحقه ، ولا يعلم أثره على نفسه المبتلاة غير الله عز وجل . ومن هنا قال يوسف : ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ [(١)] .

وأمر الملك على الفور بعقد جلسة سرية لبحث الموقف من كافة جوانبه ، وحضرت النسوة في حضرة الملك ومن بينهن- بطبيعة الحال- امرأة العزيز أو رأس الأفعى ، وسألهن الملك : هل لاحظتن رغبة مشبوهة من يوسف نحوكن؟

فأجبن جميعاً وشهدن كلهن بكمال أخلاقه وسمو روحه وعفاف نفسه .

وانبرت امرأة العزيز لتكشف عن الحقيقة في علاقتها بيوسف بعد مضي أكثر من سبع سنوات على إخفائها . . . تريد إراحة ضميرها الذي بدأ يستيقظ وينهض من سباته .

قالت : الآن حصحص الحق . . أي بان الحق وظهر ، واعترفت أمام الملأ بأنها هي التي دعت يوسف إلى نفسها ، وليطمئن زوجها «العزيز» فإنها لم تخنه مع يوسف ، وإنما كان الموضوع برمته مجرد مراودة ليس إلا ، ولم يتطور إلى فعل الفاحشة نفسها! .

---

(١) يوسف في القرآن الكريم والتوراة- دار التقريب بين المذاهب الإسلامية- بيروت- ١٩٩٤ .

الفصل الرابع

سرقة مكيال الملك

تقول اللوحة القرآنية :

﴿قال ما خَطْبُكُنَّ (ما شأنكن وأمركن؟) إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه قلن حاش لله (تنزيهاً لله وتعجباً من عفة يوسف) ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حَصْحَصَ الحق (ظهر وانكشف) أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنهُ بالغيب وإن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرّئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾ (١) .

. . . .

وعند هذا المنعطف الحاد انتهى آخر مشهد من مشاهد علاقة امرأة العزيز بيوسف وكان مشهداً رائعاً تجلت فيه براءة يوسف ، وانتصار إرادته المستمدة من إرادة الله تعالى . .

وتوارت امرأة العزيز عملياً من حياة يوسف . . فأفل نجمها ، وغاب وجهها عن مسرح حياة الصديق . . وبدأت صفحة جديدة في حياتها مليئة بالتوبة والندم والاستغفار .

وأخذت شمس يوسف تنشر أشعتها ، وتملأ أرض مصر وفلسطين صدقاً وعدلاً وخصوبة .

هذا ، وقد ترك لقاء الملك بيوسف أثراً إيجابياً في نفسه ، فقد اقتنع ببراءته ونزاهته وحكمته ، فقرر بناء على رغبة يوسف أن يعينه أميناً على الخزانة المصرية أو وزيراً للاقتصاد حسب التعبير الحديث وذلك للاستفادة من علمه وبعد نظره وحسن تدبيره للأمور ، وليعمل على

---

(١) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٥١ إلى رقم ٥٣

مواجهة الكارثة الاقتصادية المقبلة . إنه تمكين جديد ليوسف في الديار المصرية .

تقول اللوحة القرآنية معبرة عن هذه المعاني :

﴿وقال الملك ائتوني به استخلِصْهُ لنفسي فلما كلّمه قال إنك اليوم لدينا مكين (ذو مكانة رفيعة) أمين . قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها (يتخذ منها مباءة ومنزلاً) حيث يشاء نُصيبُ برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [1] .

فلما تقلد يوسف مهمته الجديدة ركز جل اهتمامه في تدبير الشؤون الاقتصادية لمواجهة الموقف الاقتصادي الصعب الآتي إلى مصر ، فبنى العديد من الحصون والصوامع والبيوت وجمع فيها الطعام لسنوات الجدب القادم .

كما عمل على إقامة فضائل العدل والمساواة بين المصريين ، وهذا كله جعله في موضع الحب والتقدير من كافة طبقات الشعب .

. . . .

ومرت السنوات السبع الخصيبة بخير وسلام على مصر وما جاورها . .

ثم أعقبتها السنوات السبع العجاف . . .

بدأت المجاعة تغفر فاها في فلسطين الواقعة على حدود مصر الشمالية . . وأصابت– ضمن ما أصابت– أهل يوسف . . أباه وأمه وإخوته . . . ولم يجدوا بداً من اعتمار مصر لابتياع طعام لهم . . إنها مصر . . أم الخيرات منذ الأزل وهنا يذكر المثل الشائع :

لو شبعت مصر وجاع العالم فإن مصر كفيلة بإطعامه . . أما إذا

(١) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٥٤ إلى ٥٧

جاعت مصر فلن يشبعها العالم!

أصدر يوسف أوامره بعدم السماح لأي مشتر بابتياع أكثر من حمل بعير واحد خلال فترة محدودة . . وهذا بعينه نظام الترشيد الاستهلاكي الذي تطبقه الدول اليوم خلال وقوع هزات أو أزمات اقتصادية فيها .

وعبر أبناء يعقوب صحراء سيناء ، ولما وصلوا الحاضرة المصرية دخلوا على متصرف الخزانة أو وزير الاقتصاد ، وسرعان ما عرفهم . . إنهم هم أنفسهم إخوة يوسف ، لقد عرفهم لكنهم لم يعرفوه لأنهم أسقطوه من ذاكرتهم .

والملاحظ أن يعقوب عليه السلام بعث أبناءه العشرة فقط ، بينما أمسك عنده بنيامين أخ يوسف لأمه وأبيه .

وكال لهم كيلهم ، ثم جلس معهم وأخذ يحاورهم ويسأل عن أحوالهم في فلسطين وكأنه يتعرف عليهم للمرة الأولى ، ولم يكشف عن شخصيته . . ولكنهم كشفوا له جوانب من حياتهم الخاصة . وأوضحوا له أن أخاً لهم هلك في الصحراء منذ فترة طويلة ، وإن لهم أخاً آخر ما زال موجوداً في فلسطين تلبية لرغبة أبيه ، وإنهم أتوا ببعيره معهم ليحملوا عليه المؤونة .

واستغل يوسف هذه النقطة وطلب منهم أن يحضروا أخاهم في المرة القادمة معهم حتى يتعرف عليه كما تعرف عليهم ، وخاطبهم بأسلوب تراوح بين اللين والشدة ، ووعدوه ببذل قصارى جهدهم لإقناع أبيهم بالسماح له بمرافقتهم .

ولكي يزيد من إغرائهم بإحضاره أمر موظفيه بإرجاع ما دفعوه ثمناً لطعامهم وذلك بوضعه سراً في أمتعتهم .

ولنتأمل تفاصيل اللوحة القرآنية في هذا الصدد :

﴿وجاء إخوةُ يوسفَ فدخلوا عليه فعرفهم وهم له مُنْكِرون . ولما

جَهَّزَهَمُ بِجَهازهم (أعطاهم ما هم بحاجة إليه) قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيلَ وأنا خير المنزلين فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون﴾[1] .

العودة إلى فلسطين

عاد الإخوة بأحمالهم إلى فلسطين ، والتقوا أباهم الذي كان ينتظرهم بشوق عارم ، وأخبروه بما حدث معهم تفصيلاً . وبأن الكيل سيمنع عنهم مستقبلاً إن لم يحضروا معهم أخاهم (بنيامين- نكتل) في المرة القادمة ، ووعدوا أباهم بالمحافظة عليه إذا سمح لهم باصطحابه وهنا تفتحت من جديد جراح يعقوب على ولده يوسف . .

وشكك في إمكانية إخوته المحافظة عليه إذا ذهب معهم . . ولكنه كدأبه دائماً يتوسل إلى الله تعالى بإلهامه الصبر على مواجهة الشدائد والمحن ، وهو واثق بأن الله سينشر رحمته عليه في نهاية الأمر .

ولما فتحوا أمتعتهم فوجئوا بوجود الثمن الذي دفعوه مقابل طعامهم مدسوساً في تلك الأمتعة ، فارتفعت معنوياتهم ، إذ حصلوا على دليل مادي مغرٍ يثبت صدق حديثهم ويؤكد حسن معاملة المسؤول المصري الكبير لهم .

ولما اشتدت المجاعة في فلسطين لم يجد يعقوب بداً من الموافقة على رغبة أبنائه لإحضار «الميرة» أي الطعام من مصر برفقة أخيهم بنيامين ، وقد اشترط عليهم أن يعيدوه معهم ولا يتخلوا عنه أبداً إلا إذا عجزوا أو هلكوا جميعهم لا سمح الله .

---

(١) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٥٨ إلى رقم ٦٢ .

وهذه قراءة جديدة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منا الكيلُ فأَرْسِلْ معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون .

قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحمُ الراحمين .

ولما فتحوا متاعهم وَجدوا بضاعتهم رُدت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي (ما نطلب من الإحسان أكثر من ذلك؟) هذه بضاعتنا رُدت إلينا ونمير أهلنا (نجلب لهم الطعام من مصر) ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير .

قال لن أرسله معكم حتى تؤتونِ موثقاً (عهداً مؤكداً باليمين) من الله لتأتنني به إلا أن يُحاطَ بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ (١) .

وقبل أن يتحرك الموكب طلب يعقوب عليه الصلاة والسلام من أبنائه ألا يدخلوا معاً من باب واحد ، وإنما يوزعون أنفسهم على عدة أبواب ، وترى الدكتورة زاهية الدجاني أن دخول الإخوة كمجموعة مع ما عرف عن تكريم يوسف لهم مسبقاً ، وكان ولا بد أن يثير حسداً ضدهم ، فتنتج عن ذلك عواقب وخيمة ، وبهذا فالنصيحة لم تكن صادرة عن يعقوب من منطلق خوفه عليهم من الإصابة بالعين المجردة كما ظن بعض المفسرين الذين أدخلت بعض الإسرائيليات في كتبهم ، لأن هذا القول يتناقض مع الحقيقة القرآنية ، بل انبثقت من خوفه عليهم من الحسد الناتج عن العمل النابع من المحبة للاستئثار بالأشياء(٢) .

تقول اللوحة القرآنية في هذا الإطار :

---

(١) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٦٣ إلى رقم ٦٦ .

(٢) يوسف في القرآن الكريم والتوراة- مرجع سابق .

﴿وقال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (١) .

والتزم الإخوة بنصيحة أبيهم ، فدخلوا مصر من عدة أبواب ، ولما التقوا يوسف رحب بهم ، ثم اختلى بأخيه بنيامين ، فكشف له عن شخصيته قائلاً له :

أنا أخوك يوسف فلا تحزن على ما فعله أخوتنا بنا سابقاً ، والحمد لله الذي أنقذنا وأبعد الشر عنا ، وجمعنا بعد طول فراق .

ولكن : ما هي الخطوة التالية بعد هذه المفاجأة؟

قدر يوسف أن يحتفظ بأخيه عنده ، ولكن لماذا سيفعل ذلك وهو يدرك أنه بعمله هذا سيثير المزيد من أحزان أبيه؟

يجيب المفكر الإسلامي المعروف أحمد بهجت على ذلك السؤال بقوله : إن يوسف يتصرف بوحي من الله ، يريد الله تعالى أن يصل بابتلائه ليعقوب إلى الذروة ، حتى إذا جاوز به منطقة الألم البشري المحتمل وغير المحتمل ورآه صابراً رد إليه ابنيه معاً ورد إليه بصره (٢) .

ولكن . . كيف سيتصرف يوسف بدون أن يكشف أوراقه لإخوته؟

أمر موظفيه أن يضعوا خلسة الكأس الملكية المصنوعة من الذهب الخالص ، والتي تستعمل مكيالاً للغلال داخل الرحل المخصص لأخيه الصغير بنيامين تنفيذاً لتدبير ألهمه الله إياه . وعند اقتراب موعد المغادرة نادى مناد : يا أصحاب القافلة إنكم سارقون!

وعقدت الدهشة ألسنة الجميع ، وعرفوا أن صواع الملك مفقود ،

---

(١) سورة يوسف ، الأيتان ٦٧ و٦٨

(٢) أحمد بهجت- أنبياء الله- مرجع سابق

وأعلن المنادي بأن من يحضر الصواع سيكافأ بحمل بعير من الطعام مجاناً .

وأعلن إخوة يوسف أنهم أناس شرفاء ، ولم يأتوا لمصر كي يسرقوا ويفسدوا فيها . فأجابهم موظفو يوسف : سنعمد إلى تفتيش أمتعتكم ، وفي حالة عثورنا على الكأس مع أحدكم سنحتجزه عندنا .

وابتدأت مهمة التفتيش ابتداءً بأوعية الأخوة وانتهاء بوعاء بنيامين حيث وجدوها ضمن متاعه . ومن الملاحظ أن السياق القرآني- كما سنرى- ركّز على تدبير الله تعالى ورفع مكانة يوسف وميزه عن إخوته .

وفوجئ الأخوة تماماً بما رأوا بأم أعينهم ، وعلقوا على ذلك الموقف متبرئين من التهمة : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

واستاء يوسف من هذا التجني الذي ألصقوه به ، لكنه كظم غيظه ، وعلق قائلاً : إن الله أعلم بما يقولون عني .

وأدرك الأخوة أنهم سيرجعون حتماً إلى فلسطين بدون بنيامين . . وتذكروا العهد الذي قطعوه على أنفسهم أمام أبيهم ، لذلك عمدوا إلى استعطاف يوسف واسترحامه عسى أن يفرج عن أخيهم بنيامين ويحتجز أخاً آخر سواه . لكن يوسف استعاذ بالله من فعل ذلك فالمذنب لا بد أن ينال عقوبة ذنبه ، ولا يمكن معاقبة بريء على جريمة لم يرتكبها ، فلا تزر وازرة وزر أخرى .

وهنا اتخذ أخوهم الأكبر قراراً انفرادياً بالبقاء في مصر إلى أن يتلقى إذناً من أبيه أو يحكم الله تعالى بالخروج لأن حكم الله قائم على الحق والعدل .

وأوصى إخوته بنقل حقيقة ما رأوا إلى أبيهم . وإنهم قد شاهدوا عملية السرقة بأعينهم ، ويمكنه أن يتأكد من صحة هذه الواقعة من أهل العير الذين كانوا يرافقونهم في سفرهم .

وهذه قراءة متأنية في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿ولما دَخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوكَ فلا

تبتئس (لا تحزن) بما كانوا يعملون .

فلما جَهَّزهم بجَهازهمْ جَعلَ السِّقاية (إناء من ذهب للشرب اتخذ للكيل) في رَحْلِ أخيه ثم أذَّنَ مُؤذن أيتها العير (القافلة فيها الأحمال) إنكم لسارقون .

قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تَفقدون .

قالوا : نفقدُ صواعَ الملك (صاعه- مكياله- وهو السقاية) ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم (كفيل بتأديته) .

قالوا تا الله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين .

قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين .

قالوا جزاؤه من وُجِدَ في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين .

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلكَ كِدْنا ليوسف (دبرنا لتحصيل غرضه) ما كان ليأخذ أخاه في دين الملكِ (شريعة ملك مصر) إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم .

قالوا إن يسرق فقد سرقَ أخ له من قبل فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يُبدِها لهم قال أنتم شرٌ مكاناً والله أعلم بما تصفون .

قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين .

قال معاذ الله أن نأخذَ إلا من وَجدْنا متاعَنا عنده إنا إذاً لظالمون .

فلما اسْتيأسوا منه (يئسوا من إجابة يوسف لهم) خلصُوا نجيًّا (انفردوا متناجين متشاورين) قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثِقاً من الله ومن قبلُ ما فرطتم في يوسف فلن أبرحَ الأرضَ حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾[1] .

ورضخ الأخوة المحزونون للأمر الواقع . .

---

(١) سورة يوسف الآيات من رقم ٦٩ إلى رقم ٨٠ .

الفصل الخامس
التئام شمل الأسرة اليعقوبية في مصر

وعاد تسعتهم إلى فلسطين ، وأخبروا أباهم بتفاصيل ما حدث معهم ، فلم يقتنع نبي الله يعقوب بتهمة السرقة التي ألحقت بابنه بنيامين .

وتذكّر أحداث المكيدة التي دبروها ليوسف من قبل ، وقال لهم مصارحاً : بل سولت لكم أنفسكم أمراً . . وأردف ذلك بقولته الإيمانية العظيمة فصبر جميل وعسى الله أن يكرمني بمجيئكم جميعاً لأنه سبحانه يعلم مدى معاناتي وحزني عليهم ، حكيم بما يريد فعله ليخرجني من هول هذه المأساة التي أعيشها . .

وغلبه البكاء . . فبكى . .

وأجهش في البكاء . . وعاش والبكاء فترة زمنية لا يعلمها إلا الله تعالى حتى ابيضت عيناه من شدة الحزن على ولديه . ولسان حاله يقول :

لم يُخلق الدمع لامرئ عبثاً
الله أدرى بلوعة الحزن

ولما حذره أبناؤه من الهلاك إذا استمر في بكائه وحزنه ، أجابهم بأن دموعه تعني شكواه إلى الله تعالى وهو يعلم من الله تعالى ما لا يعلمون .

تقول اللوحة القرآنية معبرة عن هذا الحال البئيس :

﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدْنا إلا بما عَلِمْنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير (القافلة) التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون . قال بل سولَّتْ (زينت) لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو

العليم الحكيم . وتولى عنهم (ابتعد) وقال يا أسفى (يا حزني الشديد) على يوسف وابيضت عيناه (أصابتهما غشاوة فابيضتا) من الحزن فهو كظيم (ممتلئ غيظاً أو حزناً ويكتمه) . قالوا تا الله تفتأ (لا تفتأ بمعنى لا تزال) تذكر يوسف حتى تكون حرضاً (تصير مريضاً مشرفاً على الهلاك) أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثي (منتهى غمي وهمي) وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾[1] .

إن قلب المؤمن دليله ، وكان قلب يعقوب يشي بوجود يوسف وبنيامين في مكان ما ، وفي وقت ما . . وأنه سيلتقي بهما . . لذلك نراه يطلب من أولاده أن يذهبوا ويستقصوا ويبحثوا عنهما . . ولا ييأسوا أو يقنطوا من رحمة الله لأن المؤمنين لا يقنطون من رحمة الله تعالى .

واستجاب الأبناء لرغبة أبيهم . . وذهبوا إلى مصر بهدف التزود بالطعام والبحث عن يوسف ، والاطمئنان على بنيامين . .

ودخلوا على يوسف وهم في حالة يرثى لها من البؤس والفقر والقهر . . وكانوا يحملون معهم بضاعة رديئة لمقايضتها بالحبوب والغلال ، وشكوا إليه سوء حالهم فأشفق عليهم ، ووجد أن الوقت قد حان ليكشف لهم عن هويته ، ولكنه قبل أن يخطو هذه الخطوة عاتبهم على ما فعلوه فيه وفي أخيه ، وهنا أفاق الأخوة من غفوتهم . . فسألوه : هل أنت يوسف؟ فأجابهم بنعم ، وأُسقط في أيديهم واعترفوا بذنبهم ، وندموا ندماً شديداً ، وأقسموا له بأن الله قد فضله عليهم لأنه على صواب . . والتفضيل هنا يشمل العلم والحلم والعقل والجمال الخلقي وما شابه ذلك من فضائل .

تقول اللوحة القرآنية معبرة عن هذه الصور :

﴿يا بَنِيَّ (يا أبنائي) اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف (تعرفوا من خبره) وأخيه ولاَ تيأسوا من روْح الله (رحمة الله وفرجه) إنه لا ييأس من روْح

---

(١) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٨١ إلى رقم ٨٦

الله إلا القوم الكافرون . فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسّنا (أصابنا) وأهلنا الضر (الهزال من شدة الجوع) وجئنا ببضاعة مزجاة (رديئة كاسدة) فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إن الله يجزي المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ (تفضل) الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين . قالوا تا الله لقد آثرك الله علينا (اختارك وفضلك علينا) وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم (لا تأنيب ولا لوم عليكم) اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ (١) .

وبلفتة مفاجأة ينتقل يوسف لأبيه ، فقد سوى الأمر مع إخوته ، وجاءت تسوية الأمر مع أبيه الذي ابيضت عيناه حزناً عليه ، وألماً لفراقه .

. . . .

وها هو القميص يعود مرة ثالثة وأخيرة إلى الواجهة . .

لكنه في هذه المرة سيكون وسيلة لغاية عظيمة ، مجرد وسيلة لا أكثر ولا أقل ، خلع يوسف قميصه وسلمه لهم مع رسالة شفوية عاجلة ستكون نتيجتها حاسمة على مسرح هذه القصة . . وخاتمة سعيدة لفصولها .

وصور الحق تبارك وتعالى هذه الرسالة في الأمر التالي :

﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، وائتوني بأهلكم أجمعين﴾ (٢) .

وذكر صاحب «التفسير الكبير» تصوره لتفسير هذه الآية الكريمة :

قال المحققون : إنما عرف (يوسف) ان إلقاء ذلك القميص على وجهه

---

(١) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٨٧ إلى رقم ٩٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية رقم ٩٣ .

(يعقوب) يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى . ولولا الوحي لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه ، ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى ، إلا من كثرة البكاء ، وضيق الصدر أضعف بصره فإذا ألقى عليه قميصه فلا بدّ أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد ، وذلك يقوي الروح ، ويزيل الضعف عن القوي ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان ، فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فإن القوانين الطبية تدل على صحة المعنى[1] .

ولا ريب أن عودة البصر إلى عيني يعقوب بمجرد إلقاء قميص يوسف على وجهه من دلائل نبوة يوسف ، ومن المعجزات الكبرى في سير الأنبياء .

وعودة إلى فلسطين مرة أخرى . . .

فلقد انصاع أخوة يوسف لأوامره . . وبمجرد مفارقة القافلة لمدينة العريش بصحراء سيناء توهج قلب يعقوب ، وسطعت فيه شموس الأمل والرجاء ، فقال لمن حوله من الأحفاد وأهل البيت : لولا خشيتي من استهزائكم لرأيي لقلت لكم إني أشم رائحة يوسف الزكية تهب علينا ، وإني أتوقع رؤيته بين لحظة وأخرى . .

وحدث ما توقعه من استهزاء وتسفيه ، بل وعلق عليه بعضهم قائلاً إنك ما زلت على أوهامك القديمة .

لكن فرج الله- كالعادة- كان قريباً . فبمجرد أن ألقى أحد الإخوة القميص على وجه أبيه صيره الله بصيراً ، فارتد إليه بصره . . وانشرح صدر يعقوب انشراحاً لا مثيل له ، وقال لبنيه معلقاً : ألم أقل لكم مراراً أنني كنت أعلم من الله ما لا تعلمون ، وإنني كنت واثقاً بأن الله سيجمعني به ولو بعد حين .

تقول الآيات القرآنية معبرة عن هذا المعنى :

---

(١) الفخر الرازي- الجزء السابع عشر- ص ١٩٠- دار التراث العربي- بيروت .

﴿ولما فَصَلَتْ العير (فارقت القافلة عريش مصر) قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدونِ (تسفهوني) . قالوا تا الله إنك لفي ضلالك القديم (بُعدك عن الصواب) . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾[1] .

ومثلما اعترف الأخوة واعتذروا ليوسف عن أخطائهم ، اعترفوا أيضاً بذنوبهم لأبيهم واعتذروا له ، ورجوه أن يستغفر لهم الله عز وجل .

قال جل جلاله :

﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كُنَّا خاطئين . قال سوف أستغفرُ لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾[2] .

وعود أحمد إلى الديار المصرية العامرة . . حيث تفاصيل المشهد الأخير في قصة يوسف . . أحسن القصص في القرآن الكريم .

انطلقت قافلة الخير والرحمة من فلسطين إلى مصر . . وكانت تضم كل أولاد يعقوب وأحفاده ومرافقيه . . . سافروا في موكب واحد . ودخلوا الديار المصرية بدون تأشيرات دخول ، وبدون جوازات سفر ، وبدون تفتيش ذاتي أو غير ذاتي وأيضاً بدون إجراءات جمركية .

وعندما دخلوا على يوسف رحب بهم ، ورحبوا به ، واختلطت الدموع بالابتسامات ، والعبرات بالقبلات . . وضم يوسف أبويه إليه ، وطمأنهم بالإقامة الدائمة السعيدة في مصر إن شاء الله . . وقال قولته المشهورة : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

وزيادة في إكرام وحب أبويه رفعهما إلى العرش وسجد له أبوه وأمه وأخوته الأحد عشر وكان ذلك جائزاً في شريعتهم ، وقال يوسف لأبيه معلقاً على ذلك : هذا هو تأويل رؤياي التي رأيتها في منامي وقصصتها

(١) سورة يوسف ، الآيات من رقم ٩٤ إلى ٩٦ .

(٢) سورة يوسف ، الآية رقم ٩٧ ، ٩٨ .

عليك عندما كنت فتى يافعاً . وقد حقق الله تعالى هذه الرؤيا على أرض الواقع . كما أن الله جل جلاله زاد في إكرامي فأخرجني من السجن وجعلني أميناً على خزائن الديار المصرية ، وجاء بكم من البادية الفلسطينية لتطلبوا المؤونة من مصر ، وذلك حتى نلتقي معاً بعد أن فرق الشيطان بيني وبين اخوتي ، وهذا فضل عظيمٌ من ربٍ العالمين . وصدق في قوله المحكم : ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ .

تقول اللوحة القرآنية الأخيرة في السورة اليوسفية :

﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفَع أبويهِ على العرش وخَرُّوا له سُجَّداً (كان ذلك جائزاً في شريعتهم) وقال يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ قد جَعلها ربي حقًا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو (البادية) من بعد أن نزغ الشيطانُ (أفسد وحرّش) بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم . ربٍّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفَّني مسلماً وألحِقْني بالصالحين﴾ [(١)] .

وبرغم المحن المتتالية التي تعرض لها يوسف عليه الصلاة والسلام إلا أنها لم تزده إلا إيماناً ويقيناً وثقة بنصر الله تعالى . مثله في ذلك مثل أبيه . . فأثناء وجود يوسف في السجن لم يتوان ولم يفتر في الدعوة إلى عبادة الله الواحد القهار ، وقد كان لإيمان يوسف واستقامته وتطبيقه العملي لما كان يدعو إليه أثر واضح في نجاح دعوته ، ولعل امرأة العزيز كانت في طليعة من آمنوا برسالة يوسف . فقد اعترفت أثناء التحقيق الأخير معها ، بأنها قد أخطأت لكنها تابت إلى الله .

﴿وما أُبرىء نَفسي إن النفس لأمارةٌ بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي

(١) سورة يوسف الآيات من رقم ٩٩ إلى رقم ١٠١ .

غفور رحيم﴾ . ويقال إن فرعون مصر أسلم على يد يوسف ولا شك أن هناك أناساً آخرين آمنوا على يديه .

وأخيراً فمن لطائف التفسير التي أوردها «الفخر الرازي» مُدَلِّلاً على نزاهة يوسف وعصمته وبراءته من (الهمّ) الذي زعمه بعض الجهلة :

١- إن يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته بقوله جل وعلا ﴿كذلك لنصرف عنه السوءَ والفحشاءَ ، انه من عبادنا المخلصين﴾ .

٢- وشهد ببراءته الشاهد من أقرباء امرأة العزيز ، قال تعالى : ﴿وشهد شاهد من أهلها إنْ كان قميصه قُدَّ من قُبُل . . .﴾ الآية .

٣- وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن . قال تعالى : ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء . . .﴾ الآية .

٤- وشهد ببراءته زوجة العزيز بقولها : ﴿الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين . . .﴾ .

٥- وشهد ببراءته الشيطان الرجيم بقوله : ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . .﴾ .

فالذي يريد أن يتهم يوسف بـ«الهمّ» عليه أن يختار أن يكون من حزب الله ، أو من حزب الشيطان ، وكلاهما شهد ببراءة يوسف ، فلا مفرّ إذن من الإقرار بالحق على أية حال ، وهو براءة يوسف عليه السلام من الهمّ بامرأة العزيز .

ولكن ماذا حدث ليوسف بعدئذ؟

لم يتعرض القرآن الكريم للإجابة عن هذا السؤال ، لكن أهل الكتاب ذكروا أنه عندما حضرت يوسف الوفاة أوصى أن يدفن عند آبائه بفلسطين ، فحنطوه ووضعوه في تابوت ، فظل بمصر حتى أخرجه موسى معه فأمر بدفنه عند آبائه .

وقد كان عمره عندما مات مائة سنة وعشر سنين ، وقيل مائة سنة وعشرين سنة .

وذكر ذلك أيضاً ابن جرير الطبري ، وأضاف مستطرداً : أُلقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة[1] .

أما على أرض الواقع المعاصر فيعتقد أن قبر يوسف عليه الصلاة والسلام موجود اليوم في مدخل مدينة نابلس كبرى مدائن الضفة الغربية الفلسطينية . جدير بالذكر أن منطقة القبر هي الوحيدة التي لم ينسحب منها الجيش الإسرائيلي عند تطبيق اتفاقية الحكم الذاتي الفلسطيني في نابلس في شهر ديسمبر من عام ١٩٩٥م .

هذا وقد شهدت منطقة القبر اشتباكات دموية واسعة النطاق إبان انتفاضة الأقصى الثانية التي أعقبت زيارة مجرم الحرب الصهيوني أريل شارون زعيم كتلة الليكود للحرم القدسي الشريف في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٠ .

وتوجد ضمن منطقة الضريح مدرسة تلمودية إسرائيلية لأكثر المستوطنين اليهود تطرفاً . وقد حولوا نطاق القبر إلى مكان للعبادة والحج .

والمسلمون بدورهم يعتبرون ضريح يوسف من الأماكن الدينية الجديرة بالاحترام والتقدير ، وهم يقدسونه قبل أن يقدسه اليهود ، لأن قبر يوسف كما ذكر الكاتب اليهودي «يهو شاع فورات» لم يكن قائماً في الوعي التاريخي اليهودي حتى عام ١٩٦٧م .

ولم يتوجه أحد من اليهود للحج إليه ، ولم يكن القبر أيضاً رمزاً للتضامن ، صحيح أن اليهود وافقوا في السابق على التقليد الإسلامي بشأن قدسية قبر يوسف ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً أكثر من ذلك .

ويتابع الكاتب اليهودي قوله : قد يكون السبب هو أن شخصية

---

(١) ابن كثير- قصص الأنبياء- مرجع سابق .

يوسف لم تحتل مكاناً هاماً في الذاكرة التاريخية اليهودية ، وهو لا يعتبر أحد آباء الشعب اليهودي ، وليس قديساً وليست له أهمية وطنية . وهو بالنسبة للأغلبية العظمى من اليهود لم يكن أكثر من منجم كان يعمل في قصر فرعون![1]

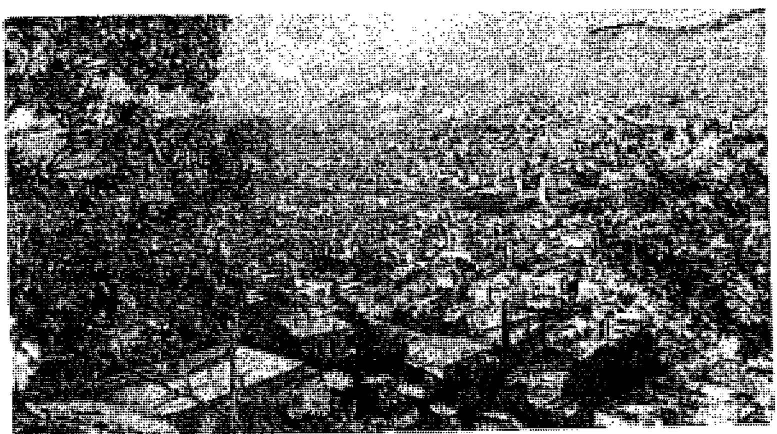
....

في نهاية هذه الجولة الممتعة في الرحاب اليوسفية يراودني سؤال- غير بريء- ويلح على خاطري ، فلقد ارتكبته امرأة العزيز- قبل أن تسلم- خطأً أخلاقياً فادحاً قابله يوسف بالصمود والصد والتصدي ، فهل كانت زليخة نسيج وحدها في خوائها الروحي والأخلاقي؟ أم أن لها أشباها وأمثالاً في كل زمان ومكان؟!

....

وسلام الله وبركاته على يوسف الصديق . . .

العاشق لدينه ، الداعي لعبادة ربه ، الصابر المحتسب ، المحافظ على شرفه ، الواثق بفرج ربه .



منظر عام لمدينة نابلس

(١) جريدة الراية القطرية ، ٨ يناير ١٩٩٦ .

الباب السابع

نبي الله داود

الفصل الأول
داود قارئ أهل الجنة

هذا نبي كريم من طراز فريد . .

آتاه الله تعالى كثيراً من النعم والفضائل وكثيراً من المعجزات وجعله خليفته في أرض بيت المقدس . وهو عليه الصلاة والسلام أول نبي آتاه الله الحكم والنبوة في وقت واحد . . أي أنه جمع بين خيري الدنيا والآخرة .

وكذلك ابنه سليمان عليه السلام الذي ورث عن أبيه أيضاً الحكم والنبوة . . أي أنه- كأبيه- جمع بين خيري الدنيا والآخرة .

ولكن قبل أن نخوض في سيرة داود سنلتفت وراءنا قليلاً لنضع بعض النقاط على بعض الحروف . . حتى تستطاع القراءة الميسرة في سيرته .

. . . .

فبعد موت موسى عليه الصلاة والسلام جاء بعده أنبياء كثيرون لا يعرف إلا الله وحده عددهم وهوياتهم .

وروى أبوهريرة عن النبي ﷺ أنه قال :

«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي . . .» .

وبعد غزو بني إسرائيل لفلسطين بقي الإسرائيليون نحو ست وخمسين وثلاثمائة سنة يسوسهم قضاة لا ملوك .

وقد تعرضوا في تلك الأثناء لهجمات العمالقة العرب- كالفلسطينيين والآراميين- وكانت الحروب سجالاً بينهم ، فتارة يغلبهم اليهود ، وتارة ثانية يغلبون اليهود ، ونشطت همم الأنبياء في تلك الفترة بتقديم النصائح والإرشادات للقضاة والحكام اليهود ، وفي بعض

الأحيان كان بعض الأنبياء يقوم بمهمة القضاة .

لكن أنبياء بني إسرائيل لم يظفروا باحترام وتقدير الإسرائيليين خاصة بعد وفاة موسى عليه الصلاة والسلام فعذبوهم ، واضطهدوهم ، وأساءوا إليهم إساءات لا يمكن لعقل راجح أن يتصورها . وتلك مسلسلات طويلة لها وقتها .

لكننا نشير إلى أن سوء معاملة الإسرائيليين لأنبيائهم انعكس أيضاً على معاملتهم للتوراة ذاتها فقد تحولت في أيديهم إلى قراطيس وأوراق متفرقة ومتناثرة يظهرون بعضها إذا كان ذلك في مصلحتهم ، ويخفون أكثرها إذا لم يكن في مصلحتهم .

وقد أدانهم الله تعالى في سورة الأنعام بقوله :

﴿وما قدروا الله (عرفوه) حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . ﴿قل مَنْ أنزل الكتاب (التوراة) الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس (أوراق متفرقة) تُبدونها (تظهرونها) وتُخفون كثيراً ، وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم وآباؤكم قل الله ثم ذرهم (اتركهم) في خوضهم (باطلهم) يلعبون﴾ (١) .

وتمادى بنو إسرائيل في غرورهم وضلالهم ، فظلموا أنفسهم بأنفسهم ، وزين لهم الشيطان بأنهم أنقى وأطهر شعوب العالم (!) وزعموا أنهم استحقوا أن يكونوا شعب الله المختار ، وتوهموا أنهم- ما داموا يتمتعون بتلك الميزة- فلهم الحق في عمل أي شيء ، واستباحة أي شيء ، ولم تتوقف جرائمهم عند تكذيب رسلهم والتشكيك في رسالاتهم ، بل عمدوا إلى قتل بعض أنبيائهم بغير حق ، ومن ضمنهم زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام .

قال تعالى كاشفاً جرائمهم :

---

(١) سورة الأنعام ، الآية رقم ٩١

﴿فبما نَقْضِهِمْ (بسبب نقضهم) ميثاقَهم وكُفْرهم بآياتِ الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف (مغطاة) بل طبعَ اللهُ عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ (١) .

ولسنا في مجال الحديث عن إساءاتهم الكبرى إلى الذات الإلهية وتطاولهم على الحق تبارك وتعالى ، واتهامهم له جل جلاله بالعديد من الأباطيل والتخرصات ومن ضمنها أن يده مغلولة ، كناية عن بخله بينما امتدحوا أنفسهم بأنهم أغنياء!!

وقد سلط الله عليهم من ينتقم منهم ، ويسفك دماءهم ، تارة من بين جلدتهم وتارات أخرى من أعدائهم :

وما يدٌ إلا يد الله فوقها
ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

وورد في «قصص الأنبياء» أن العبرانيين دخلوا في حرب مع الفلسطينيين- سكان أشدود (مدينة أسدود) بالقرب من غزة ، وقد أخذ بنو إسرائيل معهم تابوت العهد ، وهو التابوت الذي فيه التوراة أي الشريعة ، ليستنصروا به فغلبهم الفلسطينيون وأخذوا تابوت العهد ودخلوا به إلى بيت داجون إلههم «وهو رأس إنسان على جسم سمكة» وكانت هزيمة بني إسرائيل عظيمة وذلهم شديداً (٢) . .

وقد قدَّر الله وشاء أن يضيع التابوت من أيديهم عقاباً لهم على جرائمهم وتطاولهم على حقوق الله وعلى حقوق أنبيائه . وكانوا يعتزون بوجود هذا التابوت معهم وخاصة أثناء الحرب بينهم وبين خصومهم لأنه كان يمدهم بالسكينة والطمأنينة والثقة بالنفس ومن ثم النصر بعدئذ ، لكنهم عندما حرروا أنفسهم من الالتزام بالتعاليم التوراتية

---

(١) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٥٥

(٢) عبدالوهاب النجار- قصص الأنبياء- مرجع سابق

الحقيقية لم يعد هناك مبرر لوجوده عندهم وبقائه في حوزتهم .

ويقال أن ذلك التابوت كان يضم بين جدرانه الخشبية ألواح التوراة الحقيقية التي أنزلها الله تعالى على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام ، إضافة إلى بقايا بعض وصايا هارون عليه الصلاة والسلام .

وقد كان النظام السياسي في بني إسرائيل أن يجعل الله فيهم رسولاً من أحد فروعهم وهم «الأسباط» ، ويجعل عليهم ملكاً يدير شؤونهم الحياتية وينظمها ، وبحثوا عن من ينتشلهم من وهدتهم ، ويقيل عثرتهم ، ويصحح مسارهم .

فطلبوا من أحد أنبيائهم الكثر ويدعى «شمويل» وقيل أنه ذو الكفل أن يعين عليهم ملكاً أو قائداً يختاره حسب معرفته فيتولى قيادتهم ويتحمل مسؤولية المعركة القادمة التي سيخوضونها مع أعدائهم العماليق .

وكان «شمويل» أو ذو الكفل بصيراً بنفوس بني جلدته . وما انطوت عليه من جبن وخور ومذلة ، فواجههم مواجهة صريحة وشجاعة قائلاً لهم : إنني أخشى إذا كتب عليكم القتال أن تجبنوا عنه وتتقهقروا فلا تقاتلون ولا تلتزمون بأعباء الجهاد في سبيل الله .

وحاول الإسرائيليون الدفاع عن أنفسهم قائلين : إن كافة مقومات الجهاد متوافرة فيهم ، وليس هناك أي مسوغ يسوغ لهم التراجع والتكاسل عن القتال في سبيل الله ، خاصة وأنهم أصحاب الحق بعد أن شردهم أعداؤهم من ديارهم ومواطنهم .

وأوضح لهم نبيهم «شمويل» أن الله تعالى بعث إليهم ملكاً ممتازاً اسمه «طالوت» (١) وأنه سيحقق أمانيهم في الانتصار على أعدائهم

(١) اسمه الحقيقي «صموئيل شاءول» وهو آخر القضاة ولما صار ملكاً عليهم قادهم في معارك ضارية ضد من حولهم وكان داود واحداً من جنوده وسنرى لاحقاً أنه تغلب على جالوت قائد الفلسطينيين ومنذئذ برز نجم داود كقائد له أهميته ، ثم أصبح الملك الثاني فيهم ، وقد بقي المُلك في أولاده وراثياً .

كما أنه يتمتع بالعديد من الصفات العظيمة التي تؤهله لتحمل تلك المسؤولية .

ولكن ذلك الاختيار لم يرق لهم ولم يعجبهم . متذرعين بمعرفتهم المسبقة بالإمكانات المتواضعة جداً لطالوت فهو أقل منهم فهماً وإدراكاً وهو دون مستواهم ، وهم أحق بتحمل مسؤولية القيادة منه . كما أنه رجل عادي لا يمتلك أموالاً طائلة وعظيمة تجعلهم يتغاضون عن عيوبه وتقبل قيادته لهم ، ويفرض عليهم احترامه وتقديره!

هذا هو مقياسهم المختل . . .

واستاء «شمويل» من أقوالهم ، وأوضح لهم أن الله تعالى أعلم فهوسبحانه واسع المعرفة والعلم وأنه يؤتي ملكه من يراه أهلاً لذلك .

وما دام الأمر كذلك فليس لهم حق الاعتراض على الإرادة الإلهية ، خاصة وأن الله تعالى أنعم على طالوت فوهبه كافة المؤهلات التي تؤهله للانتصار على الأعداء ، فقد منحه العلم والخبرة والحنكة في الشؤون العسكرية ، إضافة إلى البنية الجسمية القوية ، والجمال الخلقي الواضح .

وقد دغدغت هذه المعلومات المفيدة عواطف بني إسرائيل ، لكنها لم تتجذر في عقولهم وقلوبهم ، فطلبوا من «شمويل» أن يأتي لهم بدليل ملموس يدل على صدق أقواله ، وصحة وعوده .

فقال لهم : إن الله وعدني أن يعيد إليكم التابوت حالاً . . وبالفعل- جاءت الملائكة بالتابوت ، وهنا فقط صدقوا وآمنوا . . واستبشروا بالنصر المبين .

وتسلم طالوت مسؤولية القيادة ، وشرع على الفور في بناء قاعدة عسكرية قوية يستطيع بها مواجهة خصمه «جالوت» . الذي كان يتمتع هو الآخر بقاعدة عسكرية عالية الكفاءة ، ولا يمكن الاستهانة بقدراتها القتالية المتقدمة ، وقد ارتكزت هذه القاعدة على جيش قوي ، وسلاح

فتاك .

ولم تكن القوتان متكافئتين . . .

لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يمنحهم فرصة للنجاح في الاختبار ، ويعرف مدى قدرتهم على تنفيذ أوامره ، والعمل على طاعته ومن ثم طاعة طالوت في التنفيذ أيضاً .

قال لهم قائدهم طالوت قبل بداية التوجه بهم إلى ميدان المعركة : ها نحن في طريقنا لخوض غمار المعركة الفاصلة مع أعدائنا ، لكن الله تعالى سيمتحنكم بنهر الشريعة أو نهر الأردن تصادفونه في طريقكم ، وهو تعالى أعلم بأمركم ولكنه سيختبركم وأنتم في شدة عطشكم وأنتم تجتازون هذا النهر ، وعليكم تنفيذ ما يلي :

أولاً : أثناء اجتيازكم لهذا النهر محظور عليكم أن تشربوا من مائه ، ومن يخالف هذا الأمر فهو ليس من أهل الله المؤمنين .

ثانياً : من يشتد به الظمأ ، وأراد أن يسكن ظمأه مجرد تسكين فقط فعليه أن يغترف بيده غرفة واحدة ويبل بها ريقه .

ووافقوا على هذه التعليمات . .

لكنهم اختلفوا في تنفيذها على أرض الواقع . .

كان الجو شديد الحرارة ، والمسافة بعيدة ، وعندما بدأ الامتحان ، شرب القوم على قدر إيمانهم . .

الكفار والمنافقون صاروا يشربون ويعبون من النهر عباً ، ولكنهم لا يرتوون أبداً . .

أما المؤمنون فقد التزموا بتنفيذ التعليمات بدقة متناهية .

الفصل الثاني
انتصار داود على جالوت

الأكثرية هي التي تمردت على أوامر الله فشربت كثيراً وظمئت كثيراً . . والأقلية هي التي التزمت بأوامر الله ، فشربت قليلاً وارتوت كثيراً . .

ولما اقترب الجيشان من بعضهما البعض ، وأوشكت الحرب أن يشتعل فتيلها ، دب الجبن والخور في بعض جنود طالوت ، وأصابهم اليأس والقنوط حينما شاهدوا كثرة أعداد جيش جالوت المعادي ، وقالوا بكل صفاقة :

ليست لنا قدرة على مواجهة أعدائنا وعلينا الانسحاب من الميدان هرباً من الموت المحقق الذي ينتظرنا ويترصدنا .

لكن القلة المؤمنة الواثقة من إيمانها ومن نصر الله لها رفضت ذلك المنطق الانهزامي وقال رجالاتها المؤمنون : إن الأعداد الكثيرة ، والأعتدة الوفيرة ليستا مقياساً دقيقاً يمكن الاعتماد عليه في تحقيق النصر أو إنزال الهزيمة بالطرف الآخر ، فكم من فئة قليلة مؤمنة غلبت فئة كثيرة كافرة بإذن الله ، والله مع الصامدين الصابرين . أما بالنسبة لعدد المتحاربين فقد كان عدد الذين عبروا مع جالوت مثل عدد المؤمنين في غزوة بدر ثلاثمائة وبضعة عشر مؤمناً ، وعدد المشركين يزيد على ألف .

ولنتدبر تفاصيل اللوحة القرآنية المعبرة عن هذا الموقف :

﴿ألَمْ تر إلى الملأ (وجِهاء القوم) من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعثْ لنا مِلكاً نقاتلِ في سبيل الله قال هل عَسيتُم (قاربتم) إن كُتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتلِ في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كُتبَ عليهم القتالُ تولوا إلا قليلاً منهم واللهُ عليم بالظالمين .

وقال لهم نبيُّهم إن اللهَ قد بعثَ لكم طالوتَ ملكاً قالوا أنّى (كيف) يكونُ له الملك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يُؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزادهُ بَسْطَةً في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء واللهُ واسعٌ عليم .

وقال لهم نبيهم إن آية مُلكِه (علامة) أن يَأتيكُمُ التابوت (صندوق التوراة) فيه سكينة (طمأنينة) من ربكم وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هارونَ تحمله الملائكةُ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين .

فلمّا فَصَلَ طالوتُ (انفصل عن بيت المقدس) بالجنود قال إن الله مُبْتَليكم بِنَهرٍ فمن شربَ منه فليسَ مني ومن لم يَطْعَمْهُ فإنه مني إلا من اغترف «أخذ» غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزهُ هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة «لا قوة» لنا اليوم بجالوتَ وجنوده قال الذينَ يظنونَ أنهم ملاقو الله كم من فئةٍ قليلةٍ غَلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (١) .

بروز شخصية داود

هذا ، وقد جرت العادة قديماً أن تبدأ المعارك بالمبارزة الشخصية بين محاربين اثنين من كلا الطرفين .

وقف جالوت بكل صلفه وجبروته ، وبكل الضجيج الإعلامي الذي انتشر عن بطولته وشجاعته . . في طرف الكفار .

وأعلن «طالوت» بين جنوده المؤمنين أن من يتصدى لقتال جالوت وقومه وينتصر عليه فسيكافئه مكافأتين إحداهما مكافأة نقدية سخية والثانية مكافأة مادية تؤهله بالزواج من ابنته ومصاهرته .

(١) سورة البقرة ، الآيات من رقم ٢٤٦ إلى ٢٤٩

وانبرى للمبارزة فتى قصير القامة نحيف الجسم ، أزرق العينين ، طاهر الأصغرين يدعى داود بن يسَّى . وقال لقائده بكل بسالة : أنا كفيل به بإذن الله .

ولم يكن داود يحمل مؤهلاً علمياً أو عسكرياً يؤهله لمثل تلك المواجهة غير المتكافئة ، ولكنه كان يحمل مؤهلاً إيمانياً عميقاً يؤهله للانتصار في تلك المواجهة المتكافئة في نظره .

وكان يحمل مؤهلاً ثانوياً تمثل في خبرته التقليدية باستعمال المقلاع إضافة إلى عدة أحجار صوانية لا ينفجر ماؤها .

وتم الإعلان رسمياً عن بدء المبارزة . . جالوت عن جبهة الكفر . . وداود عن جبهة الإيمان .

وأدار داود مقلاعه عدة دورات في الهواء وقال : باسم الله أرمي . . وباسم الله أصيب . . وما هي إلا لحظات وإذا بالحجر المبارك يشج رأس جالوت ، وإذا بدم جالوت ينهمر ، وبروحه تزهق . . وصاح داود فرحاً : الحمد لله ، ثم انقض عليه واستولى على سيفه مزهواً به . وكانت بداية غير سعيدة لفئة الكفر والطغيان . . وقد سكنت طيور الشؤم في قلوب أفرادها جميعاً[1] .

وهذه قراءةفي اللوحة القرآنية المعنية :

﴿ولما برزوا لجالوتَ وجنوده قالوا ربنا افرغْ علينا صَبْراً وثبتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتلَ داودُ جالوتَ وآتاه الله الملكَ والحكمةَ وعلَّمهُ مما يشاء ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدتْ الأرضُ ولكنَّ اللهَ ذو فضل على العالمين» . (أي لولا إقامة الملوك والرؤساء حكاماً على الناس لأكل القوي من الناس الضعيف) ﴾[2] .

---

(١) احمد بهجت ، أنبياء الله ، مرجع سابق .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان رقم ٢٥٠ و٢٥١

فلما انتهت أوزار الحرب أوفى طالوت بوعده ، فزوج ابنته لداود ، وعينه قائداً للجيش ، وصار داود أبرز شخصية قيادية بعد شخصية طالوت ، ونظر الناس إليه بكل المهابة والتقدير .

لكن داود لم يعبأ كثيراً بهذه المظاهر الدنيوية الزائلة ، وأرجع كل فضل ناله إلى الله ، فصار يسبح الله ويشكره بصوته الملائكي الحنون الذي وهبه الله له .

وزاده الله من فضله . . مصداقاً لقول الحق : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزيدَنكم﴾ .

فتم تعيين داود ملكاً على مملكة بيت المقدس بعد وفاة طالوت .

وامتلأت أفئدة الناس بحب الملك داود لأنه أرسى قواعد العدل والمساواة بينهم ، وأفاض الله على المملكة بفيوض من خيراته وبركاته . . وزاد داود من تسبيحه لله . . وشكره له تعالى . . فهو سبحانه المنعم في الأول والآخر والظاهر والباطن . . .

زاده الله فضلاً وبركة . . وأفاء عليه بنعمة لا حدود لفضلها . . فقد اصطفاه الله تعالى نبياً لهداية بني إسرائيل ، وأنزل عليه «الزبور»(١) .

وقال تعالى مؤكداً ذلك في سورة الإسراء :

﴿ . . ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا﴾(٢) .

وهكذا أكرم الله نبيه داود أيما إكرام فحمل مسؤولية النبوة والملك معاً ، وكان يخصص كثيراً من وقته لقراءة الزبور ، وكان فريداً في قراءته وجمال صوته ، منحه الله صوتاً آسراً يأسر القلوب ، ويهز المشاعر ،

---

(١) الزبور كتاب يشتمل على حكم ونصائح ومواعظ وأناشيد وتحميد وتمجيد ، وليس فيه أية أحكام شرعية ، وهو مقدس عند اليهود مثل التوراة ويسمى الزبور عند أهل الكتاب «المزامير» وعددها مائة وخمسون مزموراً ، وليست كلها لداود عليه السلام .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية رقم ٥٥

ويهدهد العواطف ، ولم يكن الناس وحدهم يطربون لسماع صوته ، بل طربت له أيضاً الجن والوحوش والطيور والكائنات جميعها ، بل كان الريح الشديد يسكن احتراماً ، والماء المتحرك يركد خشوعاً .

وأضحى صوت داود الرخيم مضرباً للمثل ، حتى ليقال للمتمتع بحسن الصوت : لقد أعطاه الله مزماراً من مزامير داود .

حتى الجبال بضخامتها كانت تسبح مع داود ، والطيور بكثرتها حشرت له وسبحت معه .

قال الحق جل جلاله موضحاً تلك اللوحة في سورة «ص» :

﴿واذكرْ عبدَنا داودَ ذا الأيد (صاحب القوة في الدين) إنه أوّاب (رجّاع إلى الحق) . إنّا سخّرنا الجبالَ معه يُسَبِّحْنَ بالعَشيِّ والإشراق (صباحاً ومساء) . والطيرَ محشورة كُلٌّ له أوّاب . وشدَدْنا مُلكَه (قويناه) وآتيناه الحكمة (النبوة) وفصل الخطاب (ما به الفصل بين الحق والباطل﴾ (١) .

وقال تعالى أيضاً في سورة «سبأ» :

﴿ولقدْ آتينا داودَ منا فَضْلاً يا جبال أوّبي معهُ والطير (رجّعي معه بالتسبيح﴾ (٢) .

وعرف عن نبي الله داود عليه السلام أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . وقد قال رسولنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم :

«أفضل الصيام صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً ، وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ، ويبكي ببكائه كل شيء ، ويشفي بصوته المهموم والمحموم» .

وعرف عنه عليه السلام أنه كان يأكل من عمل يده فقد كان يعمل

---

(١) سورة «ص» الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٠

(٢) سورة سبأ من الآية رقم ١٠

سفائف الخوص بيده ، ويقول لجلسائه : أيكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشعير من ثمنها .

وقال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكلَ من عمل يده ، وإنَّ نبيَّ الله داودَ عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[1] .

كذلك وهبه الله المقدرة على تطويع الحديد بسهولة تامة ، وكانت قطعة الحديد تتشكل بين يديه كما يشاء وكأنها قطعة عجين .

واستثمر هذه الفرصة فصنع دروعاً حديدية كان أول من ابتكرها في شكلها المتين المتطور .

قال الحق تبارك وتعالى في هذا الشأن :

﴿وألنّا (طوعنا) له الحديد أن اعمل سابغات (دروعاً كاملة) وَقَدِّرْ في السرد (أحكم صنعتك) واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾[2] .

---

(١) رواه البخاري ٤/٢٥٩ .

(١) سورة سبأ ، جزء من الآية العاشرة ، والآية رقم ١١ .

الفصل الثالث
زيادة أفضال الله على داود

من بين أعظم المنح التي منحها الله تعالى لنبيه داود أن وهبه ابناً أسماه «سليمان» ، وقد ورث سليمان من أبيه الكثير الكثير من الأخلاق الحميدة ، والخصال الفاضلة إضافة إلى النبوة والملك . فقد كان سليمان كأبيه نبياً ومَلِكاً .

قال تعالى في سورة «ص» :

﴿ووهْبنا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العبدُ إنه أوّاب (رجاع إلى الحق)﴾ .

وقد وردت في القرآن الكريم قصة حدثت فعلاً في حضرة الأب والابن عندما كان سليمان في العاشرة ، وأدلى كلاهما برأيه فيها .

إنها قضية خلافية حدثت بين رجلين أحدهما صاحب مزرعة ادعى على خصمه أن غنمه دخلت تلك المزرعة أثناء الليل ، وأكلت كثيراً من الفواكه الموجودة بالمزرعة . ولقد جئتك يا داود لتحكم بيني وبين صاحب الغنم الجالس إلى جواري . فتوجه داود بالسؤال لصاحب الغنم مستفسراً عما إذا كانت غنمه اعتدت فعلاً على مزرعة الرجل . فأجاب بنعم ، وعلى الفور حكم داود عليه بأن يعطي غنمه لصاحب المزرعة بدلاً من الفاكهة التي أكلتها الغنم!

فاستأذن سليمان والده ليدلي بوجهة نظره في القضية . .

فماذا قال سليمان؟

أرى أن يأخذ صاحب الغنم مزرعة هذا الرجل ويستغلها فترة من الوقت حتى يعوض الفواكه التي أكلتها الأغنام .

وفي المقابل أرى أن يأخذ صاحب المزرعة جميع الأغنام ويستثمر أصوافها وألبانها لصالحه ، فإذا تم ذلك تعاد الغنم إلى صاحبها في الوقت المحدد ، وكذلك تعاد المزرعة لمالكها في نفس الوقت .

فرضي الخصمان بحكم سليمان . . واغتبط داود بحكمة ابنه سليمان وسداد رأيه ، ومنذ ذلك الوقت اكتسب سليمان عن جدارة مطلقة صفة الحكيم فقيل سليمان الحكيم .

ونقرأ النص القرآني التالي في اللوحة المعنية :

﴿وداودَ وسليمانَ إذ يَحْكمان في الحرث (الزرع) إذ نَفَشَتْ (رعت ليلاً) فيه غنم القوم وُكنَّا لحكمهمْ شاهدين . فَفَهّمْناها سليمانَ وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ (١) .

وهناك قضية أخرى عرضت على داود ، وكانت قضية غريبة في شكلها ومضمونها ونتيجتها .

كان داود كعادته جالساً في محرابه ببيت المقدس ، منقطعاً لعبادة ربه تعالى . وكان عليه الصلاة والسلام قد وزّع أيام الأسبوع توزيعاً خاصاً به .

اتخذ يوماً للعبادة ، وآخر خصصه للقضاء بين المتخاصمين من عامة الشعب . وخصص يوماً محدداً للموعظة والإرشاد وقراءة الزبور . . بينما خصص يوماً معيناً لشؤونه الخاصة .

وحدث في اليوم الذي كان مخصصاً لخلوته أن دخل عليه رجلان تَسَوّرا المحراب ودخلاه بدون إذن ، فلما رآهما فزع منهما ، وأرادا أن يدخلا السكينة والطمأنينة في قلبه ، فأخبراه بأنهما خصمان جاءا ليعرضا قضيتهما بين يديه ليحكم بينهما بالحق .

فما هي مسوغات تلك القضية؟

قال أحدهما : إن هذا أخي في الدين والصحبة ، يمتلك تسعاً وتسعين نعجة (أنثى الضأن) ، أما أنا فأمتلك نعجة واحدة فقط فطلب مني أن أتنازل له عن نعجتي حتى تكتمل نعاجه على المائة نعجة ،

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٨ ، وجزء من الآية رقم ٧٩

وقد غلبني بفصاحة لسانه وتهديده بقتلي ، فتنازلت عنها مكرهاً .

فأصدر داود حكمه على الفور ودون أن يسمع رأي الخصم الآخر كما يقتضي القضاء العادل : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الشركاء والمتعاملين يظلم بعضهم بعضاً إلا المؤمنين الصالحين وهم قلة قليلة .

وهنا تبادر الشك إلى قلب داود .

فظن أن الله تعالى قد ابتلاه بالذنب ، وامتحنه بهذا الموقف ، فاستغفر ربه وأناب إليه وخرَّ راكعاً وهو يبكي ويستغفر الله العظيم ، فظل على تلك الحال حتى غفر الله له وجعله من المقربين إليه .

تقول اللوحة القرآنية مصورة هذا المشهد :

﴿وهل أتاكَ نبأُ الخصم إذ تسوَّروا المحراب (اعتلوا سوره ونزلوا إليه). إذ دخلوا على داود ففزعَ منهم قالوا لا تَخَفْ خصْمانِ بغى بعضُنا (تعدى وظلم) على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطِطْ (لا تظلم في الحكم) واهدنا إلى سَواء الصراط (طريق الحق) . إن هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجةً (أنثى الضأن) ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها (تنازل لي عنها) وعزَّني (غلبني) في الخطاب . قال لقد ظلمكَ بسؤالِ نَعجتك إلى نِعاجه وإن كثيراً من الخُلطاء (الشركاء) ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داودُ أنما فتناه (امتحناه) فاستغفرَ ربه وخَرَّ راكعاً (ساجداً) وأناب (رجع إلى الله بالتوبة) . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزُلفى (قربة ومكانة) وحُسنَ مآب (حسن العاقبة في الآخرة)﴾[1] .

وهنا لا بد من نقطة إيضاح

فالنعاج في هذا السياق هي النعاج الحقيقية من إناث الضأن

(١) سورة «ص» الآيات من رقم ٢١ إلى رقم ٢٥

وليست النساء كما يزعم كتبة التوراة ودعاة السوء لأن مسألة عشق المرأة لا تليق بمقام الأنبياء الكرام ومن بينهم داود الذي وصفه ربه بصفات جليلة تتعارض مع هذا الافتراء . وتأويل القصة على ضم امرأة جندي إلى تسع و تسعين امرأة أخرى تأويل سقيم يتعارض وكرامة الأنبياء وهم قمم النقاء البشري على الأرض ، والقدوة الحسنة لكل السائرين على دروب الحق والاستقامة والنزاهة ، ثم أن تفسير النعجة بالمرأة غير متداول على الشهرة في البيئة العربية ولا يوجد في النص القرآني ما يصرف الكلمة عن معناها المألوف .

ورب سائل يتساءل : ما الذنب الذي أذنبه داود فاستغفر ربه بشأنه؟

الواضح من السياق القرآني أن داود أسرع في حكمه وقضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الآخر المدعى عليه ، فعندما قال : «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» فحكم عليه بكونه «ظالماً» بمجرد صدور دعوى المدعي بغير إظهار الدليل أو إثبات البيِّنة ، فجاء حكم داود غير مستكمل الأركان ، وعندما شعر بهذا القصور والتسرع في الحكم توسل إلى الله أن يغفر له . فغفر له .

لقد كانت علاقة داود بربه علاقة وطيدة الأركان ، لذلك جاء استغفاره سريعاً وصادقاً .

كان عليه السلام يتهجد ثلث الليل ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً ، وقد ورد أن نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قال : «أفضل الصلاة بالليل- صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً» .

وجاء في كتب الفقه أن داود عليه السلام كان أول من صلى صلاة الظهر حيث تاب الله عليه وقت زوال الشمس فصلى أربع ركعات شكراً لله على قبول توبته .

وفي الآية السادسة من سورة «ص» وجه الله تعالى نصحه وتذكيره إلى رسوله داود قائلاً له :

يا داود : إنا جعلناك خليفة لمن قبلك من الأنبياء فاحكم بين الناس بالعدل والإنصاف ، ولا تتبع أهواءك فالهوى يبعد الإنسان عن طريق الحق والصواب فتصبح من الهالكين بسبب بعدك عن الصراط المستقيم ، لأن الذين ينحرفون عن هذا الطريق ويعملون على ظلم الناس فإن الله تعالى سينزل بهم عذاباً شديداً يوم القيامة لأنهم نسوا أوامر الله وأهملوها .

وهذا النص القرآني يعبر عن المعنى :

﴿ يا داودُ إنَّا جعلناكَ خليفةً في الأرض فاحكمْ بين الناس بالحق ولا تَتَّبع الهوى فيضلَّكَ عن سبيل الله إن الذين يضِلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يوم الحساب ﴾[1] .

وكدأبهم مع كثير من أنبياء الله- وخاصة مع أنبيائهم ورسلهم- نسج اليهود روايات عديدة مسيئة لهم . لكن داود استأثر بقسط وافر من هذه الإساءات .

زعموا أنه- عليه الصلاة والسلام- كان يتجول على سطح بيته ، فرأى جارته الحسناء وهي تستحم في الحمام . فوقع في غرامها وأتى بها واضطجع معها فحملت منه بعد أن استغل وجود زوجها القائد العسكري «أوريا» في ميدان الحرب .

وبصفة داود ملكاً فقد أمر باستدعائه ودبر له مكيدة حربية قتل على أثرها ، ثم استولى داود على امرأة القائد وضاجعها فجاء منها بولده سليمان! بمعنى- والعياذ بالله- ان داود زان ، وأن سليمان ابن زنى!! كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من سفر (صموئيل) .

---

(١) سورة ص ، الآية رقم ٢٦

قـاتلهـم الله أنى يؤفكون . فـإذا لم يكن عندهـم إخـلاص ووفـاء لأنبيائهم ، فهل يرجى من مصالحتهم وإقامة العلاقات الطبيعية معهم خير؟ أي خير؟ حاشا لله . ولا بأس أن نورد فرية يهودية أخرى ، وما أكثر افتراءاتهم . .

زعـمـوا أنه لما أتى الله بسليـمـان بن داود كـانت له ألف امـرأة ، سبعمائة منهن مهرية (شرعية) ، وثلاثمائة سرية (جارية) .

وكانت لداود مائة امرأة منهن امرأة (أوريا) أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة .

وذكر الكلبي أنه كان لداود مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة!![1] .

وهناك افتراءات إسرائيلية كثيرة عن داود وسليمان لا مجال لذكرها وكلها كـذب وزور وبهـتـان ، ونجزم بأنها وما شـابهـهـا باطلة جـملة وتفصيلاً ، وأنها من تحريف اليهود ، ولا علاقة للتوراة الحقيقية بها .

هذا ما ينسبه اليهود إلى أنبيائهم وملوكهم .

فماذا عن الله؟

الله في التوراة وعند بني اسرائيل هو إله اليهود واسمه (يَهْوَهْ) وهو خاص بهم ، اختصهم لنفسه واختارهم من بين مخلوقاته ، واختاروه من بين الألهة فهو رب إسرائيل وليس رب العالمين الذي نؤمن به ونتوكل عليه ونعبده وحده ، وهذا من فضل الله علينا لأن إله إسرائيل كما تنعته التوراة في سفر التكوين (الفصل الثالث) يتصف بأنه جبان جهول حسود حقود جائر ظلوم يخطئ ويندم وينسى ويتذكر ، وهو بحاجة إلى منبّه ومُعلّم!

(١) ابن كثير- قصص الأنبياء- مرجع سابق

الفصل الرابع
ماذا نعرف عن نجمة داود ؟

أضحت نجمة داود من الرموز والشعارات المهمة التي تلاحقنا كعرب ومسلمين في كثير من التجمعات والوسائل الإعلامية التي نشاهدها بصورة شبه دائمة ، وهي النجمة السداسية الموجودة على العلم الإسرائيلي والتي ترمز إلى «دولة إسرائيل» .

فماذا يعرف المواطن العربي عن حقيقة هذه النجمة التي تنسب إلى الملك داود .

تقول دائرة المعارف البريطانية عن «درع داود» .

رمز يهودي من مثلثين متساووي الأضلاع ، ويسمى كذلك النجمة السداسية ، وتظهر على المعابد والقبور وعلى علم إسرائيل .

ونشأ هذا الرمز منذ زمن بعيد حيث كان يستخدم مع النجمة الخماسية كديكور سحري لمنع الحسد .

وفي القرون الوسطى شاع ذلك الرمز بين اليهود دون إشارة إلى مغزى ديني لدرجة أنه ظهر على بعض الكاتدرائيات النصرانية .

ودرع داود في اعتقاد اليهود يرمز للرب الذي يحمي الشعب ، وقد شاع ذلك الاعتقاد عند النساك ومتصوفي النصارى ، وأنه سبب قوة داود . وبعد القرن السابع عشر أصبحت تلك النجمة شعار الديانة اليهودية التوراتية التلمودية ، وقد قال أحد المفسرين اليهود الألمان في القرن التاسع عشر ما يلي :

في تفسير المثلثين أن أحدهما ترمز أضلاعه الثلاثة إلى : الرب والعالم والإنسان . أما المثلث الثاني فترمز أضلاعه إلى الخلق والوحي والتوبة .

وفي التفسير الحديث عند الصهيونيين إن أضلاع المثلث الثلاثة تعنى الأرض (أرض الميعاد) ، والإنسان (القادم من الشتات) والتوراة[1] .

---

(١) ENCYCLOPEADIA - MOGAN DAVID 1976

جدير بالذكر في هذه المناسبة أن السلطان صلاح الدين الأيوبي بطل حطين كان يتخذ نجمة داود شعاراً له ، وتوجد هذه النجمة حتى يومنا الحاضر منقوشة على الحجر في بوابة قلعة الجندي التي تقع إلى الشرق من مدينة السويس المصرية كمحطة من محطات طريق الكفاح لتحرير فلسطين من أيدي الصليبيين ، قبل معركة حطين (٥٨٣هـ) بسنة واحدة .

وتعليل ذلك أن صلاح الدين كمسلم لا يمكنه أن ينكر أن سيدنا داود من أنبياء الله الذين لا بد للمسلم أن يحترمهم ويجلهم تبركاً واحتراماً وتقديراً لقوته ، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى في آخر سورة البقرة :

﴿آمنَ الرسولُ بما أنزل إليه من ربه والمؤمنونَ كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكُتُبِهِ ورُسله لا نفرق بين أحدٍ من رُسله وقالوا سمِعْنا وأطعنا غفرانَك ربنا وإليكَ المصير﴾ .

وأخيراً نتساءل : كم سنة عاش الملك داود؟

يقال أن حكم داود استمر مدة أربعين سنة ، منها سبعة أعوام أمضاها ملكاً على حبرون (مدينة الخليل الفلسطينية حالياً) لسبط يهودا وحده ، ولإسرائيل كلهم ، ثلاث وثلاثون سنة ملكاً لجميع اليهود في فلسطين .

ثم مات في يوم سبت وقد دفن في القدس وعمره مائة سنة وستة أشهر . .

ويقال أنه دفن في قرية المزار الشمالي في محافظة إربد بشمال الأردن . وأنه لما شعر بدنو أجله أوصى ابنه سليمان فقال له : «أنا ماضٍ في سبيل كل أهل الأرض ، فاعمل بوصايا الرب إلهك» .

وأسلم روحه لبارئها .

وقيل أن الناس حضروا جنازته فجلسوا في الشمس في يوم شديد

الحرارة ، وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود .

ويروى أن الحر الشديد آذاهم فنادوا سليمان أن يعمل لهم وقاية منه فاستجاب سليمان فنادى الطير وأمرها أن تظلل الناس ، فتراص بعضها بجانب بعض ، حتى احتبست الريح فكاد الناس أن يهلكوا غماً فاستغاثوا بسليمان فنادى الطير أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحية الريح ، ففعلت فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح ، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان . . . .

وجاء سليمان . . . . .

الباب الثامن

نبي الله سليمان

الفصل الأول
سليمان الحكيم . . صورة من أبيه داود

عرفنا أثناء عرضنا لسيرة داود عليه الصلاة والسلام أن ابنه سليمان يوم كان فتى يافعاً شارك والده في حل مشكلة حدثت بين خصمين حيث اعتدت غنم الأول على مزرعة الثاني فأكلت فاكهتها . .

وقد اغتبط الأب بحكمة ابنه سليمان في حل تلك المشكلة حلاً مناسباً أرضى الطرفين المتخاصمين . واكتسب منذ تلك اللحظة لقب سليمان الحكيم ، وقد رافقه ذلك اللقب طوال حياته .

إضافة إلى ما عرف عنه من علم غزير ومال وفير وملك عريض .

وفي ذلك يقول الإمام الغزالي : خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم ، فأُعطي المال والملك معه .

هذا وقد ذكر سليمان في القرآن الكريم ست عشرة مرة في سبع سور هي : البقرة ، والنساء ، والأنعام ، والأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، و«ص» .

والملاحظ أن هذه الآيات لا تمثل سرداً متصلاً لحياة هذا النبي الكريم ، بل هي مواقف متعددة تظهر بجلاء نِعَمَ الله وفضائله عليه .

قال تعالى موضحاً فضيلة العلم التي أنعم بها على داود وسليمان :

﴿ولقدْ آتينا داودَ وسليمانَ عِلْماً وقالا الحمدُ لله الذي فَضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[1] .

والآية الكريمة تركز على قيمة العلم وتخصه بالذكر في معرض آلاء الله على داود وسليمان وكأن الملك لا يستحق الذكر في هذا المجال إذا قيس بقيمة العلم ، وذلك على الرغم مما كان ينعم فيه داود وسليمان من ملك واسع عظيم ، وخاصة ملك سليمان .

---

(١) سورة النمل ، الآية رقم ١٥

وقد ورث سليمان الكثير من الفضائل عن أبيه ، ومنها معرفته لغة الطيور ، إضافة إلى النبوة والملك وهما نعمتان عظيمتان جمعتا بين خيري الدنيا والآخرة .

قال تعالى في سورة النمل :

﴿وورثَ سليمانُ داود وقال يا أيها الناسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطيرِ وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين﴾ [(١)] .

ويرى بعض العلماء أن الإرث في هذه الآية لا يشمل المال لأنه كان لداود أبناء غير سليمان ، إضافة إلى احتجاجهم بقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «نحن معاشر الأنبياء لا نُوَرِّث» بمعنى أن تكون أموال الأنبياء صدقة توزع بعد وفاتهم على الفقراء والمساكين .

بينما يحتج الطرف الآخر بآيات المواريث التي ذُكرتِ في القرآن الكريم ومنها قول الحق تبارك وتعالى في الآية السابقة ﴿وورث سليمانُ داودَ . . .﴾ الآية .

وكذلك فيما اختص من خبر زكريا عليه الصلاة والسلام ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ وكذلك بيان حظ الذكور والإناث في قول ربنا جل جلاله :

﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ وقوله تعالى : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ .

هذا وقد اختار الله سليمان نبياً إلى بني إسرائيل ، ومنحه الملك عليهم فهو نبيهم وملكهم في وقت واحد ، إنها صورة أخرى «لأبيه . . . مُلْك ونبوة» .

وروى أبو هريرة عن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حديثاً يدلل على حكمة سليمان «الحكيم» :

---

(١) سورة النمل– الآية رقم ١٦

«مثلي ومثل الناس ، كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعل الفراش وهذه الدواب تقع في النار» . وقال :

«كانت امرأتان معهما ابناهما ، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك . وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود .

فقضى للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها . فقضى به للصغرى»[1] .

لقد استغل سليمان علمه بمشاعر الأم كأم ، فأراد أن يقوم بهذا الاختبار الذي لم يكن في واقعه اختباراً حقيقياً ، وإنما أراد أن يكون الاختبار تمثيلياً ، لكن الأم الحقيقية صعب عليها أن يشق سليمان الطفل إلى شقين ، وحاشاه أن يفعل ذلك ، فنزعه من الأم المزعومة وأعطاه للأم الأصلية .

ومن جملة فضائل الله تعالى على سليمان وعلى أبيه داود عليهما الصلاة والسلام تعليمهما منطق الطيور ولغاتها .

فقد كان باستطاعة سليمان أن يستمع ويفهم ويخاطب أي عصفور أو أية نملة أو أي طائر خلقه الله تعالى .

وكان عليه الصلاة والسلام يستغل هذه الميزة فيكلف الطيور باستطلاع النواحي الأمنية في مملكته ، إضافة إلى قدرته على تسخير الجن والإنس والوحوش في المحافظة على أمن المملكة ونشر راية التوحيد والعدل على ربوعها . ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ الذي تفضل الله به على سليمان .

ولنتأمل اللوحة القرآنية المعنية :

---

(١) أخرجه الشيخان- صحيح البخاري ، الجزء الرابع- ص ١٩٨

﴿وَحُشِرَ لسليمانَ جنودُهُ من الجنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فهم يوزعون (يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم) ﴾[1] .

وهناك جنود آخرون عملوا في جيش سليمان وتحت إمرته المباشرة . . وهي جيوش لم تسخر لنبي إلا لسليمان فقط . . وأعني بها الرياح والشياطين بحيث أضحى جيش سليمان أقوى جيش على ظهر الأرض في ذلك الزمان ، وأضحت مملكته بالتالي أقوى مملكة في الوجود ، وأضحى عهده بالتالي هو العهد الذهبي لبني إسرائيل .

قال تعالى في سورة «ص» :

﴿فَسَخَّرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيثُ أصاب (ليّنة ومنقادة له) . والشياطينَ كُلَّ بناء وغواص وآخرينَ مُقَرَّنينَ (مربوطين) في الأصفاد (القيود) . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى (قربى وكرامة) وحسن مآب (حسن مرجع في الآخرة)[2] ﴾ .

لقد منح الله سليمان الريح لتكون في خدمته وتحت أمره ، وكان له بساط مشهور من الخشب وصفه ابن كثير بقوله :

إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان . وغير ذلك من الحيوانات والطيور ، فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا انتقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإذا أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون ، فوضعته في أي مكان شاء . . بحيث أنه كان يرتحل

---

(١) سورة النمل- الآية رقم ١٧

(٢) سورة النمل- الآيات من رقم ٣٦ إلى ٤٠

في أول النهار من بيت القدس فتغدو به الريح فتضعه في اصطخر (بلدة في إيران) مسيرة شهر فيقيم هنا إلى آخر النهار ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس .[1]

وهذه قراء في اللوحة القرآنية المعنية في سورة الأنبياء :

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾[2] .

وقد سخر الله الجن لتكون تحت إمرة سليمان فكان يكلفهم بعمل ما يحتاج إليه من شؤون حياتية مثل المجالس والبرك والأحواض الضخمة ، والقدور الكبيرة التي يحتاج إليها لإعداد الطعام للضيوف والمحتاجين من الناس والحيوانات .

وكان يكلف الشياطين كذلك بأداء مهمتين :

أولاً : الغوص في أعماق البحار لاستخراج اللآلئ والجوهرات .

ثانياً : بناء المباني الحجرية التي يحتاجها .

وكما نعلم فإن الشياطين لم يلتزموا كلهم بإطاعة أوامر سليمان ، بل هناك بعض الشياطين لم يلتزموا بالطاعة . . وهؤلاء كان سليمان يعاقبهم بتقييدهم في السلاسل والقيود الحديدية مقرنين . . أي مقترنين اثنين اثنين .

قد عبرت بعض آيات سورة سبأ عن هذا الأمر :

﴿ولسليمانَ الريحَ غُدُوُّها شهرٌ ورواحها شهر وأَسَلْنا له عينَ القِطْرِ (عين النحاس المذاب) ومن الجنِّ من يَعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزِغْ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من

---

(١) قصص الأنبياء- مرجع سابق

(٢) سورة الأنبياء ، الآيتان رقم ٨١ و٨٢

محاريب (قصور أو مساجد) وتماثيل وجفان كالجواب (أحواض مائية كبيرة) وقدور راسيات (ثابتات على المواقد) اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾[1] .

وقد جاءت هذه الفضائل الربانية ، استجابة لدعوة ملحة دعا بها سليمان ربه ، فاستجاب له ، وحقق له رغبته ، بعد أن غفر له ذنوبه :

﴿قالَ ربِّ اغفرْ لي وَهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب﴾[2] .

وكان سليمان دائم الاتصال بالله تعالى .

وكان الصوم أحد وسائله الرئيسة لهذا الاتصال ، فقد روى ابن عباس أن سليمان كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام . ومن وسطه ثلاثة أيام ، ومن آخره ثلاثة أيام ، يستفتح الشهر بصيام ، ووسطه بصيام ، ويختمه بصيام .

كما كانت الصلاة إحدى وسائله الرئيسة أيضاً للاتصال بالله تعالى ، ولم يشغله شيء عن الصلاة إلا مرة واحدة فقط . شغل عنها رغم إرادته . فما هي تلك المرة وكيف حدثت؟

كان سليمان يستعرض جيشه العرمرم ساعة العصر ، وكان الخيل يمثل جانباً آخر من جنوده ، أخذ يطمئن عليها وعلى قوتها ، ومأكلها ومشربها ، كان يمسح بيده الكريمة على أعناقها حباً لها ، واعتزازاً بها ، وتسرية عنها[3] .

واستغرق ذلك وقتاً طويلاً استمر إلى احتجاب الشمس وراء الأفق ، وفوات وقت صلاة العصر ، فندم سليمان ندماً شديداً وشرع

---

(١) سورة «سبأ» ، الآيتان رقم ١٢ و١٣

(٢) سورة «ص» ، الآية رقم ٣٥

(٣) أحمد بهجت ، انبياء الله ، مرجع سابق

بذبحها وتوزيع لحومها على الفقراء قرباناً لله تعالى ، وكان ذلك جائزاً في ملته ولهذا فإن ذبحه للخيل لم يكن عقوبة لها ، وإنما كان كفارة لما بدر منه من تضييع الصلاة انشغالاً بتلك الخيل الجياد العتاق والله تعالى أعلم .

ومنذئذ قرر سليمان الاستغناء عن خدمة الخيل في جيشه ، بعد أن عوضه الله تعالى بالريح التي كان غدوها شهرا ورواحها شهراً .

قال ربنا عز وجل واصفاً هذا المشهد :

﴿إذْ عُرِضَ عليه بالعشِيِّ (ما بعد الزوال إلى الغروب) الصافنات (الخيول الواقفة على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة) الجياد (السراع) . فقال إني أحببْتُ حُبَّ الخير (الخيل) عن ذكر ربي (صلاة العصر) حتى توارتْ بالحجاب (غربت الشمس أو غابت الخيل عن بصره لظلمة الليل) . ردوها عليَّ (ردوا الخيل عليّ) فَطفقَ مسْحاً بالسُّوقِ والأعناق (شرع بقطع أقدامها وأعناقها بالسيف)﴾[1] .

لماذا تبسم سليمان ؟

وهناك موقف طريف حدث مع سليمان جعله فرحا مسروراً ودعاه لتكرار شكره وتقديره لربه سبحانه وتعالى أن وهبه دون غيره من البشر نعمة فهم لغة النمل .

كان الموكب السليماني المهيب يسير في الصحراء ، وللمرء حرية تخيل عظمة ذلك الجيش الفريد من نوعه في التاريخ البشري كله حينما يكون مكوناً من كافة الرتب العسكرية من الجن والإنس والطيور الشياطين . .

خليط غريب وعجيب من مخلوقات الله جل جلاله تأتمر بأمر القائد الأعلى للجيش الذي كان يسير في المقدمة سائراً على قدميه مع

(١) سورة «ص» الآيات من رقم ٣٠ إلى رقم ٣٣

الإنس . .

أما الجن فهم أيضاً يسيرون بجانب الإنس بالمقدمة لكن دون أن يراهم زملاؤهم من أفراد الإنس .

أما الطيور فقد كانت تقوم بواجباتها العسكرية في السماء ، تظلل القائد الأعلى للبلاد بأجنحتها . .

عندما وصلت طلائع الموكب السليماني إلى وادي النمل سمع سليمان نملة متواضعة تخاطب زميلاتها طالبة منهن الدخول إلى المساكن خوفاً من أن تصاب حياتهن بخطر جراء مرور سليمان وجنوده أرض الوادي وهم لا يشعرون .

وعندما سمع سليمان كلامها تبسم ضاحكاً من قولها ، وتوجه بكليته إلى الحق تبارك وتعالى شاكراً حامداً لأنه أنعم عليه وعلى والديه بهذه النعم الوفيرة ، وتوسل إليه أن يحشره- عند وفاته- مع عباده الصالحين .

تقول اللوحة القرآنية في هذا الشأن :

﴿يا أيها النملُ ادخلوا مساكنكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سليمانُ وجنودُهُ وهم لا يَشْعرون . فَتَبَسَّمَ ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني (ألهمني) أن أشْكُرَ نعْمتَكَ التي أنعمْتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾[1] .

وتدل كلمة «مساكنكم» على أن تلك الأماكن خاصة بأمة النمل وليس لغيرها من الأمم .

وكان الإنذار الذي وجهته النملة لأسراب النمل قد تضمّن عدم تعمد سليمان تحطيمها تحت وطأة الإقدام ، لذلك جاء التعبير القرآني دقيقاً في قوله «وهم لا يشعرون» وهذا دليل على أدب النملة وإدراكها لنفسية سليمان الكريمة ، ولجنده الأوفياء .

---

(١) سورة النمل ، الآيات من رقم ١٨ إلى رقم ١٩

الفصل الثاني
الملكة بلقيس تشهر إسلامها

الهدهد . . طير هادئ متواضع جميل الشكل ، فيه أنفة وعزة نفس ، هذا ما يبدو واضحاً من صفاته . . لكن ابن عباس رضي الله عنه أخبر أن للهدهد وظيفة مهمة يضطلع بها وبشكل خاص أثناء السفر في الصحراء وهي الإرشاد عن أماكن توافر الماء ، وكان الحق تبارك وتعالى قد أودع هذه القوة في الهدهد بحيث ينظر وهو في الفضاء إلى تخوم الأرض ، فيدل المختصين إلى مكان وجود الماء .

وحدث أثناء تفقد الملك سليمان لجنوده من الجن والإنس والطير ان افتقد وجود الهدهد . . ضابط استطلاع الماء . . فلم يجده في مكان خدمته ، فاستغرب غيابه خاصة وأنه لم يخبر قائده الأعلى عن ذلك ، فتوعد الهدهد بالذبح إذا لم يأته بمبرر معقول لغيابه .

وفجأة وصل الهدهد إلى القدس ، واتجه مباشرة إلى قصر مولاه سليمان ، فقال له وقد بدت عليه حالة النشوة والحبور : اعذرني على التأخير أيها الملك العظيم ، لقد كنت في مهمة جليلة في بلاد اليمن البعيدة ، وقد جئتك منها بمعلومات قيمة عن مملكة سبأ حيث تتولى الحكم فيها امرأة تدعى بلقيس ، وأهل تلك المملكة الغنية وثنيون ملاحدة يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله الواحد القهار الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وقد انبهر نبي الله لهذه الأنباء الغريبة التي أتى بها الهدهد والتي لاقت قبولاً حسناً لديه . فلم يعاقبه أو يؤنبه على غيابه ، بل أخبره انه سيعمد إلى التأكد من أقواله ، قبل أن يتخذ أي إجراء ضد تلك المملكة المتمردة كلفه بتوصيل رسالة هامة ومستعجلة إلى الحكومة السبئية . وهذه قراءة متأنية في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿وتَفَقَّدَ الطيرَ فقال مالي لا أرى الهدهدَ أم كان من الغائبين. لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان (دليل) مبين (واضح). فمكثَ غيرَ بعيد فقال أَحَطْتُ (علمت) بما لم تُحطْ به وجئتكَ من سبأ بنبأ يقين (مؤكد). إني وجدتُ امرأة تملكهمُ وأوتيتْ من كلّ شيء ولها عرشٌ عظيم. وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألاّ يسجدوا لله الذي يُخرج الخبء (يظهر المخبوء) في السماوات الأرض ويعلمُ ما تُخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. قال سننظر أَصَدَقْتَ أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولَّ (ابتعد) عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾[1].

يقول الحسن البصري موضحاً:

إن تلك المرأة التي كانت تملك القوم هي بلقيس بنت شراحبيل ملكة سبأ في أرض كان يقال لها مأرب على بعد ثلاثة أميال من صنعاء، وكان المُلك قد آل إليها بعد زواجها من رجل فاسد ملَّكه القوم عليهم فعمَّ به الفساد، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها، وعندما دخلت عليه سقته خمراً ثم جزت رأسه ونصبتها على بابها، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم[2].

وحمل الهدهد الرسالة في منقاره الطويل- وطار سريعاً إلى بلاد اليمن السعيد. وقام على الفور بتسليم الرسالة إلى من يهمه الأمر في المملكة السبئية، وعقدت الملكة بلقيس اجتماعاً طارئاً لأركان مملكتها حضرها كبار المستشارين والوزراء.

---

(١) سورة النمل، الآيات من رقم ٢٠ إلى رقم ٢٨

(٢) رويدا البربري، نساء في حياة الأنبياء والرسل، دار الكتب العربي، دمشق.

وأطلعتهم على الرسالة السليمانية المختصرة والبليغة التي تضمنت دعوتها وقومها إلى طاعة الله تعالى ورسوله والدخول ضمن نفوذ المملكة السليمانية وامتثال أوامر الملك وضرورة الاستجابة الفورية لدعوته .

وهذا نص الرسالة كما وردت في سورة النمل :

﴿قالت يا أيها الملأ (كبار القوم) إني أُلقي إليّ كتاب كريم إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاّ تعلو (تتعالوا وتتكبروا) عليّ وائتوني مسلمين﴾[1] .

فماذا كان ردّهم؟

استاء كبار القوم من اللهجة القاسية والمهينة التي صيغت بها الرسالة ، واعتبروها مسيئة لكرامتهم ومشينة لمكانتهم ، خاصة وهم يتمتعون بمركز حربي قوي ، وهم على استعداد كامل لقبول التحدي ، وإعلان حالة الحرب والطوارىء في كافة أنحاء المملكة ومواجهة كل الاحتمالات المتوقعة .

هذا هو رأيهم الذي أعلنوه بصراحة ووضوح ، لقد أخذتهم العزة بالإثم .

ولكنهم تركوا الباب مفتوحاً لمعرفة رأي الملكة في الموضوع ، وأعربوا لها عن استعدادهم لتنفيذ ما تراه مناسباً من الحلول .

وفكرت الملكة بروية في الأمر . . استجمعت خيوط دهائها وحكمتها ، وتجاربها . . وقدرت أنها لو دخلت ضمن دائرة النفوذ الملكي السليماني فستتعرض هي وقومها ومملكتها إلى الدمار والذوبان والهلاك ، لأن الملوك - في نظرها - إذا فتحوا واحتلوا أي مدينة فسيعملون على إفسادها خاصة اذا دخلوها عنوة عن ثورة وغضب ، لأن

---

(١) سورة النمل - الآيات من رقم ٢٩ إلى رقم ٣١

هدفهم في نهاية المطاف إذلال الناس وإخضاعهم وتحويل أعزتهم وأشرافهم إلى عبيد مقهورين .

وبسبب تلك الاعتبارات فقد قررت الملكة بلقيس اعتماد أسلوب المهادنة والموادعة عوضاً عن المواجهة .

وبهدف تنفيذ خطتها قررت أن تبعث إليه بهدايا ثمينة ربما تؤدي إلى تليين موقفه ، فيكف عن ملاحقتها . إضافة إلى أن الرسل الذين سيحملون الهدايا سيكونون عيوناً على مملكة سليمان ، ويمكنهم أن يأتوا بمعلومات إضافية عنها تفيدهم في معرفة مدى قوتها .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون (تشاركونني الرأي) قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها ، وجعلوا أعزَّة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون . وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾[1] .

. . . .

وصل مبعوثو الملكة بلقيس ورسلها إلى القدس وهم مدججون بالهدايا السبئية الفاخرة من الذهب والعطور والبخور ، فلما عاينها الملك الحكيم سليمان عرف المغزى الكامن وراءها ، فهز رأسه مستهزئاً بها ، وأشاح بوجهه عنها ، وقال لموفدي الملكة :

إن الله تبارك وتعالى وهبني من الخيرات والمكرمات أكثر بكثير مما أعطاكم ، وانا عموماً لم ولن أفرح بهداياكم ، بل أنتم الذين تفرحون بالهدايا التي تُهدى إليكم ، لأنكم أهل مباهاة ومفاخرة ، ونحن غير ذلك .

---

(١) سورة النمل ، الآيات من رقم ٣٢ إلى رقم ٣٥

وانتقل سليمان من أسلوب التأنيب والتأديب إلى أسلوب التهديد والوعيد . . وأنبأهم بأنه سيغزو بلادهم بجنود أشداء لم يعهدوهم ، وبقوة جبارة لم يألفوها ، وستكون مهمتهم مقتصرة على إخراج بلقيس وقومها من سبأ أذلة صاغرين محتقرين ، فلا وجود ولا كرامة لأناس ملاحدة يعبدون الشمس من دون الله .

أما إذا استجابت الملكة وقومها إلى دعوته ودخلوا في رحاب الإسلام فلن يصيبهم ما يكرهون بإذن الله .

. . . .

وعادت رسل بلقيس إليها وأخبروها بما حدث بعد أن وضعوها في الصورة التي عايشوها بأمهات عيونهم عن عظمة سليمان ومملكته وقوته .

وقالت : والله ما هذا بملك أو سلطان ، ولو كان كذلك لقبل الهدايا وفرح بها . وما دام قد رفضها فهو نبي ، ولا طاقة لنا بسليمان وجنوده .

وقررت أن تخطو من جانبها خطوة إيجابية ، وأرسلت إلى سليمان عليه السلام رسالة أخبرته فيها بأنها قادمة إليه قصد الزيارة برفقة وفد من وجهاء المملكة للتعرف عليه وعلى الدين الجديد الذي يدعو إليه .

وقرر سليمان من جانبه أن يقدم مفاجأة مذهلة لملكة سبأ حين قدومها إليه ، وكان قد سمع الكثير عن روعة عرشها ، فقرر أن يحضره لها من اليمن إلى فلسطين وذلك لإظهار عظمة ما وهبه الله تعالى له من الملك وما سخره له من الجند مما لم يعط لأحد قبله ، ولن يعطى لأحد من بعده برهاناً ودليلاً على حقيقة نبوته .

فاستدعى سليمان جنوده من الجن وقال لهم :

أيكم يستطيع أن يأتيني بعرش بلقيس قبل أن تصل وقومها إلى القدس؟

فتطوع عفريت من الجن وأبدى استعداده لإحضار العرش قبيل أن

يقوم سليمان من مجلسه . . أي في غضون ساعة أو بعض ساعة .

فقال سليمان : هذه مدة طويلة ، من يأتيني بها في مدة أقل؟ .

فقال (آصف بن برخياء)[1] وكان من أهل الصلاح والتقوى آثره الله باسمه الأعظم قيل إنه ابن خالة سليمان : أنا على استعداد لإحضار العرش في طرفة عين ، وما كاد ينهي كلامه حتى وجد عرش بلقيس بكل أبهته وعظمته مستقراً أمامه . فلم يستخفه الفرح بقدرته ، ولم تبطره النعمة التي أنعم الله بها عليه ، بل أرجع كل تلك النعم والأفضال إلى كرم الله تعالى الذي يمتحنه بهذا الموقف ليرى هل سيشكر سليمان ربه عليها أم يكفر وحاشا لله أن يكون سليمان جاحداً لأنعم الله .

ثم أمر عليه السلام نفراً من الجن فعملوا على إجراء بعض التعديلات في العرش ليمتحن بها قوة ملاحظتها وانتباهها هل ستتعرف بلقيس على عرشها أم لا؟

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية بالأحداث السابقة :

﴿فلما جاء سليمان قالَ أتمدونن بمال فما أتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَلَ لهم بها (لا طاقة لهم بمقاومتها) ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريتٌ من الجن أنا آتيك به قبل أن تقومَ من مقامِكَ وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عندهُ علمٌ من الكتاب أنا آتيك بهِ قبلَ أن يرتد إليك طرفك فلما رآهُ مُسْتقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكرُ لنفسهِ ومنْ كفر فإن ربي غني كريمِ . قال نكّروا (غيروا)

---

(١) قال بعض المفسرين انه وحي السماء جبريل عليه السلام .

لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكونُ من الذين لا يهتدون ﴾[1] .

ووصلت بلقيس ورجالات حكمها إلى مقر الملك سليمان بالقدس ، فأحسن استقبالهم ، والترحيب بهم .

ولكن راع الوفد السبئي الزائر ما رآه من عطاء الله لسليمان نبي الله مما يسلب الألباب ويخطف الأبصار .

وهنا أمر سليمان بعرشها ، ثم سألها : أهكذا عرشك؟ هل عرشك يشبه هذا العرش؟ .

وأخذتها الدهشة والحيرة . . إنه هو هو عرشها الذي تركته خلفها في اليمن . فكيف وصل إلى هنا؟

ولكنها من شدة فطنتها وذكائها لم تؤكد وجود العرش بعينه ، بل قالت متشككة : «كأنه هو» .

وقال سليمان معلقاً : ﴿وأوتينا العلم من قَبْلها وكنّا مسلمين﴾ .

وتوحي عبارته الأخيرة إلى الملكة بلقيس أن تقارن بين عقيدتها وعلمها ، وعقيدة سليمان المسلمة وحكمته ، إن عبادتها للشمس ومبلغ العلم الذي هم عليه ، يصابان بالخسوف الكلي أمام علم سليمان وإسلامه ، لقد سبقها سليمان إلى العلم بالإسلام ، بعدها صار من السهل عليها أن يسبقها في العلوم الأخرى ، هذا ما توحي به كلمة سليمان لبلقيس[2] .

وأراد سليمان أن يقدم مفاجأة أخرى لبلقيس غير مفاجأة العرش . .

أراد أن يبهرها بما أكرمه الله من ملك ، فأمر الجن أن تبني قصراً من زجاج يجري من تحته الماء ، فكأن السائر على ذلك الزجاج يسير على الماء ويرى ما يجري فيه .

---

(١) سورة النمل ، الآيات من رقم ٣٦ إلى رقم ٤١

(٢) أحمد بهجت- أنبياء الله- مرجع سابق ص ٢٨٧

وظنت بلقيس حينما همت بالدخول إلى الصرح أو القصر الزجاجي أنها ستخوض بقدميها في لجة الماء ، فكشفت عن ساقيها كي لا يبتل رداؤها . فنهاها سليمان قائلاً لها : لا داعي لرفع ثيابك لأن ما ترينه ليس ماءً بل صرح ممرد من قوارير أي زجاج ناعم أملس .

وبعد أن جلست بلقيس في حضرة النبي سليمان ، شرح لها أبعاد الدين التوحيدي الذي يدعو إليه .

وبعد أن اقتنعت بعظمة الله تعالى أعلنت أمام الملأ دخولها في الإسلام . واعترفت بأنها ظلمت نفسها بعبادتها للشمس . واقتنعت أيضاً أن الشمس والقمر والنجوم من آيات الله ، وهو سبحانه خالق كل شيء .

وأعلنت أنها تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن سليمان نبي الله .

. . . .

وهكذا أسلمت بلقيس ملكة سبأ ، وحَسُنَ إسلامها ، ويقال أنها تزوجت سليمان نفسه ، بينما يقال بل تزوجت أحد وزرائه المقربين ، والله تعالى أعلم .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿فلما جاءتْ قيلَ أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنَّا مسلمين . وصَدَّها ما كانتْ تعبدُ من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيلَ لها ادخلي الصَّرْحَ فلما رأته حسبته لجة (ظنته ماء غزيراً) وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح مُمرَّدٌ (مملس مسوى) من قوارير (زجاج) قالت ربِّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[1] .

(١) سورة النمل ، الآيات من رقم ٤٢ إلى رقم ٤٤

الفصل الثالث
هيكل سليمان حقيقة أم خيال؟

يعزي بعض المؤرخين للملك داود عليه السلام إطلاقه اسم «أورشليم» أي مدينة السلام على مدينة القدس للمرة الأولى أثناء فترة حكمه التي قيل أنها امتدت نحو أربعين عاماً ، ومعلوم أن الكنعانيين العرب هم بناة القدس أساساً وهم الذين أطلقوا هذا الاسم عليها .

ولما استقر في المدينة أراد أن يبني مركزاً للعبادة اليهودية فاشترى من اليبوسي «أرنان» قطعة أرض بمبلغ خمسين شاقلاً من الفضة ، لتشييد المعبد عليها ، وشرع في البناء ، ولكن الله توفاه قبل أن يتمه ، فأتمه من بعده ابنه سليمان الذي اتسعت في عهده حدود مملكة إسرائيل ، وامتدت من نهر الفرات بالعراق إلى نهر النيل بمصر ، ويقال أن فترة حكمه امتدت نحو ثلاثين عاماً ، وإذا ما جمعنا فترتي حكم داود وسليمان عليهما السلام فإن المدة كلها تصل إلى سبعين عاماً ، وبالسبعين عاماً تلك يعتمد صهاينة اليوم في دعواهم بامتلاك فلسطين ، وإعادة أمجاد مملكتهم البائدة[1] .

هذا وقد أنفق الملك سليمان نفقات باهظة على بناء وزخرفة المعبد أو الهيكل الذي نسب إليه فقيل «هيكل سليمان» .

وورد في سفر الملوك أن عدد العمال الذين اشتركوا في بنائه وصل إلى مائة وثمانين ألف عامل ، وشيد على جبل «موريا» لأول مرة حوالي عام ٩٦٠ قبل الميلاد حسب ما ورد في دائرة المعارف البريطانية ، واستغرق البناء مدة سبع سنوات ، واستعان الملك سليمان يومئذ بملك

---

(١) نبيل خالد الآغا- مدائن فلسطين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ١٩٩٣ .

مدينة صور الفينيقية (اللبنانية حالياً) ويدعى «بحيرام» فأمده بالمهندسين والفنيين والعمال المهمرة .

ويذهب المؤرخون إلى أن الطراز الذي بني عليه الهيكل كان كنعانياً ، ويرى أحد الدارسين العرب إلى أن التصميم العام للمعبد يكاد يماثل المعبد الكنعاني . . وإذا كان المعبد في عهد داود وسليمان قد اقتصر على أن يكون بيت الله يأتيه بنو إسرائيل لإقامة شعائرهم حيثما كان ، فإنه مع قيام المملكة قد أصبح يغطي مسؤوليتين كبيرتين : الأولى أن يصبح المعبد المركزي ومكان الحج المحدد الذي لا يتجه الناس إلى سواه ، ثم إنه في نفس الوقت صار رمزاً على فخامة ملك سليمان وعظمة الجالس على عرش بني إسرائيل .

إن عمل سليمان هذا لم يكن في الحقيقة بناء معبد فحسب ، بل كان مشروعاً هندسياً معمارياً ضخماً لبناء عاصمة جيدة تتناسب مع عظمته كملك ، وعظمة مملكته ، ولبيان مدى ضخامته واتساعه يقال بأن العبادة في الهيكل كانت لا تنقطع على مدار الساعة ، حيث كان خمسة آلاف قارئ ، من قراء بني إسرائيل يقرؤون بالنهار وخمسة آلاف يقرؤون في الليل!

ولإعطاء مزيد من المعلومات المعمارية يقال بأن الأروقة الجنوبية للهيكل مثلاً كانت ترتكز على ١٦٢ عموداً ، محيط كل عمود فيها يحتاج إلى ثلاثة رجال متشابكي الأذرع لكي يحيطوا بدائرته . كما كان يوجد بالفناء الخارجي للهيكل تسع بوابات ضخمة مغطاة بالذهب ، وأما البوابة العاشرة فكانت مصبوبة من النحاس الخالص[١] .

كما كان الهيكل يشتمل على حوض ضخم مصنوع من البرونز وقائم على تماثيل تمثل الأسباط الاثني عشر هم أولاد يعقوب عليه

---

(١) د . سيد راشد- مجلة المنهل- أغسطس ١٩٩٣ .

السلام ، ولعله المقصود بـ«جفان كالجواب» في قوله تعالى في سورة سبأ :

﴿ولسليمان الريح غُدُوُّها شهر ورواحُها شهر ، وَأَسَلْنا له عين القطْر (النحاس المذاب) ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يَزِغْ منهم (يعدل منهم عن طاعته) عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب (قصوراً أو مساجد) وتماثيل (صور مجسمة) وجِفانٍ (قصاع كبار) كالجوابِ (كالحياض العظام) وقدورٍ راسيات (ثابتات على المواقد) اعملوا آل داود شكراً وقليل من عباديَ الشكور﴾[1] .

وقيل أن سليمان استعان بالجن إلى جانب الإنس في بناء المعبد وفرشه بلاطة من ذهب وبلاطة من فضة .

ويسند هذا الرأي ويدعمه ما ورد في تفسير الجلالين :

عن حذيفة قال : قلت يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عند الله عظيماً جسيم الخطر ، عظيم القدر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«هو من أَجَلِّ البيوت التي ابتناها الله تعالى لسليمان بن داود ، لما بناه سخر له الجن يأتونه بالذهب والفضة والجواهر ، وسخر له الجن حتى بناه من هذه الأصناف» . قال حذيفة : فقلت يا رسول الله : كيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم (بختنصر) وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة وهو قوله تعالى : ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا﴾ . فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء

---

(١) سورة سبأ ، الآيتان رقم ١٢ و١٣ .

والأطفال ، وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف وحملوها حتى أودعوها أرض «بابل» فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعتاب والنكال مائة عام إلى أن رحمهم الله فأوصى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل ، فاستنقذ من بقي من بني إسرائيل من أرض المجوس ، واستنقذ ذلك الحلي الذي كان من بيت المقدس ورده الله كما كان أول مرة وقال لهم :

يا بني إسرائيل إن عدتم إلى المعاصي عدنا إليكم بالسب والقتل وهو قوله تعالى : ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿عسى ربكم أن يرحمَكم وإن عُدتم عدنا﴾ .

فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى ارتكاب المعاصي فسلط الله عليهم ملك الروم «قيصر» وهو قوله تعالى : ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم﴾ فغزاهم في البر والبحر وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم وجميع ما في بيت المقدس(١) .

هذا وقد تنبأ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بخراب الهيكل السليماني قبل خرابه فقال مخاطباً القدس :

«يا أورشليم . . . يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين إليها ، هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً» . والمقصود بالبيت هنا الهيكل ، وقد صدقت نبوءة عيسى عليه السلام فقد استولى الرومان على القدس بعد أربعين عاماً من ميلاده ، وقام هادربانوس بهدم أورشليم للمرة الثانية وذلك في عام ستة وسبعين ، وبنى مكانها مدينة أسماها (إيليا كابيتولينا) أي إيلياء العظمى ، كما أقام معبداً لجوبتر كبير آلهة الرومان محل الهيكل ، وذلك بهدف إزالة أي أثر يهودي في المدينة . وأدى ذلك إلى فرار

---

(١) تفسير الجلالين (على حاشية الجمل) الجزء الثاني صفحة رقم ١٥ .

الكثير من اليهود عن القدس ومنهم بنوقريظة وبنو النضير الذين نزلوا يثرب مع الأوس والخزرج .

ومنذ تهديم الهيكل أصبح اليهود في شتى أماكن وجودهم يحنون إلى إعادة بنائه . وبذلوا قصارى جهدهم لبلوغ هذا الهدف ، وبلغ اهتمامهم حداً كبيراً حتى أن بعض متطرفيهم أسسوا جمعيات ومنظمات في أميركا وأوروبا مهمتها جمع التبرعات المالية لإقامة الهيكل ، بل إنهم استوردوا الأحجار اللازمة من أميركا ونقلوها إلى القدس ، وأعدوا تصاميم هندسية للبناء الجديد من بينها تصميم «أفابونا» الذي أعد نموذجاً مجسماً للهيكل زمن عيسى عليه السلام . واستند في مواصفاته على ما ورد في كتب المؤرخين القدماء وأحبار اليهود والرحالة الأجانب الذين زاروا القدس .

وقد حدد في المجسم موقع الهيكل حيث وضعه في صخرة المسجد الأقصى المبارك (وهذه النظرية يؤمن بها عامة اليهود المتعصبين المؤيدين لفكرة إزالة المسجد الأقصى وبناء هيكلهم المزعوم محله) ولم يبق لهم للشروع في عملية البناء إلا إزالة المسجد الأقصى ، وتلقي التعليمات من أحبار اليهود ومن الحكومة الإسرائيلية وهما لا يزالان يسودهما الاختلاف والجدل حول تحديد مكان الهيكل بالضبط ، ولم تتحد أفكارهما حول هذا الموضوع الشائك[1] .

وبرغم أن هذا الهيكل أو المعبد بني قبل نحو ثلاثة آلاف سنة ، وتم تدميره عدة مرات ، ولم يبق أي أثر من آثاره ، إلا أن اليهود يتخذون اليوم من ذلك الهيكل المباد وسيلة للمطالبة بأحقيتهم في احتلال فلسطين- ومن ضمنها القدس- وهدم المسجد الأقصى المبارك ، وتشييد الهيكل المشؤوم مكانه ، فلا غرابة إذن أن يركز اليهود دائماً على تحقيق

---

(١) مجلة المنهل- مرجع سابق .

هذا الهدف الأسمى على كافة الأصعدة الرسمية وغير الرسمية .

ومن العبارات المشهورة في هذا الشأن مقولة دافيد بن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل : «لا معنى لإسرائيل بدون القدس ، ولا معنى للقدس بدون الهيكل» .

وهناك بعض المؤرخين يشكك في وجود الهيكل أساساً ، وأن قضية الهيكل مفتعلة ويكتنفها الشك في كل مراحلها ، وهي مجرد افتراءات ليس إلا .

وفور احتلالها للقدس العربية (القدس القديمة) عام ١٩٦٧ عمدت السلطات الإسرائيلية إلى إصدار تشريع بتوحيد المدينة المقدسة ، وتم تنفيذ ذلك التشريع على الواقع ، وذلك بالعمل على تحويل المنطقة المحيطة بحائط المبكى إلى مزار قومي إسرائيلي ، وإلى البحث عن آثار المعبد أو الهيكل الثاني عن طريق التنقيب من لدن البعثات الأثرية المتخصصة . وتغلغلت أعمال الحفريات إلى مسافة (٢٣٠) متراً أسفل العقارات الإسلامية التابعة للأوقاف وبعمق عشرة أمتار وبعرض ستة أمتار ، وما محاولة إحراق المسجد الأقصى يوم ٢١ أغسطس عام ١٩٦٩ إلا محاولة مفضوحة للقضاء على المسجد وتشييد هيكل سليماني جديد على أنقاضه يكون «كعبة» عالمية لكافة يهود العالم[١] .

ويجب أن تتضافر كافة الجهود والقلوب والزنود العربية والإسلامية للوقوف في وجه الصليبيين الجدد . ومنعهم من تحقيق أهدافهم الشيطانية ، والإبقاء على عروبة القدس الخالدة ، ودرته الغالية : المسجد الأقصى المبارك .

---

(١) نبيل خالد الآغا ، لن نقول للقدس وداعاً ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٨ .

سليمان الحكيم ينتقل إلى العزيز الحكيم

لأن لكل بداية نهاية . .

ولأن لكل أجل كتاب . .

فقد شاءت إرادة العزيز الحكيم أن تنتهي حياة نبيه سليمان الحكيم ، الذي آتاه ربه ملكاً لم يظفر به إنسان قبله ولا بعده . وعلمه منطق الطيور ، وسخر له الجن والشياطين ، وأطلق تحت تصرفه الرياح والأعاصير ، وأسلمت على يديه بلقيس وقومها ، وقد علا نجمه علواً كبيراً وصاهر فرعون مصر «شيشنق» لكن ملكه انكمش في آخر عهده مقتصراً على غرب الأردن (فلسطين) .

ومثلما كانت حياته زاخرة بالمعجزات والخوارق فقد كانت نهاية حياته مفعمة بالخصوصية والغرابة .

وقد استغل بعض هواة ومحترفي الأكاذيب والشعوذات من الإسرائيليين وأشباههم حادثة موته ، فنسجوا عن هذه الميتة الكثير الكثير من الروايات الموضوعة والمكذوبة في وقت واحد .

ونحن- كمسلمين والحمد لله- لن نخرج بالطبع عن الإيمان فقط بالحقيقة المطلقة التي وردت في سورة «سبأ» عن موت هذا النبي الكريم . والتي صورها الحق في آية بليغة واحدة هذا نصها :

﴿فلما قضينا عليه الموتَ ما دلَّهم على موته إلا دابةُ الأرض (حشرة الأرضة) تأكل مِنْسَأته (عصاه) فلما خرَّ (وقع) تبينت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾[1] .

ولكن . . كيف حدث ذلك؟

لقد علمنا من خلال عرضنا لسيرة سليمان عليه السلام أن الجن كانت مسخرة لخدمته طول فترة حياته ، وبخاصة خدمته لدينه

---

(١) سورة سبأ ، الآية رقم ١٤ .

ولمملكته . ولم تكن قدرة الجن مطلقة ، بل كانت هذه القدرة تقف أمام العلم بالغيب ، فهذه قدرة اختص بها الخالق الأعظم لنفسه فقط دون غيره . . واستمرت الجن في خدمة سليمان باعتباره حياً يرزق . .

فلما مات سليمان لم تعلم الجن بموته . . وظلت قائمة على خدمته .

ولكن كيف عرفت الجن بموت سليمان؟

كان سليمان يعمد إلى الاعتكاف والتفرغ لعبادة الله تعالى ، اتكأ على عصاه أثناء عبادته وتأمله وتسبيحه . . إلى أن جاءه ملك الموت وهو على تلك الحال فقبض روحه .

وظل الجسد السليماني متكئاً على العصا . . لكنه جسد بلا روح . . والله وحده العالم بالمدة الزمنية التي بقي فيها الجسد على تلك الحال . ولن نلتفت أبداً إلى ما نسجته الإسرائيليات حول هذا الموضوع . . لكن واقع الحال يشير إلى أن المدة كانت طويلة . .

وتفصيل ذلك أن جاءت حشرة صغيرة وحقيرةتدعى «الأرضة» وهي المعروفة بالنملة البيضاء وتسللت إلى العصا ، وظلت تنخر فيها رويداً رويداً حتى أفرغتها من مضمونها . ففقدت قدرتها على تحمل الجسد السليماني المتكئ عليها فهوت إلى الأرض وهوى الجسد على أثرها .

وعندما تلقت الجن خبر وفاته في تلك الحالة الفريدة تألموا على موت صاحبها ومن ثم تألموا على طول الفترة الزمنية التي قضوها في عملهم الشاق الذي كان سليمان قد كلفهم القيام به .

ولنعد التأمل في الآية القرآنية الخاصة بهذه الميتة :

﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابةُ الأرض (الأرضة) تأكل منسأته (عصاه) ، فلما خر (وقع) تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ .

هذا وقد خلف سليمان في الحكم الملك «رحبعام» الذي تولى

مقاليد الحكم عام ٩٣٥ ق.م إلا أنه لم يحظ بمبايعة الأسباط ، فمال عنه بنو إسرائيل إلى أخيه «يربعام» مما أدى إلى انقسام المملكة إلى قسمين :

- شمالية اسمها إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس) .
- جنوبية اسمها يهوذا وعاصمتها أورشليم (القدس) .

وقد حكم في كل من المملكتين تسع عشرة ملكاً ، واتصل المُلك في ذرية سليمان في مملكة يهوذا ، فيما تنقل في عدد من الأسر في مملكة إسرائيل .

....



الباب التاسع

نبي الله زكريا

الفصل الأول
زكريا يأكل من عمل يديه

لقد اصطفى الحق تبارك وتعالى «آل عمران» ضمن من اصطفاهم من البيوت العريقة الماجدة ، وجعل منهم بعض الأنبياء والمرسلين وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته .

والسورة الثالثة في ترتيب السور القرآنية تدعي سورة «آل عمران» وهي ثاني أكبر السور وأطولها وبها مائتا آية كريمة وقد نزلت على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة . .

والسورة العمرانية تتضمن - ضمن أمور أخرى - عرضاً لقصة آل عمران كاملة ، وعلاقة البيت العمراني النبيل بالله العزيز الحكيم .

قال الله جل جلاله :

﴿إن اللهَ اصطفى آدمَ ونوحاً وآل ابراهيمَ وآل عمرانَ على العالمين . ذريةً بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ .[1]

وعمران الذي تنسب إليه ذريته هو والد مريم ، أم عيسى بن مريم .

أما نبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام فهو أيضاً أحد أنبياء بني إسرائيل ويقال : إن زوجته تدعى «إيشاع» والتى هي أيضا أمّ نبي الله يحيى عليه الصلاة والسلام ، وأخت مريم ابنة عمران ، أم عيسى عليه السلام فيحيى وعيسي ابنا خالتين والله اعلم . . ولسنا نملك معلومات وافية وشاملة عن نسب النبي زكريا ، لأن القرآن الكريم لم يذكر ذلك من ناحية ، كما أن كتب الانبياء عند أهل الكتاب خلت من ذكر هذا النسب من ناحية أخرى[2] .

---

(١) سورة آل عمران . الأيتان رقم ٣٣ ، ورقم ٣٤

(٢) عبدالرزاق نوفل -يوحنا المعمدان- مطبوعات الشعب- القاهرة

وقد ذكر اسم زكريا في القرآن الكريم ثمان مرات في أربع سور قرآنية ، ومشهور عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يأكل من عمل يده ، وخير الطعام ، كان من عمل اليد ، وقد كان يعمل نجاراً ونجح في عمله وصارت له شهرة واسعة .

وكان للنبي زكريا من اسمه نصيب . . كل النصيب

فزكريا هي (زكر اليا) باللغة التي كانت موضع التخاطب في زمانه ، وهي تعني (من يذكر الله ويطلب من الآخرين ان يذكروا الله ، وكذلك من يذكره الله) .

(فاليا هو الله) وزكر بمعنى ذكر ، فلقد كان من رسل الله وأنبيائه الذين يجاهدون في سبيل الله حق جهاده ، ويدعون الي عبادته وتوحيده ما وسعتهم الطاقة ، وما مكنتهم الاستطاعة ، كان شأنه شأن الآخرين من الأنبياء والرسل ، وفي ذلك يقول الله جل جلاله :

﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين . وإسماعيل والْيَسَعَ ويونسَ ولوطا وكلاً فضلنا على العالمين﴾[1] .

وكانت زوجة زكريا من بنات هارون ، كما أنها أخت زوجة عمران ، أي أنها خالة مريم .

وكانت زوجة عمران تتمنى أن يرزقها الله طفلاً ذكراً ، ونذرت لله أنها إذا حملت لتجعلن ولدها محرراً أي حبيساً ومخصصاً لخدمة المعبد ، يعبد الله حق عبادته ، ويخدم بيته حق خدمته .

قال تعالى في سورة آل عمران :

﴿إذ قالتْ امرأةُ عمران ربِّ إني نذرتُ لك مافي بطني محرَّراً (حبيساً في المعبد) فتقبل منّي إنك أنت السميع العليم﴾[2] .

---

(١) سورة الانعام . الآيتان ٨٥- ٨٦

(٢) سورة آل عمران . الآية رقم ٣٥

وقيل إنها حاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بإذن الله .

ولما وضعت حملها فوجئت بأن المولود أنثى وليس ذكراً كما تمنت .

وأصابها نوع من الإحباط في أول الأمر ، ولكن عندما هدأت نفسها ، وتدبرت في الأمر بروية وحكمة اقتنعت بأن هذه هي إرادة الله تعالى . وأن الله تعالى قد اختار لها الأفضل ، فلعل في الأمر حكمة لا تعرف كنهها ، وسراً تجهل أبعاده .

ولم يثنها ذلك عن تنفيذ نذرها بأن يكون المولود موقوفاً على خدمة بيت الله .

وأطلقت على وليدتها اسم «مريم»[1] وتضرعت لله تعالى أن يحفظها وذريتها من أذى الشيطان الرجيم .

قال تعالي في هذا المعنى :

﴿فلما وضعتْها قالت ربِّ إني وضعْتُها أنثى والله أعلم بما وضعت وليسَ الذكرُ كالأنثى وإني سميتُها مريم وإني أعيذُها بكَ وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ .[2]

ومعنى قوله تعالى : ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ إن قيام الرجل على خدمة بيت الله أكثر كفاءة من خدمة المرأة له .

وكان المتدينون في ذلك الوقت ينذرون بعض أولادهم ليقوموا بالخدمة المجانية في بيوت الله تقربا إليه سبحانه وتعالى .

واستجاب الحق لدعاء زوجة عمران وأم مريم . .

فتقبل ابنتها مريم بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وشاءت إرادته جل جلاله أن تكون مريم أفضل نساء العالمين ، وأن تكون أمًا لنبي

---

(١) مريم : كلمة سريانية معناها «عالية» او مرتفعة .

(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم ٣٦

عظيم كريم وضعته أمه بغير أن يمسها بشر ، وهو عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام[1] .

وهكذا ولدت مريم رضي الله عنها ، منذورة لطاعة الله ، خالصة لعبادة الله ، محررة خالصة لله . محمية بحماية الله .

وكان عمران - والد مريم - قد مات قبل ولادة ابنته مريم ، فلم تكتحل عيناه برؤية وجهها الصبوح .

فلما جاءت مريم وأشرق وجهها النوراني على فلسطين نشب خلاف بين العلماء المتدينين بسبب كفالتها ورعايتها ، كل واحد منهم يريد أن يحظى بشرف تربيتها .

وأراد زكريا عليه الصلاة والسلام أن يستأثر بها دونهم . . وذلك لسببين :

الأول : أنه نبي ذلك الزمان

والثاني : أنه أحق الناس بكفالتها بسبب القرابة الوثيقة التي تربط بين زوجته وبين زوجة عمران . . أي بين اليشاع والياصابات فزوجة زكريا هي خالة مريم .

لكن علماء الدين لم يقنعوا بذلك التعليل . ولو كانوا مقتنعين في قرارة نفوسهم إلا أنهم - بسبب حرصهم على رعاية مريم - صاروا يناورون ويجادلون لعلهم ينجحون في مساعيهم .

ولما اتسعت دائرة الخلاف اقترح أحدهم إجراء قرعة بين من يودون كفالة مريم ، فمن تقع عليه القرعة يحظى بشرف الرعاية وينتهي الخلاف .

---

(١) الملاحظ أن اسم «مريم» هو الاسم الأنثوي الوحيد المذكور في القرآن ، أما النساء الأخريات فإنهن يذكرن في القرآن بألقابهن وكناهن مثل : أم موسى وأخت موسى ، وأخت هاورن ، وامرأة نوح ، وامرأة فرعون وهكذا . . .

وألقى كل منهم قلمه أو سهمه ممهوراً باسمه ، وتجمعت عشرات الأقلام في صندوق ثم جاءوا بغلام وطلبوا منه أن يخرج لهم قلماً واحداً منها ، فاخرج قلماً ، واذا هو قلم زكريا . . ففرح زكريا . . بينما استاء الآخرون وغضبوا . .

ثم اقترحوا إجراء قرعة أخرى أكثر تعقيداً . . فوافق زكريا عن طيب خاطر ، كان طائر الطمأنينة قد حط على قلبه . . وسكن فيه . .

اتفقوا أن يلقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة – في نهر الاردن ، فمن يجري قلمه عكس التيار سيظفر بكفالة مريم وإلا فلا . . .

ففعلوا . . وكان قلم زكريا هو الذي جرى عكس التيار في الوقت الذي سارت فيه أقلام الآخرين مع تيار الماء . .

وأسقط في ايديهم . . ولم يجدوا بداً من التسليم والموافقة على نتيجة القرعة .

وفاز زكريا عليه الصلاة والسلام بكفالة ورعاية مريم ، فقد كان أحق بها شرعاً وقدراً[1] .

وبدأ زكريا في إجراءات الرعاية الأولية لمريم ، وبدأت مريم من جانبها تنفيذ المهمة الموكلة اليها .

اختارت من المحراب مكاناً خاصاً بها تقيم فيه شعائر صلاتها وعبادتها . . وكافة وسائل قربها من الله تعالى . . هذا هو الشق الاول : من مهمتها الإيمانية . .

أما الشق الثاني المكمل للمهمة فتمثل في خدمة المعبد والإشراف عليه . .

وكان زكريا يزورها بين الفينة والأخرى . . وبوجه خاص بعد أن

---

(١) أحمد بهجت ، أنبياء الله ، مرجع سابق .

يفرغ من صلاته وعبادته في المعبد . . كان يعرج إليها للاطمئنان عليها وتقديم أية مساعدة قد تحتاج اليها .

وذات مرة لفت انتباهه شيء لم يعهده .

كان الجو صيفياً حاراً ، ولما فرغ من صلاته عرج إليها وإذا به يرى إلى جوارها فاكهة شتوية ناضجة لا تنضج عادة إلا في فصل الشتاء .

ولم يكن يومئذ العلم متقدماً كما هو الحال اليوم ، حيث تتوافر كافة أنواع الفواكه في كافة فصول السنة نتيجة التقدم المذهل في وسائل المواصلات وتقنيات الحفظ والتخزين .

وتكرر المشهد ثانية مع زكريا في فصل الشتاء ، كان الجو شتوياً بارداً ، ولما فرغ من عبادته عرج إليها وإذا به يرى إلى جوارها فاكهة صيفية ناضجة لا تنضج عادة إلا في فصل الصيف فعجب لهذا الأمر أيما عجب .

ولما تكرر المشهد أمامه تجرأ ذات مرة وسألها :

من أين لكِ هذا الخير كله يا مريم؟

فردت عليه مباشرة وفي وثوق وبساطة المؤمنة : إنه رزق رزقني الله إياه فالله يرزق من يشاء من عباده بغير حساب وبغير اسباب .

ولا شك أن نبي الله زكريا يعلم هذه الحقيقة تمام العلم لأن الإيمان بها جزء من رسالته النبوية العظيمة وهو يؤمن بها تمام الإيمان ، ولكنه لم يمارسها ممارسة عملية ، ولم يرها مجسدة أمامه وبهذه الصورة الجلية إلا مع مريم ، وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿فتقبَّلها ربها بقَبول حسنٍ وأنبتها نباتا حسنا وكَفَّلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجدَ عندها رزقا قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ .[1]

---

(١) سورة آل عمران– الآية رقم ٣٧

برغم الجهود الجبارة التي بذلها نبي الله زكريا في تقويم الاعوجاج السلوكي في نبي اسرائيل ، إلا أنه لم يفلح في تحقيق هدفه ، بل تعرض هو شخصياً إلى أذى حكامهم وجبابرتهم ، وتوالت عليه المحن والشدائد ، في الوقت الذي كبرت سنه ، ووهن عظمه ، واشتعل رأسه شيباً ، ولم يعد به طاقة لتحمل المزيد من الأذى والألم ، وتزامن هذا الوضع الشخصي مع الوضع العام في المجتمع الإسرائيلي حيث خشي هذا النبي الكريم على أبناء ذلك المجتمع أن يضلوا ويفتنوا بعد وفاته ، وهو الذي أمضى حياته كلها في هدايتهم ، فتوسل إلى ربه عز وجل أن يرزقه ولداً صالحاً يؤازره في شيخوخته ، ويخلفه في تبليغ الرسالة السماوية . ولا يتركه وحيداً فريداً يجابه أهوال الحياة . وكانت زوجته عاقراً وهي كذلك بلغت من العمر عتياً ، وغير مؤهلة من الناحية الفسيولوجية للحمل والإنجاب ، لكن الاستحالة مفقودة في قاموس العظمة الإلهية ، فالله الذي يرزق مريم بالفاكهة في غير مواسمها قادر أن يرزقه ولداً في غير موسمه وأوانه و(هنالك دعا زكريا ربه) وأرجو أن نقف معا عند كلمة «هنالك» في قوله تعالى : ﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ ، وهي لفظة معبرة موحية بمعنى أن زكريا عندما رأى فناء الأسباب الظاهرة عند مريم ووجد عندها هذا اليقين في قدرة الله على خرق أسباب الحياة الظاهرة ، وأن يجري أموراً على غير ما ألف البشر من وسائل وأسباب ورأى مريم تقرر ذلك في وثوق المؤمن الذي مر بالتجربة عملياً في واقع الحياة . . وهنالك فقط توجه زكريا بالدعاء إلى ربه ان يرزقه ذرية طيبة[1] وزكريا كان أكرم على الله من أن يرد دعوته ، وأعز عليه من أن يخيّب رجاءه .

وما كاد زكريا ينادي ربه نداءً خافتاً حتى استجاب له ربه فوراً ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب وبشرته بأن الله استجاب

(١) محمد شديد ، منهج القصة في القرآن ، مرجع سابق ص٩٧

لدعائه وسيرزقه بغلام اسمه يحيى لا شبيه له من قبل ولا مثيل .

تقول اللوحة القرآنية المكملة للآيات السابقة :

﴿هنالك دعا زكريا ربّه قال ربِّ هبْ لي من لدنكَ ذرية طيبةً إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكةُ وهو قائم يصلي في المحراب . إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحَصوراً (لا يأتي النساء تعففاً) ونبياً من الصالحين . قال رب أنّى يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر . قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾[1] .

وهناك لوحة قرآنية بليغة أخرى وردت في مطلع سورة «مريم» تضمنت تأكيداً على الآيات السابقة التي وردت في سورة آل عمران ، بشأن توسل زكريا عليه الصلاة والسلام إلى ربه بأن يرزقه الذرية الصالحة ، فاستجاب ربه لدعائه :

﴿ذِكْرُ رحمةِ ربك عبدَه زكريا . إذ نادى ربَّه نداءً خفيا (دعاء مستورا عن الناس) . قال رب إني وَهَنَ العظم (ضعف) مني واشتعل الرأس شيْبا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا (خائبا في وقت ما) . وإني خفتُ الموالي[2] (أقاربي العصبة) من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا (ابنا يلي امري بعدي) . يرثني ويرثُ من آل يعقوبَ واجعله رب رضيا . يا زكريا انا نبشركَ بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً (حالة لا سبيل إلى علاجها) . قال كذلك قال ربكَ هو عليّ هيّنٌ وقد خَلَقْتُكَ من قبل ولم تك شيئاً﴾[3] . .

---

(١) سورة آل عمران الآيات من رقم ٣٨ الى رقم ٤٠

(٢) كان مواليه عصبة إخوته وبنو عمه شرار بني إسرائيل ، فخافهم على الدين أن يغيّروه ، ويبدلوه وألا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقباً من صلبه صالحاً يقتدي به في إحياء الدين (الكشاف ٢-٢)

(٣) سورة مريم من آية رقم ٢ إلى آية رقم ٩

وطلب زكريا من ربه ان يجعل له علامة وآية على وجود الإنجاب ، وهذا الطلب نوع من القلق النفسي مردُّه شدة ظمئه وتلهفه على الذرية بعد شدة يأسه وقنوطه من تحقيقها . . . نوع من الاطمئنان النفسي ليس إلا .

فاستجاب الله لرغبة نبيه . . وأخبره أنه ستجيء عليه ثلاثة أيام متتالية لا يستطيع فيها الكلام ، وبإمكانه حينئذ أن يتحدث إلى الناس بالإشارة وأن يسبّح في الصباح والمساء ، وأن يأمر الناس بدوام التسبيح لله ايضاً .

قال الحق تبارك وتعالى في هذه المعنى :

﴿قال ربِّ اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلمَّ الناسَ ثلاثَ ليال سوياً . فخرجَ على قومه من المحراب فأوْحى إليهم أن سبِّحوا بُكرةً وعشياً (طرفي النهار)[1]﴾ . . . ونفس المضمون ورد في سورة آل عمران في قول ربنا :

﴿قال (زكريا) ربِّ اجعل لي أية قال آيتك ألا تكلمَّ الناسَ ثلاثة ايام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشيّ والإبكار﴾[2] . .

وبدأ العد التنازلي لتنفيذ الإرادة الرحمانية .

فحملت «الياصابات» زوج زكريا «أشياع بنت عمران» أخت مريم بنت عمران ، وزادت من قربها إلى الله تعالى . . . . شكراً وتسبيحاً وصلاة .

واخيراً . . تحقق الأمل وتجسدت المعجزة الإلهية فجاء يحيى ، وفرح به أبواه فرحاً عظيماً . .

وشاءت إرادة الله أن تنتهي حياة زكريا بعد أن اطمأن قلبه وهدأت

---

(١) سورة مريم ، الأيتان ١١ ، ١٢

(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم ١٠

نفسه ، لقد قتلته السلطة الرومانية الحاكمة مع سبق الإصرار والترصد ومات شهيداً .

ولكن كيف تم ذلك؟

تقول بعض الروايات التاريخية أن إبليس تنكر على هيئة رجل ناصح وأشاع في مجالس بني إسرائيل أن زكريا عليه السلام - كافل مريم - هو الذي واقع مريم عليها السلام فحملت منه . وبالتالي فإن زكريا هو والد عيسى عليه الصلاة والسلام . فهاج بنو إسرائيل وصاروا يبحثون عن زكريا لينتقموا منه .

وسمع زكريا من جانبه ما افتري عليه ، وسمع في ذات الوقت عن مقتل ابنه يحيى عليه السلام . فأيقن أنه مقتول لا محالة ، ففر من خصومه . والتجأ إلى بستان واسع ، وبينما هو يسير فيه سمع صوتاً يناديه من داخل إحدى الشجرات .

قالت له الشجرة : يا نبي الله إن الأعداء يبحثون عنك وسيصلون اليك بعد وقت وجيز ، فتعال فادخل إلى جوفي لأحميك من بطشهم ، وانفتح جذع الشجرة فدخل زكريا فيه ، ثم أطبقت الشجرة عليه .

وتقول احدى الروايات : إن إبليس اللعين كان حاضراً في تلك اللحظة ، فأخذ طرف رداء زكريا وأخرجه من خلال شق الشجرة خلسة ومضى لحال سبيله فالتقى مع الجند الباحثين عن نبي الله ، فأخبرهم أنه شاهد زكريا وهو يسحر الشجرة ودخل في جوفها هرباً منهم ، فدلهم عليها وأطلعهم علي طرف رداء زكريا ، فأخذ الجنود المنشار الضخم وشقوا الشجرة إرباً إرباً ومات نبي الله بداخلها ، والله تعالى أعلم بصدق هذه الرواية من عدمه .

ولكن أين دفن نبي الله زكريا؟

كالعادة المتبعة في تحديد أمكنة وجود أضرحة الغالبية العظمى من

أنبياء الله الكرام فقد اختلف المؤرخون والباحثون في تحديد ضريح زكريا .

فالبعض يرى أن الجسد موجود في الجامع الأموي بمدينة حلب السورية ، والبعض يرى أن الموجود بالضريح رأس زكريا وليس جسده ، ويذكر آخرون أن الموجود هو رأس يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام .

وهناك رأي بأن رأس النبي يحيى مدفون بالمسجد الأموي بدمشق ولا يزال مدفوناً في مكانه .

ويرد على هذا الرأي باحثون آخرون فيرون أن هذا كلام صحيح ، ولكن حينما احترق المقام النبوي إبّان الغزو التتاري للشام عام ٦٥٩ هـ تم نقل رأس يحيى بن زكريا إلى المسجد الأموي الكبير بحلب ودفن فيه .

والمهم أن بالجامع الاموي أثراً نبوياً شريفاً والناس يتبركون به ويدعون ربهم أمامه ، وينذرون له النذور وهذا من البدع .

وسلام الله عليك يانبي الله زكريا . . وعلى كافة إخوانك الأنبياء والمرسلين ورحمة الله وبركاته .

الباب العاشر

نبي الله يحيى

الفصل الأول
يحيى . . . صوت صارخ في البرية

. .و جاء يحيى على ظمأ شديد من والديه إلى الذرية الصالحة . .

وفرح «زكريا» العجوز وزوجه ، العاقر ببشارة الملائكة لهما بميلاد «يحيى»

ولم يفكرِ في ايجاد اسم له . . فقد سماه ربه مسبقاً حتى قبل أن يصير مضغة في رحم أمه . . سماه «يحيى» ولم يجعل له من قبل سمياً ولاشبيهاً . .

قال تعالى في سورة مريم :

﴿يا زكريا إناّ نبشركَ بغلامٍ اسُمُه يحيى لم نجعلْ له من قبل سميًا﴾ .

وقال تعالى أيضاً في سورة آل عمران :

﴿فنادته الملائكُة (زكريا) وهو قائمٌ يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيى مُصَدِّقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً (لا يأتي النساء تعففا) ونبيا من الصالحين» .

وكما أكرم الله والديه بميلاده ، فقد أكرمه شخصياً أيضاً بتعليمه الكتاب والحكمة وهو صغير السن ، فصار بارعاً وعالماً بالشريعة الموسوية .

وزاد الله في إكرامه فسكب الحنان والعطف في قلبه ووجدانه ، فبر والديه ، وأحب الناس جميعاً فبادلوه الحب جميعاً .

ثم زاده إكراماً فجعله نبياً من الصالحين . . وصار يحيى نموذجاً فذاً في العبادة والنسك والتقرب إلى الله تعالى بشتى الطرق ومختلف الوسائل ، وحياه ربه بالسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المتضمنة للمعاني السابقة :

﴿يايحيى خذ الكتابَ بقوة وآتيناهُ الحكمَ صبيًا . وحناناً من لدُنّا وزكاةً وكان تقياً (مجتنبا للمعاصي) . وبراً بوالديه ولم يكنْ جباراً عصيًا (متكبرا مخالفا لربه) وسلام عليه يوم وُلدَ ويوم يموتُ ويوم يُبْعثُ حيا﴾ .[1]

وانتهج يحيى أسلوب الخلوة النفسية في البرية تقرباً إلى الله تعالى بعيداً عن صخب الحياة وضجيجها ، وقد ازدادت عزلته بعد وفاة أمه ، وتعمق في الصحراء والوحدة . . فأكل الجراد الصحراوي ، وتغذى على العسل البري ، وتساءل في ثقة وسعادة : من أسعد منك يايحيى؟!

ويروى في هذا المضمار أن أبا ادريس الخولاني كان يقص على جلسائه سيرة يحيى وقد أصبحت تلك السيرة مضرب الأمثال فيما بعد ، فقال لهم : ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه بدهشة قال لهم :

إن يحيي بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً ، انما كان يأكل مع الوحوش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم!

وذكر ابن المبارك عن وهب بن الورد قوله :

فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية ، فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه فقال له : يابني . . أنا أطلبك منذ ثلاثة أيام وأنت في قبر احتفرته قائماً تبكي فيه؟

فقال له : يا أبت . . ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين؟

فقال له : ابك يابني ، فبكيا معاً .

وذكروا أنه عليه الصلاة والسلام كان كثير البكاء حتى ترك البكاء أثراً في خديه من كثرة تهطال دموعه!

وترك يحيي البرية مؤقتاً بعد أن فك طوق العزلة عن نفسه ، وهبط

(١) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٢ الى رقم ١٥

القدس لينشر دعوته بين الناس ، والتقى ذات مرة بابن خالته عيسى بن مريم فقال عيسي ليحيى : أرجوك أن تستغفر الله لي لأنك خير مني ، فأجابه يحيى : بل أرجوك أن تستغفر لي الله لأنك خير مني .

فقال له عيسى : أنت خير مني بدليل أنني سَلَّمْتُ على نفسي أما أنت فقد سلم الله عليك ثلاث مرات .[(1)]

وروي عن خيثمة قال : كان عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ابني خالة ، وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الوبر ، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ، ولا أمَة ولا عَبدْ ، ولا مأوى يأويان إليه ، أينما جنّهما الليل أويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى : أوصني . قال : لا تغضب . قال : لا أستطيع إلا أن أغضب . قال : لا تقتن مالاً . قال : أما هذه فعسى»[(2)] .

ويقال ان رسولنا المصطفى صلى الله عليه وآله خرج على أصحابه يوما وهم يتذاكرون أفضل الأنبياء ، فقال قائل : موسى كليم الله . وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته . وقال قائل : إبراهيم خليل الله . وهم يذكرون ذلك فقال : «ابن الشهيد ابن الشهيد ، يلبس الوبر ، ويأكل الشجر ، مخافة الذنب» . وكان يقصد يحيى بن زكريا عليه وعلى نبينا الهادي افضل الصلاة والسلام .

هذا ولم يؤثر عن نبي قط أنه لبس الوبر وأكل الشجر مخافة الذنب سوى يحيى بن زكريا .

. . . .

قام يحيى بدعوة بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له ،

---

(١) يقصد بذلك قول الله تعالى ليحيى : «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً» .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية جـ٢ ، ص ٥٢ .

قال للناس الذين اكتظ بهم بيت الله في القدس :

إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم كذلك ان تعملوا بهن إذا أردتم الظفر برضى الله تعالى :

اولاً : ان تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، فمن أشرك بالله وعبد غيره فهو مثل عبد اشتراه سيده بحر ماله ، ثم راح يؤدي ثمن عمله إلى سيد آخر غير سيده الحقيقي فأيكم يحب أن يكون عبده كذلك؟

ثانياً : وأمركم بالصلاة فإن الله نظر إلى عبده وهو يصلي ، ما لم يلتفت عن صلاته ، فإذا صليتم فاخشعوا في صلاتكم .

ثالثا : وأمركم بالصيام . . فإن مثل الصائم كمثل رجل معه «صرة» من مسك زكي الرائحة ، كلما سار هذا الرجل فاحت منه رائحة المسك المعطر ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

رابعا : وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره الأعداء ، فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه فقال لهم : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟

فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

خامساً : وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه أعداؤه فأسرع وتحصن في حصن مكين فأغلقه على نفسه إلا وإن أعظم الحصون وأقواها ذكر الله عز وجل[1] .

وإضافة إلى كل هذه المواعظ فقد كان يحيى عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى التوبة النصوح وكان يعمدهم أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا والأثام ، وقد اعتمد منه السيد المسيح ، لذلك فهم يطلقون على يحيى اسم «يوحنا المعمدان» ، ويوحنا كما نعرف هو

---

(١) رواه الإمام أحمد .

نفسه يحيى . وسأله اليهود ذات مرة : هل أنت المسيح؟ فأجابهم قائلاً : لا فسألوه ثانية : هل أنت النبي؟ فأجابهم : لا . فقالوا له عندئذ : لماذا تعمد «تغسل» إذا لم تكن المسيح ولا النبي؟

فأجابهم بثقة ، أنا صوت صارخ في البرية هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمة .

لقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على تعميد التائبين في الماء حتى يشعروا بأنهم قد تجردوا من الخطايا والذنوب ، وبدؤوا حياة جديدة نظيفة لاتشوبها شائبة .

كان حريصاً على تربية بني إسرائيل وإصلاحهم وهدايتهم وكان يوضح لهم بجلاء ووضوح أن إحسانهم في العمل واستقامتهم في السلوك دليل على حسن توبتهم ولايعتمدون في ذلك على أصولهم وأحسابهم وأنسابهم . فقد خلقهم الله تعالى ليعبدوه لا ليعصوه ويخطئوا اعتماداً على صلتهم بأبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام فكل إنسان سيحاسب على عمله ولن يشفع له جاه أو منصب أو سلطان .

وورد في إنجيل «لوقا» في الأصحاح الثالث ماقاله يحيى في هذا الشأن : .

وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه :

يا أولاد الأفاعي من أراكم ان تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبا لأني أقول لكم ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة اولاداً لإبراهيم ، والآن قد وضعت الناس على أصل الشجر فكل شجرة لاتضع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار .

وهذا المعنى تقريباً ورد في قرآننا الكريم وفي عدة مواضع منها ما ورد في سورة الممتحنة حيث قال العزيز الحكيم :

﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامةِ يَفصلُ بينكم واللهُ بما تعملون بصير[1]﴾ .

وكذلك قوله تعالى في سورة الشعراء :

﴿يوم لاينفع مال ولابنون الا من أتى اللهَ بقلب سليم[2]﴾ .

يُروَى أن سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام ، رأى إبليس سائراً في الطريق فقال له : ما هذه الأشياء التي عليك؟ فقال إبليس : هي التي أزين للناس وأغويهم وأضلهم بها . فقال له يحيى : هل في هذه الأشياء التي معك شيء يخصني تريد أن تضلني أو تغويني به؟ قال : نعم . فقال يحيى عليه السلام : وما هو؟ قال : إذا جلست إلى الطعام أزينه لك فتأكل وتأكل حتى تمتلئ بطنك فتتكاسل عن عبادة الله تعالى .

فقال يحيى عليه السلام :

لله عليّ ألا أشبع بعد اليوم . .

فندم ابليس على نصيحته وقال ليحيى :

لله عليّ ألا أنصح أحداً بعدك!

استشهاد نبي الله يحيى

كان يحيى جريئاً في الحق شديداً على الباطل لايخشى في ربه لومة لائم ولاجبروت حاكم .

وربما كانت المفردة الأخيرة سبب مأساته فقد دفع حياته ثمناً لكلمة حق نطق بها قلبه وهتف بها لسانه .

فكيف كان ذلك؟

قيل إن ملك فلسطين في ذلك الزمان ـ هيرودوس ـ كان ظالماً جواظاً

(١) سورة الممتحنة ، الآية رقم ٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الايتان رقم ٨٨ ، ٨٩ .

لا يخشى في الظلم لومة لائم ولا يخشى في مصلحته عتاب عاتب .

هذه كانت صفاته التي عرفه الناس بها .

وإنسان يتصف بكل هذه الرزايا لا يمكن أبداً أن ينسجم سلوكه المعوج مع سلوك النبي النقي يحيى .

تقول الرواية المختصرة إن الملك المستهتر عشق إحدى محارمه وهام بها تهياما كاسحاً ولم تكن بعيدة عنه فهي زوجة أخيه وتدعى «هيروديا» وكانت تماثله في فسقها وفجورها وبعدها عن الصراط المستقيم .

وكانت لها ابنة شابة تدعى «سالومي» واشتهرت بجانب فسوقها بتفوقها على قريناتها بالرقص .

وأراد الملك الفاسق أن يحصل على فتوى من الناسك المتعبد يحيى بن زكريا تجيز له الزواج من «هيروديا» زوجة أخيه الماجنة برغم أن أخاه «فيليبس» مازال حياً يرزق!

واعترض يحيى اعتراضاً شديداً على مثل هذا الزواج الذي تحرمه كافة الشرائع والقوانين .

فاغتاظ الملك . . واغتاظت هيروديا وأمها ، وهددوا يحيى بالويل والثبور وعظائم الأمور ، واتفقوا على إقامة حفل بمناسبة عيد ميلاد الملك .

وللمرء حرية تصور الجو الموبوء الذي جرى فيه الاحتفال الذي لم تراع فيه حرمة ولم يحترم فيه مبدأ ولا فضيلة .

وطلب الملك من سالومي أن تقدم وصلتها الراقصة حتى تتم البهجة ويعم السرور .

لكنها أظهرت نوعاً من الغنج وقالت له : أريد منك أن تكمل بهجتنا بإحضار رأس يحيى بن زكريا ليكون ملهماً لي على إبداع الرقص وإجادته . أريد أن أرى رأسه على المائدة الملكية ، فتردد الملك

هنيهة ، ثم أصدر أوامره لعساكره وضباطه بقتل يحيى .

فانطلقوا إليه ، فوجدوه يصلي وهوت السيوف الآثمة على الجسد الطاهر «وتشقق قلب الصخور حناناً على النبي العظيم وهو يمضي إلى الشهادة» وذُبح كما تذبح النعجة ، وقدم المجرمون رأسه في طبق وقدموه للعينة سالومي التي رقصت أمام رأس يحيى ، ولكنها استنزلت لعنة الله عليها وعلى بني إسرائيل إلى يوم الدين .

ومضت الايام وانتقم الله من عصبة الفجور والطغيان ، وعاش زكريا في رحاب الخلود إلى يوم الدين ، وعاش هيرودس وكلوديا وسالومي في مزبلة التاريخ ، ومأواهم جهنم وبئس المصير ، وفيهم وفي أشياعهم قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ان الذين يكفرونَ بآيات الله ويقتلونَ النبيينَ بغير حق ويقتلونَ الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حَبطتْ أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾[1] .

وقال الحق تبارك وتعالى أيضاً في سورة المائدة :

﴿لقد أخذنا ميثاقَ بني اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلاً كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾[2] . .

لقد تجر أحكام بني إسرائيل على قتل أنبياء الله ، وهم بهذا العمل الهمجي غير المسبوق اول من سنّ هذه السنّة السيئة لذلك أضحى «قتل الأنبياء» شعاراً لهم ، وفيهم قال الحق تبارك وتعالى : ﴿أفكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفُسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم ، وفريقاً تقتلون﴾ .

وأوجز إنجيل متى في الفصل الرابع عشر القصة السابقة في

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٢،٢١

(٢) سورة المائدة الآية رقم ٧٠

السطور التالية :

كان هيرودس قد قبض على يوحنا (يحيى) وأوثقه ثم ألقى به في السجن بسبب هيروديا زوجة أخيه فيلبس لأن يوحنا (يحيى) كان يقول له : لا يحل لك أن تأخذها زوجة لك ، وقد كان يريد قتله ، لكنه خاف من الشعب لانهم كانوا يعدونه نبياً .

فلما كان الاحتفال بميلاد هيرودس رقصت ابنة هيروديا في الوسط أمام المدعووين فأعجبت هيرودس ومن ثم أقسم واعداً إياها بأنها مهما طلبت يعطها ، وإذا كانت أمها قد سبق أن لقنتها قالت :

اعطني هنا رأس يوحنا المعمدان في طبق ، فاكتأب الملك ولكنه من اجل القسم والجالسين معه إلى المائدة أمر بإعطائها إياه ، وأرسل فقطع رأس يوحنا في السجن ، وجيء برأسه في طبق وقدم للفتاة فجاءت به إلى أمها» .

وقام تلاميذ يحيى الأجلاء فدفنوا جثته وقد شعروا بالوحشة والضياع على فراقه ، فبعث الله تعالى عيسى بن مريم ليكمل الرسالة . ويتابع الوعظ والهداية ، فتبعه خلق كثير إلى أن دبر اليهود مؤامرة دنيئة لقتله لكن الله رفعه إلى السماء ونجاه من كيدهم وغدرهم ، كما سنرى ذلك مفصلاً في الصفحات التالية .

وهكذا مات يحيى ، وقام عيسى ، نبيان كريمان ، ابنا خؤولة . . ومعجزتا ولادتيهما متقاربتان والفارق العمري بينهما نحو خمسة أشهر : فلقد حملت العذراء مريم بعيسى بأمر الله وبدون رجل بعد أن حملت زوج زكريا بيحيى بهذه الشهور الخمسة .

وقد ولدا لا كما يولد الناس ، فيحيى ولد من أم غير صالحة للانجاب ومن أب غير قادر عليه . وعيسى ولد من أم صالحة للإنجاب ولكن بغير أب .

وأخيراً . لابد من إضافة أخيرة قد تكون مفيدة فهناك طائفة ، تدعى «طائفة الصابئة المندائية» تعتبر النبي يحيى عليه الصلاة والسلام نبياً لها ، وهي الطائفة الصابئة الوحيدة الباقية إلى الوقت الحاضر ، ويقدس أصحابها الكواكب والنجوم ويعظمونها ، ويعتبر الاتجاه نحو نجم القطب الشمالي وكذلك التعميد في المياه الجارية من أهم معالم هذه الديانة التي يجيز اغلب فقهاء المسلمين أخذ الجزية من معتنقيها أسوة بالكتابيين من اليهود والنصارى ويزعمون أن يحيى عليه السلام هو نبيهم الذي أرسل لهم .

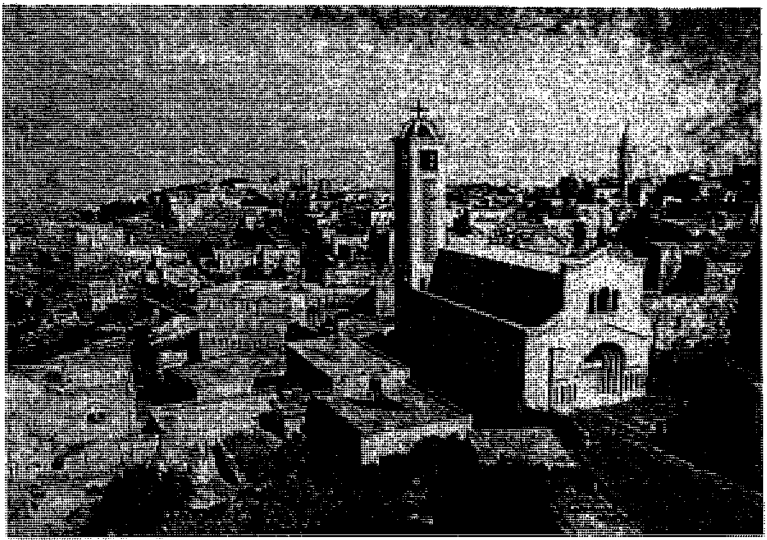
والصابئة المندائيون الحاليون ينتشرون على الضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات وكذلك في منطقة الأهوار وشط العرب ، ويقدر عددهم بأكثر من عشرة آلاف نسمة[1] . .

وتحية لنبي الله يحيى ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا﴾ .

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة -الندوة العالمية للشباب الإسلامي- الرياض/ ١٩٨٨م .

الباب الحادي عشر

نبي الله .. عيسى



بيت لحم



الناصرة

الفصل الأول
عيسى . . . عبدالله وكلمته ورسوله

تعرفت على هذا النبي الكريم في وقت مبكر من حياتي . . وأحببته بعد ذلك التعارف . .

تعرفت عليه معرفة وطيدة . . وذلك من خلال محبتي وتعاطفي مع أمه العفيفة الطاهرة مريم ابنة عمران . . ومتابعتي لقصة حياتها وحياة وليدها عيسى ، وحفظت مبكراً أيضاً كثيراً من الآيات القرآنية التي تضمنتها سورة «مريم» عندما كنت أتلوها على مسمع من جدي الهرم الضرير فيكافئني على إجادة تلاوتها!

ومنذ ذلك الوقت المبكر من فجر الحياة نما حب مريم وابنها في وجداني .

وعندما أتيحت الفرصة الأولى لزيارة مدينة بيت لحم- مسقط رأس السيد المسيح- عام ١٩٨٥ ، توجهت رأساً إلى كنيسة المهد التي ولد فيها عليه الصلاة والسلام .

وعندما تجولت في أبهائها شعرت برهبة وخشوع ، ولم أدر ما أقول ، كنت أحفظ عبارة واحدة من الإنجيل ، فأردت أن أقولها في تلك اللحظة ، لكن الذاكرة لم تسعفني حتى في استحضارها!

وفي مغارة المهد لم أجد تقديراً وإعظاماً لابن مريم عليه الصلاة والسلام أعظم من أن أقرأ «الفاتحة» على روحه الطاهرة ، ثم أترحم عليه ، إنها فطرة حب الأنبياء جميعاً التي فطرنا الله تعالى عليها ، وتلوت قوله تعالى :

﴿والمؤمنونَ كلٌ آمن بالله وملائكته وكتُبِه ورُسلِه لا نُفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥

ولكن . . ماذا عن المسيح وظروف ولادته ونشأته ودعوته؟ . .

عيسى عليه الصلاة والسلام . . .

هو عبدالله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . .

وهو آخر أنبياء بني إسرائيل . وليس بينه وبين نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أي نبي أو رسول .

ذكر اسمه في القرآن الكريم بلفظ «المسيح» وهو لقبه ، وذكر أيضاً باسم عيسى ، وهو بالعبرية «يشوع» أي المخلّص بمعنى أنه كان سبباً في تخليص بعض المخطئين من أخطائهم ، وورد أيضاً بكنيته «ابن مريم» وسميت هذه الديانة بالمسيحية نسبة إلى يسوع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذي بشّر بها ودعا إليها .

وقال العلماء : سُمّي المسيح مسيحاً لمسحه الأرض وسياحته فيها ، وفراره بدينه من فتنة ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له ، وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام .

وورد اسم المسيح في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة باسم عيسى . وإحدى عشرة مرة باسم المسيح ، تضمنتها ثلاث عشرة سورة .

كما خصص القرآن الكريم لاثنين من الشخصيات المتصلة بعيسى بن مريم سورتين كاملتين من سور القرآن الـ١١٤ هما سورة آل عمران ثاني أطول سورة بعد البقرة وتشمل مائتي آية ، وكذلك سورة مريم وعدد آياتها ثمان وتسعون آية .

بل إن سورة المائدة أخذت اسمها من المائدة التي طلبها المسيح عليه الصلاة والسلام من ربه بناءً على رغبة حوارييه .

قال الحق تبارك وتعالى في سورة المائدة :

﴿إذ قال الحواريون (أنصار عيسى وخواصه) يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة (خوان عليه طعام) من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا

ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . . ﴾[1] .

وكان اهتمام الإسلام بنبى الله عيسى واضحاً عند الاهتمام القرآني كما أن ذلك واضح أيضاً فى اهتمام رسولنا المصطفى به وبرسالته .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

«الأنبياء إخوة ، دينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أوْلى الناس بعيسى بن مريم فليس بيني وبينه نبي» .

وقد ورد في الآثار أن عيسى سوف ينزل في آخر الزمان . . .

. . . وامتد الاهتمام الإسلامي بعيسى امتداداً واسعاً . . ويكرمه تكريماً كريماً يليق بنبي من أولي العزم من الأنبياء .

القرآن يسميه عدة أسماء . . فهو رسول الله ، وكلمة الله ، وروح منه ، وعبدالله ورسوله . . ولكن حذار أن يفعلوا أبعد من تلك الحدود :

تقول اللوحة القرآنية في سورة النساء :

﴿يا أهل الكتاب لا تَغْلوا (تبالغوا) في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيحُ عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروح منه ، فآمنوا بالله ورسُله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحدٌ سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً .

لن يستنكف (لن يترفع أو يستكبر) المسيح أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبر فسيحشُرهم إليه جميعاً .

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفِّيهم أجورَهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبَروا فيعذبُهم عذاباً أليما ولا يجدون

---

(١) سورة المائدة ، الآيتان رقم ١١٢ ، ١١٣

لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾[1] .

ويؤكد القرآن الكريم على عدم تجاوز حدود عبودية عيسى ، ويرفض كلية مسألة تأليه هذا النبي الكريم ، ومن يفعل ذلك فهو كافر حتماً وبكل المقاييس والمعايير : تقول اللوحة القرآنية بهذا الخصوص :

﴿لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملكُ من الله شيئاً إن أراد أن يُهْلك المسيحَ بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾[2] .

سبق وأشرنا في معرض حديثنا عن سيرة نبي الله زكريا أنه عليه الصلاة والسلام تكفل برعاية مريم باعتباره نبياً وباعتباره زوجاً لخالة مريم ، وقدم لها كافة أنواع الرعاية والخدمة ، وهكذا نشأت مريم نشأة طهر وعفاف بإشراف نبي الله وفي بيت الله ، وفي رعاية الله .

وبينما كانت تتعبد كعادتها ، جاءها وحي السماء جبريل عليه السلام على هيئة شاب في مقتبل شبابه ، فأصابها الرعب ، وظنت به سوءاً ، واستعاذت منه محتمية بالله تعالى . ولكنه هدّأ من روعها ، وطمأنها وأخبرها بأن الله سبحانه وتعالى قد اصطفاها واختارها من بين سائر نساء زمانها ، وأنه قد جاء ليهبها غلاماً زكياً!

وعبرت عن عجبها بقولها له : كيف يأتيني غلام ولم يقترب مني إنسان ولست بغية؟!!

فقال لها الروح الأمين مطمئناً : هذا هو أمر الله يا مريم ، وهذا الأمر المستغرب عندك هو عند الله هين وسهل . وقد سبق له تعالى أن خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، ويخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . .

وسيجعل الله غلامك آية للناس ودليلاً على عظمة الله تعالى .

(١) سورة النساء الآيات من رقم ١٧١ إلى رقم ١٧٣

(٢) سورة المائدة ، الآية رقم ١٧

وسيرحم به العباد بأن يدعوهم إلى عبادة الحق في صغره وكبره وكهولته ، ويقصروا العبادة لله وحده لا شريك له ، وينزهوه عن اتخاذ الشركاء والأولاد وسمى جبريل الأمين لمريم كذلك اسم ذلك الغلام مسبقاً . والمهمات التي سيضطلع بها ، وأنه سيكون وجيهاً ومرموقاً في الدنيا والآخرة ، وأنه كذلك سيكون قادراً- بإذن الله- على الكلام مع الناس وهو ما زال طفلاً .

إضافة إلى قدرته على فعل ذلك وهو في حال الرجولة ، فاستكانت مريم وسلمت أمرها إلى الله ، واعتبرت ذلك محنة وابتلاءً ورحمة منه تعالى . . فهي ستكون مادة خصبة لكلام الناس عليها[1] . وهذه قراءة في لوحتين قرآنيتين تتضمنان المعاني السابقة .

والقراءة الأولى من سورة «مريم» :

﴿واذكر في الكتابِ مريَم إذ انتبذتْ (اعتزلت وانفردت) من أهلها مكاناً شرقياً .

فاتخذتْ من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحَنا (جبريل عليه السلام) فتمثل لها بشراً سويًا (إنساناً كاملاً) .

قالت إني أعوذُ بالرحمن منكَ إن كنتَ تقياً .

قال إنما أنا رسول ربك لأهبَ لكِ غلاماً زكياً (مزكّى مطهراً بالخلقة) .

قالت : أنّى (كيف) يكونُ لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بَغِيًّا (فاجرة) .

قال : كذلك قال ربك هو عليّ هيّنٌ ولنجعله آية للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضيا﴾[2] .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية من سورة «آل عمران» :

---

(١) أنبياء الله – مرجع سابق .

(٢) سورة مريم الآيات من رقم ١٦ إلى رقم ٢١

﴿وإذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إن اللهَ اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك (أخلصي العبادة وأديمي الطاعة) واسجدي واركعي مع الراكعين﴾[1] .

وقال تعالى أيضاً :

﴿إذ قالتْ الملائكةُ يا مريمُ إن الله يبشركِ بكلمة منه (بقول- كن مبتدأ من الله) اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً (ذا جاه وقدر وشرف) في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلمُ الناسَ في المهد (في مقره زمن رضاعته قبل أوان الكلام) وكهلاً (حال اكتمال قوته بعد نزوله) ومن الصالحين . قالت رب أنَّى يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً (أراد شيئاً) فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب (الخط باليد كأحسن ما يكون) والحكمة (الفقه أو الصواب قولاً وعملاً) والتوراة والإنجيل﴾[2] .

وبداهة يتبادر إلى الذهن سؤال : كيف حملت مريم؟

السؤال قديم جديد ، والإجابة عليه غير مطلقة في صحتها ، ذلك إن القرآن الكريم لم يفصل هذه المسألة ، وإنما عبّر عنها بقوله في سورة التحريم :

﴿ومريم ابنة عمران التي أحْصَنَتْ فَرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾[3] .

وكيف كان النفخ؟

ذكر بعض العلماء أن جبريل نفخ في جيب درع مريم فنزلت النفخة في فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة العادية من جماع زوجها .

وقال بعض آخر : إن جبريل عليه السلام نفخ في فمها . . والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٤٢,٤٣

(٢) سورة آل عمران الآيات من رقم ٤٥ إلى رقم ٤٨

(٣) سورة التحريم ، الآية رقم ١٢

واختلف العلماء أيضاً في فترة الحمل . .

قال بعضهم كانت مدة حملها سبعة أشهر ، وقيل سنة ، وقيل ثمانية ، ولم يعش مولود لثمانية أشهر غيره ، وقيل أن الحمل لم يمكث إلا ساعة واحدة . . والله تعالى أعلم .

والمهم أنها حملت . . وظهرت عليها علامات ذلك الحمل . . . ولكنها شعرت بالحرج وحسبت حسابات كثيرة لما سيقوله الناس عليها جراء ذلك الحمل الفريد الذي لم يشهد له المجتمع الإسرائيلي مثيلاً ، واعتزلت المجتمع وعاشت فريدة .

وقد زادت مخاوفها ووساوسها عندما جاءها المخاض ، وعندما زاد عليها الألم اضطرت أن تجلس إلى جذع نخلة في مدينة بيت لحم ، وفي ساعة كربها المادي والنفسي تمنت لو أنها ماتت من قبل . فقد فضلت الموت على تجريح الناس لها واتهامها بسوء الخلق ، وفي حالة وضعها للغلام عيسى مَنْ مِنَ الناس سيصدق الحقيقة ، ويقف إلى جانبها يؤيدها وينصرها ، ويثق في كلامها؟ وهي المعروفة لدى المجتمع الإسرائيلي كله ناسكة بزهدها وعبادتها ، وأنها سليلة الطهارة والعفة والشرف؟

وهنا حدثت معجزة أخرى اذ أنطق الله الوليد لحظة خروجه إلى الحياة مخاطباً أمه بألا تحزن ، فقد أكرمها الرب بجريان عين ماء تحت قدميها ، لتشرب منها وتغتسل ، وبإمكانها كذلك أن تهز جذع النخلة فيسقط الرطب بجوارها ويمكنها أن تأكله وتتغذى به . فلتأكل ولتشرب ولتقر عينها ، وليطمئن قلبها .

وواصل الوليد حديثه لأمه . . فإذا رأيت أحداً من الناس فأفهميهم بالإشارة إنك في حالة صيام عن الطعام والكلام .

وهذه صورة الموقف كما وردت في القرآن الكريم :

﴿فأجاءها المخاضُ إلى جذع النخلة قالتْ يا ليتني متُّ قبل هذا

وكنتُ نَسْياً منسيا . فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربُّكِ تحتك سريًّا (نهراً أو عين ماء) . وهزي إليك بجذع النخلة تُساقط عليكَ رطباً جنياً . فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترينّ من البَشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾[1] .

وقال تعالى في سورة آل عمران :

﴿إنَّ مثلَ عيسى عند الله كمثل آدمَ خلقهُ من تُراب ثم قال له كُنْ فيكون﴾[2] .

وقال تعالى في سورة التحريم :

﴿ومريمَ ابنة عمران التي أحْصنَتْ فَرْجها فنفخْنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾[3] .

وهكذا كان ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) أي قبل ميلاد رسولنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بما يزيد عن ستمائة سنة .

---

(١) سورة مريم الآيات من رقم ٢٣ إلى رقم ٢٦

(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم ٥٩

(٣) سورة التحريم ، الآية رقم ١٢

الفصل الثاني

عيسى ينطق بالحق وهو صبي

﴿وهزي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً . فكلي واشربي وقرّي عيناً فإما ترينَّ من البشرِ أحَداً فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً﴾ .

ولنتوقف قليلا عند الرطب أو التمر الذي أسقطه الله على البتول جراء هزها لجذع النخلة وتحديداً عند قوله تعالى : ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلي واشربي وقرّي عينا﴾ .

فالهز هنا لا يعني هزًا كاملاً كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة . . والذي يحتاج إلى بنية جسمية خارقة قادرة أن تحدث بجذع النخلة اهتزازاً يؤدي إلى تساقط الرطب من أعلى إلى أسفل . .

وامرأة نفساء مثل السيدة مريم وضعت مولودها توّاً لن تستطيع بطبيعة الحال أن تقوم بإجراء ذلك الهز المطلوب للحصول على النتيجة المرجوة .

لكن السميع العليم أراد أن يوضح لنا نحن البشر أن الرزق لا يأتي مجاناً . . وأنه لا بد من بذل الجهد أي جهد للحصول على هذا الرزق ، ونفس هذه المعادلة تنطبق على النفساء مريم ابنة عمران ، فهي لا بد أن تبذل جهداً وإن صغر هذا الجهد أو قلَّ لكي تحصل على الرطب أو التمر .

ويعلم أهل العلم والمتخصصون في علوم التغذية أن التمر مادة سريعة التمثيل الغذائي لما تحتويه من نسبة عالية من السكريات سريعة الامتصاص والتي يتولد عنها طاقة حرارية عالية وهي وجبة غذائية كاملة العناصر .

وتحتوي ألياف التمر أو الرطب على نشويات وفيتامينات وبروتينات ،

كما أنه غني بالعناصر المعدنية كالفسفور والكالسيوم والحديد والصوديوم والبوتاسيوم .

وإذا تم وضعه للفحص تحت مجهر التغذية نجد التمر يتكون من سبعين بالمائة من السكريات والنشويات ، واثنين بالمائة بروتين ، واثنين ونصف بالمائة دهون ، وعشرة بالمائة ألياف . والباقي عناصر معدنية هي التي ذكرناها آنفاً ، كما أن مائة جرام من التمر تحتوي على ٢١٤ سعراً حرارياً .

وإضافة إلى ذلك كله فالرطب يعتبر فاكهة وحلوى وشراباً وغذاءً ودواءً وصدق من قال : «بيت لا تمر فيه جياع أهله» .

. . . .

ربما تكون هذه هي الأسباب الكامنة من وراء الحكمة الإلهية بهز مريم لجذع النخلة حيث سقط الرطب وأكلت مريم وتغذت عليه . . وانعكس ذلك الغذاء لبناً سائغاً رضعه المولود المعجزة عيسى من ثدي أمه فقوي به عوده ، والله تعالى أعلم .

ورب سائل يتساءل في هذا المقام :

لقد كانت مريم مقيمة بالمسجد في القدس ، فكيف ولماذا وضعت مولودها عيسى في مدينة بيت لحم بالذات؟ وماذا عن بيت لحم بالأمس وماذا عنها اليوم؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقول بأن الحاكم الروماني يومئذ أمر بإجراء تعداد أو إحصاء شامل للمواطنين ، فجاءت مريم برفقة ابن عمها يوسف النجار إلى بيت لحم ليثبت نفسه ومريم في الإحصاء ، فحان فيها وقت ولادتها ، فولدت عيسى أو يسوع كما يسميه النصارى ، ومنذ القرن الرابع وفي ليلة ٢٤ ديسمبر من كل سنة ميلادية يحتشد الألوف من الحجاج والسياح والزوار ليشهدوا تمثيلية ولادة الطفل في منتنصف الليل حسب الطقوس اللاتينية ، وتقرع الأجراس معلنة «المجد لله في

الأعالي ، وفي الناس مسرة ، وعلى الأرض السلام» .

هذا ويعود تاريخ بيت لحم القديم إلى نحو ألفي عام قبل الميلاد ، ويقال أنها دُعيت باسمها الحالي «بيت لحم» نسبة إلى الإله «لخمو» وهو إله الخير والخبز عند الكعنانيين العرب ، مع تبديل الخاء حاءً .

وتقع بيت لحم على مسافة عشرة كيلومترات جنوبي القدس ، وتتربع على جبل يرتفع نحو ٧٨٠ متراً عن مستوى سطح البحر الأبيض المتوسط ، ونحو ١٢٦٧ عن مستوى سطح البحر الميت .

واشتهرت المدينة بعد ولادة النبي (داود) عليه الصلاة والسلام فيها ، لكنها اكتسبت أهميتها التاريخية والدينية العظيمة وطغت شهرتها في كل الآفاق بعد مولد السيد المسيح فيها ، وانتشار الديانة المسيحية .

كنيسة المهد

وتعتبر كنيسة المهد هي المعلم الديني الأساسي في بيت لحم ، وقد أمرت ببنائها الامبراطورة هيلانة أم الملك قسطنطين بناءً على طلبه وذلك في عام ٣٣٠م . وذلك أثر الاعتراف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للامبراطورية الرومانية .

وأقيمت في نفس الوقت في القدس كنيسة القيامة وهي أيضاً المعلم الديني الأساسي للمسيحيين في المدينة المقدسة .

ولكنيسة المهد مدخل صغير وواطئ وضيق . ولكن الكنيسة من الداخل تصل مساحتها إلى اثني عشر ألف متر مربع تقريباً .

وبها أقسام رئيسة ثلاثة هي : صدر الكنيسة ، وقسمها الأمامي ، ومغارة المهد . وجدران الكنيسة الضخمة منقوشة بصور تشمل ميلاد السيد المسيح ، وأخرى ليوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه الصلاة والسلام) وهو يعمد المسيح في نهر الأردن .

وصور أخرى للعشاء الأخير . وأرض الكنيسة مفروشة بموزييك رائع .

أما مغارة المهد فتقع تحت الحنية الوسطى (هيكل الكنيسة) .

وهي مستطيلة الشكل تبلغ مساحتها نحو أربعين متراً مربعاً وهي معتمة يضيئها ٤٨ قنديلاً .

ويوجد في المغارة الهيكل وتحته النجمة التي تشير إلى مكان ولادة السيد المسيح ، ويقابل الهيكل تجويف في الصخر ينزل إليه بثلاث درجات وضع فيها مذود من الرخام الأبيض .

وأمام المذود هيكل آخر كرس باسم المجوس وهو خاص باللاتينيين .

وإضافة إلي كنيسة المهد فهناك العديد من الكنائس والأماكن التاريخية الأثرية ومنها : كنيسة القديسة كاترينا .

قبر راحيل : وراحيل كما نعلم هي زوجة النبي يعقوب وأم يوسف الصديق ، ويقال أنها ماتت في هذا الموقع على مدخل بيت لحم عند ولادتها لابنها الثاني بنيامين .

والضريح مقام على الطراز الإسلامي بأمر من الوالي العثماني .

وهناك أيضا برك سليمان وآبار النبي داود وتل الفريدس .

أما الناحية التاريخية فقد كانت بيت لحم جزءاً من الضفة الغربية التي احتفظت بطابعها العربي بعد حرب عام ١٩٤٨ ، وبقيت تحت الإشراف المباشر للمملكة الأردنية الهاشمية ، وبعد حرب يونيو عام ١٩٦٧ سقطت بيت لحم مع سائر مدن الضفة الغربية في قبضة الاحتلال الصهيوني .

وبعد توقيع اتفاقية أوسلو بين إسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية عام ١٩٩٤ كانت مدينة بيت لحم سادس مدينة فلسطينية تنتقل إلى الحكم الذاتي الفلسطيني بعد أريحا وجنين وطولكرم ونابلس وقلقيلية .

وفي عام ١٩٩٥ حضر العديد من مسؤولي السلطة الفلسطينية لأول

مرة احتفالات عيد الميلاد التي جرت في كنيسة المهد، وجلسوا إلى جانب الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وزوجته في الكنيسة المجاورة للكاتدرائية الأرثوذكسية التي يعود تاريخ بنائها إلي القرن الرابع الميلادي، هذا وقد شهد الرئيس الأميركي بيل كلينتون والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات مع عقيلتيهما احتفالات عيد الميلاد بكنيسة المهد نهاية العام ١٩٩٨م.

هذا ويبلغ عدد سكان مدينة بيت لحم حالياً نحو سبعين ألف نسمة.

وتوجد بها جامعة تحمل اسمها ومعترف بها عالمياً.

الوليد عيسى بين قومه

وعودة ثانية إلى الوليد عيسى وأمه فقد فرحت مريم بوليدها عيسى فرحاً عظيماً..

لكن مجرد تفكيرها في ماذا سيقول عنه اليهود وعنها كان يعكر أجواء فرحتها وسعادتها، فمن ذا الذي يصدق بأن الله قد وهبها هذا الطفل.

لكنها أوكلت أمرها لله الواحد القهار... وعادت إلى قومها وهي على ثقة مطلقة بأن الله سيقيها من كل سوء. وما كادت تتوغل بابنها في شوارع المدينة حتى أدركتها عيون الحاقدين والحاسدين والفضوليين.

قال الكهنة الذين رأوها للوهلة الأولى دونما تفكير أو تمحيص: ما الذي فعلتيه يا مريم؟ لقد فعلت فعلاً عظيماً ومنكراً شرعياً.

وواصلوا هجومهم عليها: يا أخت هارون: ما كان أبوك سيئاً، وما كانت أمك امرأة بغية تطلب معاشرة الرجال بدون ارتباط شرعي.

وهذا القول يعني اتهام مريم بارتكاب فاحشة البغاء والزنى.. هكذا دون خجل ولا حياء ولا تدقيق في الموضوع.. ولا خشية من الله تعالى.

ووقف المفسرون والعلماء طويلاً أمام عبارة «يا أخت هارون» . .

واختلفوا في المراد بهارون . . من هو؟ ومن يكون؟ وما علاقته بالموضوع؟ قيل أنه عابد من عباد ذلك الزمان كانت مريم تساميه في العبادة . واسمه هارون .

وقيل أرادوا بهارون أخا موسى شبهوا مريم به لعمق عبادته .

وقال آخرون : إن هارون كان رجلاً صالحاً يومذاك وقالوا لها ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء لسوء جريمتها كما يدعون . وهذا أقرب إلى الصواب .

وحاصرتها علامات الاستفهام والتعجب من كل جانب . والتهمتها العيون الجريئة الوقحة . . لكنها كانت تدرك في قرارة نفسها أنهاتقف على أرض صلبة من الصدق والنزاهة والإيمان والثقة بفاطر الأرض والبشر والسماء .

لم ترد على مهاتراتهم لأنها كانت تؤدي فريضة الصوم عن الكلام . .

أشارت بيدها اليمنى إلى المولود . .

وصلتهم الإشارة فوراً . . . لكنهم لم يقتنعوا بها . .

سألوها في دهشة : كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟

وهنا تدخلت العناية الإلهية .

ونطق عيسى فقال : إن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبياً ، ويبارك فيه أينما توجه ، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة طوال حياته ، وأنه سيكون باراً بوالدته ، وسيكون عبداً طيعاً شكوراً .

وتكليف عيسى بالنبوة معناه عودة الناس إلى عبادة الله الواحد القهار .

وهي نفس التعاليم التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام قبل أجيال عديدة . . لكن اليهود أضاعوا أنفسهم حينما ضيعوا شريعة موسى واتبعوا أهواءهم التي أبعدتهم عن الصراط المستقيم . .

ها هو المولود عيسى سيصبح نبياً . . وسينسف كل مكتسباتهم المادية والمعنوية التي يحصلون عليها جراء تجارتهم التي يمارسونها باسم الدين .

ومهما يكن من أمر ، فإن مولد طفل على هذه الهيئة العجيبة الغريبة ليس بالأمر الهين الذي يمكن السكوت عنه ، وكان طبيعياً أن تتناقله الألسنة بين قادحة ومادحة ، مصدقة ومكذبة .

ثم إن كلام طفل في المهد على هذه الصورة العجيبة أيضاً ، ليس بالأمر المألوف في حياة الناس ، ومن ثم كان لا بد أن تتناقله الألسنة ويكون موضوعاً طيباً للحديث بين الناس ، ومن ثم صارت «مريم حديث الناس في دورهم وفي أنديتهم ، وذاع أمر ابنها في كل القرى والبلاد المجاورة لها ، وانتشر خبر ما نطق به من حكمة وبلاغة ، أكدت للناس أنه النبي المنتظر ، صاحب الشأن الخطير ، فأكبروا شأنه ، وتوافدوا من كل صوب على دار زكريا ، لرؤيته والتبرك به[1] .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية :

﴿فأتتْ به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريًا (قبيحاً) . يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سوْء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال اني عبدالله آتاني الكتابَ وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أينما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حيا . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام عليّ يوم وُلدتُ ويوم أموت ويوم أُبعث حياً﴾[2] .

وتسربت أنباء قصة ميلاد الطفل المعجزة إلى ملك فلسطين الروماني هيرودس .

---

(١) خليل طاهر- الأديان والإنسان- دار الفكر والفن- القاهرة ١٩٧٦

(٢) سورة مريم ، الآيات من رقم ٢٧ إلى رقم ٣٣

ذلك الطاغية الذي كان يحكم الفلسطينيين واليهود بالقهر والظلم والعسف والديكتاتورية المطلقة .

لذلك لم يتقبل حكاية ولادة طفل من غير أب يهدد سلطانه بالزوال ، فتوعد بإلقاء القبض عليه .

وجاء في «إنجيل متى» بعدئذ قوله :

ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية ، في أيام هيرودس الملك ، إذا مجوس من الشرق ، قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ، ملك اليهود؟

إننا رأينا نجمة في المشرق ، وأتينا لنسجد له ، فلما سمع هيرودس الملك اضطرب ، وجميع أورشليم معه ، فجمع كل رؤساء الكهنة ، وكتبة الشعب وسألهم :

أين يولد المسيح؟

فقالوا له : في بيت لحم اليهودية ، لأنه هكذا مكتوب بالنبي ، وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا ، لأن منك يخرج مدبر يرعى شعب إسرائيل .

حينئذ دعا هيرودس المجوس سراً ، وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر ، ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال : اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي ، ومتى وجدتموه فأخبروني ، لكي آتي أنا أيضاً ، وأسجد له . فلما سمعوا من الملك ذهبا ، وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم ، حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي ، فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً ، وأتوا إلى البيت ، ورأوا الصبي مع مريم أمه ، فخروا وسجدوا له ، ثم فتحوا كنوزهم ، وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومرًا . ثم إذ أوحى إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس ، انصرفوا في طريق أخرى إلى كورتهم .

وبعد أن انصرفوا ، إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف النجار في حلم

قائلاً :

قم وخذ الصبي وأمه ، واهرب إلى مصر ، وكن هناك حتى أقول لك ، لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه ، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً ، وانصرف إلى مصر ، وكان هناك إلى وفاة هيرودس ، لكي يتم ما قيل عن الرب ، بالنبي القائل : من مصر دعوت ابني .

فلما مات هيرودس ، إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف (يوسف النجار) في مصر قائلاً :

قم وخذ الصبي وأمه ، واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي . فقام وأخذ الصبي وأمه وجاء إلى أرض إسرائيل ، ولكن لما سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضاً عن هيرودس أبيه ، خاف أن يذهب إلى هناك . وإذ أوحي إليه في حلم ، انصرف إلى نواحي الجليل ، وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة . لكي يتم ما قيل بالأنبياء : إنه سيدعى ناصرياً .

وهكذا نرى أن العناية الإلهية قد تكفلت بحماية عيسى من أعدائه حتى تتم إرادة الله تعالى .

جدير بالذكر أن الأحداث السابقة التي قلناها عن إنجيل متى لم ترد في القرآن الكريم لا تفصيلاً ولا تلميحاً ذلك لأن القرآن لا تعنيه التفصيلات الدقيقة في القصص إلا بالقدر الذي تساهم فيه في إظهار العناية الإلهية ، ثم إن ورود تلك الأحداث في إنجيل متى لا يعني بالضرورة مصداقية حدوثها مائة بالمئة .

ان العناية الالهية التي أنقذت عيسى هي تلك العناية نفسها التي رأيناها تنقذ إبراهيم الخليل من نيران الملاحدة ، ورأيناها أيضاً تحفظ يوسف الصديق في الجب وتؤهله بعدئذ للنبوّة ، ورأيناه كذلك تكلأ الكليم موسى وتنقذه من الغرق في اليم ، وهو ما حدث أيضاً مع نبي الله يونس عليه السلام .

الفصل الثالث

المسيح يأتي بالحكمة والموعظة الحسنة

عندما ولد السيد المسيح ، كانت فلسطين وبلاد الشام عموماً تابعة للامبراطورية الرومانية .

وعندما تولى الامبراطور (أغسطس) الحكم في القرن الأول قبل الميلاد اتخذ الدين الروماني شكلاً جديداً يقوم على (العبادة الشخصية) للامبراطور نفسه .

وكان (أغسطس) من أكبر المنافسين لآلهته .

وكان قيصر قد ضرب له المثل في هذا التنافس ذلك إن مجلس الشيوخ الروماني الذي عقد إحدى جلساته المهمة في روما اعترف بألوهية قيصر بعد عامين من مقتله . وما لبثت عبادته أن انتشرت في سائر أنحاء الامبراطورية الرومانية(١) .

وقد تأثرت مناطق الامبراطورية الرومانية بفكرة (تأليه الإنسان) كبديل عن (تأليه الأشياء) المادية الملموسة .

وتأثر الفكر الديني المسيحي فيما بعد بفكرة تأليه الإنسان هذه . . وسنرى أثرها السلبي على شخصية السيد المسيح فيما بعد . .

ولا يستبعد أن تكون الديانة اليهودية قد تأثرت بالحضارتين اليونانية والرومانية .

وتعرض «ديورانت» لذكر الوضع المتردي في الامبراطورية الرومانية وقت ظهور السيد المسيح فرأى أن سقوط روما كقيامها لا يُعزى إلى سبب واحد بل إلى كثير من الأسباب ، وقد عجل الفساد الخلقي لظهور الانحلال ذلك أن صفات الرجولة التي نشأت من بساطة العيش

(١) وِلّ ديورانت ، قصة الحضارة ، ج١ ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

وتحمل المشاق ودعمها إيمان قوي ، نقول : إن هذه الصفات قد أضعفها بهرج الثروة وحرية عدم الإيمان . . وما دام الأمر بهذا البؤس فهل استطاعت اليهودية أن تقدم للبائسين الحل؟

معروف أن الإغريق بنوا تميزهم على العالم بتفوقهم العقلي . . بينما بنى الرومان تميزهم على العالم بتفوقهم العضلي .

أما اليهود فقد زعموا أنهم يتميزون على الآخرين بتفوقهم في «الدين» .

ولذلك أغلقوا على أنفسهم هذا الدين وحصروه في العصبية المحصورة في بني إسرائيل . وكذلك أغلقوا الأبواب على (إلههم) الذي يريد بدوره أن يستأثر بشعب إسرائيل لنفسه .

ولم يكن ينقص اليهود ليتميزوا دينياً- بعد الدين الخاص بهم ، والإله الذي اختارهم واختاروه سوى الكتاب المقدس الذي يجمع كل اليهود على الدين ويلفهم حول الإله .

ومعروف أن اليهود تلقوا هذا الكتاب من موسى عليه الصلاة والسلام وذلك بعد أن خرجوا من مصر سنة ١٢٥٠ قبل الميلاد .

ومن أجل هذا الكتاب أيضاً سأل موسى ربه أن يعطيه إياه ، فواعده تعالى بعد أن يصوم موسى ثلاثين ليلة ، ثم أتبعها بصيام عشر ليالٍ أخرى ، فصعد إلى الجبل وكلمه ربه تكليماً وأنزل عليه الألواح المعروفة بالتوراة ، والتي ظلت متداولة بين علماء بني إسرائيل حتى زمن السبي البابلي ، الذي تم على يد نبوخذ نصر ، وفي مدينة بابل العراقية اتفق العلماء اليهود على جمع مأثورات التاريخ اليهودي القديم ومن ضمنها التوراة .

جدير بالذكر أن الذي أشرف ونفذ تلك المهمة شخص يدعى «عزرا» وذلك بعد عشرة قرون من نزول التوراة على موسى وبالتحديد عام ٤٤٤ قبل الميلاد .

وإذا كان لكل الشعوب كتاب (مقدس) واحد ، إلا أن لليهود- باعتبارهم الشعب المميز- أكثر من كتاب ، لعل أشهرها بعد التوراة هو «التلمود» الذي يشمل الكثير من التعاليم والإرشادات الدينية ، ومن شبه المؤكد أنه كتب بعد ظهور الإسلام .

وعندما تقدم اليهود نسبياً في تنظيماتهم خلال القرن التاسع عشر ، وقووا أنفسهم ونفوذهم في العالم ظهرت محاضر جلسات الحكماء الصهيونيين المشهورة باسم «برتوكولات»[1] والتي أكدت أن اليهودية والصهيونية وجهان لعملة واحدة هدفها تحقيق الحلم اليهودي القديم الذي حققه الإغريق والرومان في عصور اليهودية الأولى وهو حلم (الامبراطورية) مستغلين في تحقيقه كل وسائل الغش والخديعة والدس وإثارة الفتن واستنزاف الأموال عن طريق الإقراض بالربا الفاحش ، والتوسل إلى مراكز القوة والنفوذ بالمال والنساء ، ومداهنة أصحاب السلطان وما إلى ذلك[2] .

جدير بالذكر أن (المسيح المنتظر) عند اليهود هو (مسيح) بمواصفات يهودية معينة يعيد لهم الأمجاد الفائتة ، وليس المسيح الحقيقي الذي أتاهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

إن الانهيار الأخلاقي الذي دب في أوصال الامبراطورية الرومانية تحول عند اليهود المغرورين إلى انتصار . . واشرأبت أعناقهم إلى حلم عودة «مسيحهم» المنتظر الذي سيحقق لهم كافة أمانيهم ، لكنهم مع مرور الزمن انقسموا على أنفسهم إلى شيع وأحزاب وطوائف مختلفة ولكل واحدة فلسفتها .

---

(١) لهذه الكلمة غير العربية ثلاثة معانٍ : المسودة الأصلية ، ملحق معاهدة ، التشريفات الديبلوماسية والعسكرية .

(٢) د . صبري جريس ، التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

والطوائف الخمس التي كانت مشهورة في العصر الأول للميلاد خمس طوائف هي : الصدوقيين ، والفريسيين والآسيين ، والغلاة ، والسومريين .

لكننا نشير إلى ما يهمنا منها وهي طائفة الصدوقيين التي تزعمت الحملة على السيد المسيح ورسالته ، لأن أفراد هذه الطائفة متشبثون بالمحافظة على سلطان هيكل سليمان ، والنظام التعبدي والإداري القائم فيه ، ولا يرحبون بأي تغييرات تطرأ عليه .

لقد كانت الفرق والطوائف اليهودية كلها تكره الرومان بسبب سيطرتهم على فلسطين . وقد أقدم أتباعها على الثورة ضدهم مرات عديدة ، لكنهم فشلوا جميعاً في نيل حريتهم بواسطة السيف ، فبحثوا عن طريق آخر . .

اتجهوا بآمالهم إلى الروحانيات والعبادات والتنبؤات بانتظار مجيء «المسيح» الذي كانت أسفار العهد القديم تتحدث عنه ، وتبشر بأنه سوف يخلص المقهورين وينشر لواء العدالة في المجتمع .

وقد اختلفت صورة المسيح المنقذ من فريق إلى آخر . . ومن طائفة إلى أخرى .

وتصوره البعض ملكاً من نسل داود ، وتصوره البعض الآخر بطلاً ثائراً يحرر اليهود بالقوة من بطش الرومان .

ووصفه آخرون بأنه زعيم روحاني تتجسد فيه الحكمة أي العقل أي «الكلمة» وأنه قادم لنشر السلام والوئام والحب بين بني الإنسان .

وتصوره البعض «ابن الإنسان» واعتقدوا أنه سيهبط من السماء ويفرض تطبيق الشريعة الموسوية بالقوة .

لكن هذه المواصفات لم تنطبق على عيسى بن مريم نبي الله الكريم الذي أخذ يعظ الناس ويدعوهم إلى التوبة ، حيث اجتمع حوله الكثير من الناس المؤيدين له في منطقة الجليل ومدينة الناصرة في شمال

فلسطين . وقد رأى الناس فيه «المسيح المنتظر» الحقيقي .

وقد أنكر عيسى عليه السلام أنه جاء ليعيد المُلك إلى بني إسرائيل . . وكان يقول لمن يعتقدون ذلك : «إن مملكتي ليست في هذا العالم» وكان يقصد بذلك ملكوت الله تعالى حيث كان يقول موضحاً : «إن ملكوت الله داخلكم» .

ولم يؤيد عيسى عليه السلام قيام ثورة ضد الحكم الروماني . . وقد سأله أتباع بعض الفرق مرة : هل تؤيدنا في دفع الضرائب للرومان؟ أجابهم قائلاً : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

كانت الطوائف اليهودية يومئذ متحجرة في أفكارها ، وتنتقد الناس علانية بسبب تهاونهم في تنفيذ أوامرها وتنتظر من المسيح أن يفرضها فرضاً على جميع أفراد المجتمع .

لكنه عليه السلام كان يركز على الجانب الروحي في الإنسان ، تطهير الروح أولاً وقبل كل شيء . فطهارة النفس تدفع الإنسان الطاهر إلى فعل الأعمال الصالحة والإخلاص في المعاملات ، والتضحية من أجل سعادة الآخرين ، لقد جاء المسيح ليكمل الناموس .

لم يكن يريد تعطيل الشريعة أو نقضها . .

بل جاء كما يقول ليكمل الناموس ويهيىء الناس لملكوت السماوات لذلك لم يكن يتمسك بالعادات والتقاليد المألوفة التي فقدت مصداقيتها . . وأضحت عادات وليست عبادات .

وعندما سأله أحد أبناء إحدى الطوائف اليهودية عن العمل في يوم السبت وهو اليوم الذي يقدسه اليهود فلا يعملون فيه أي عمل ، قال له : «السبت إنما جعل لأجل الإنسان ، لا الإنسان لأجل السبت»

وقد تصور المحافظون على الشريعة أن الغرض الأسمى من وجودهم هو إقامة الأسوار العالية لصيانة الشريعة . .

ففي يوم السبت الذي أمر موسى أساساً باحترامه وتخصيصه

للعبادة تحول عند اليهود إلى سيف مصلت على الرؤوس لا يستطيعون فيه حراكاً إلا بالقدر الذي يسمح لهم بالبقاء على قيد الحياة .

لم يكن هناك بيت يهودي يستطيع أن يوقد ناراً أو يطفئها في يوم سبت .

لم يكن هناك بيت يهودي تستطيع فيه امرأة يهودية أن تعجن عجيناً ، أو تغسل غسيلاً ، أو تطبخ طبيخاً ، ولا يستطيع امرؤ أن يغسل جسمه ، أو يحيك قميصه ، أو يخصف نعله ، أو يقلم أظافره ، أو يأكل أكلاً معيناً ، أو يصلي صلاة معينة ، وقائمة طويلة من الممنوعات والمحظورات باسم الشريعة ، وأصبحت الشريعة عملياً تعطيلاً كاملاً للحياة . . وأضحى يوم السبت يوم عذاب وبلادة لا يوم رياضة وعبادة . .

والأدهى من ذلك أنهم كانوا يتحايلون على الشريعة هذه إذا كانت تتعارض مع مصالحهم الخاصة أعني بذلك مصالحة بعض الطوائف اليهودية المنادية باحترام يوم السبت وخاصة طائفة الفريسيين التي كانت مكلفة بمهمة تطبيق الشريعة ، لقد ذهبت الحكمة التي أرادها موسى عليه السلام من احترام يوم السبت- ولكن بقي يوم السبت نفسه .

وكان ذلك التشدد في تطبيق أحكام الشريعة تقابله فوضى وتسيب في الداخل ، لقد كان المال . . أجل المال وحده هو القيمة التي لها قيمة عند اليهود ، كان ذلك وما زال ديدنهم . . . وهدفهم . .

صار المال هو الهدف الذي يتصارع عليه اليهود سواء أكانوا من رجال الشريعة وحراسها أم من الناس العاديين .

كانت بعض الطوائف تتعامل داخل الهيكل العبادي لحسابها الخاص . .

كانوا يتشاجرون بشأن توريد الأضحية اللازمة للذبيحة اليومية التي

تذبح في الهيكل . .

ولن ندخل في متاهاتهم . .

ولنبق مع نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام .

حيث قام بتخفيف الشروط الموضوعة على قوائم المحرمات وخاصة على الطعام والطهارة ، وأوقات الصيام التي حذف بعضها .

«لا تكمن أهمية رسالة السيد المسيح في الأمور المتعلقة بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، أو في النصوص القانونية أو في الطقوس والمراسيم الدينية فحسب ، بل ترجع عظمته التاريخية إلى الثورة العميقة التي أحدثها في المبادئ الأخلاقية ، فلم يكن ليخفى عليه ان كل الإصلاحات تبقى سطحية سريعة الزوال إذا لم يستطع تطهير قلوب الناس من الشهوات والأنانية والقسوة والفجور .

لذلك كان تمجيده للفقر والوداعة والرقة والسلم ، وكانت نصيحته بأن يدير الإنسان خده الأيسر لمن يصفع خده الأيمن . وكان أمره للناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية والعصبيات القبلية ، وكانت دعوته إلى المحبة والأخوة والتسامح والعدالة والرأفة»[(١)] .

لقد حاول عبدالله ورسوله عيسى بن مريم أن يودع في قلب وعقل كل فرد من أبناء قومه أن الإنسان لا يصير إنساناً إلا إذا تجرد من أنانيته وفاض بحبه على الآخرين . . وعندئذ يصل إلى أقرب نقطة من إنسانيته وبشريته . لنتأمله يقول في إنجيل متى «سمعتم أنه قيل فلتحب قريبك ولتبغض عدوك ، أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلّوا من أجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم» .

لقد قال عليه السلام هذه الحكمة بعد أن ضاق ذرعاً بما رآه على أرض الواقع اليهودي .

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ، ج ٤ ، ص ٢١٦ ، دمشق ، ١٩٨٨ .

لقد تحجرت الديانة اليهودية وأضحت طقوساً وحركات جوفاء لا حياة فيها ، وما دامت بهذه الصورة التي تبدو فيها ديانة مظاهر ومناظر جوفاء ، فهي الأحرى بأن تتجه إليها دعوة السيد المسيح . لذلك كان هدفه الأول عليه الصلاة والسلام أن يجمع اليهود المتفرقين على طريق الحق .

لكنه لم يجد من كبرائهم إلا الإعراض والصدود ، فاتجه إلى الشعب اليهودي يلومه ويعتب عليه ويقرعه . فأثر كلامه فيهم وبكوا تأثراً وتعاطفاً معه ، ولقد كان هدفه إصلاح أحوال الامبراطورية التي تتداعى رويداً رويداً ، والتي تقوم مقام الربوبية المعبودة فخلعت على القيصر أوغسطس لقب إله .

وقررت عبادته مع الآلهة ، ورصدت له شهراً في السنة لا يزال معروفاً باسمه حتى اليوم . . شهر أغسطس .

لقد غرق الإسرائيليون في الماديات ، وابتعدوا عن الروحانيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام ، لذلك جاءت رسالة عيسى متممة لما جاء في التوراة من تعاليم موجهة إلى بني إسرائيل ، وداعية إلى التهذيب الوجداني والرقي العاطفي والنفسي .

هذا هو جوهر الديانة المسيحية التي حمل عيسى بن مريم لواءها ولكننا سنرى لاحقاً كيف أن هذه الديانة أصابتها يد التحريف بيد أبنائها أنفسهم ، ففقدت- عند تطبيقها عملياً- كثيراً من مصداقيتها السماوية التي نزلت بها .

لقد تميزت رسالة عيسى بالشفافية والطهر والنقاء . . كان عيسى يريد إحياء الروح الإنساني في الإنسان .

أعلن التوحيد منذ البداية ، وأعلن أنه عبدالله ورسوله منذ البداية أيضاً ، وأعلن أنه بعث لخراف إسرائيل الضالة ، وأعلن أن رسالته مقتصرة على بني إسرائيل . .

دعا إلى الرحمة والمحبة والتعاطف بين البشر . . ولم يدخل في تفاصيل العقائد والشرائع .

أما اليوم فنرى أن المسيحية (الحديثة) انفصلت عن مسيحية المسيح وتبدو المسيحية الحاضرة بعقائدها وطقوسها وشعائرها بعيدة كل البعد عن رسالة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام .

. . . .

هذه نظرة عامة وشاملة على دعوة السيد المسيح . .

فماذا عن نزول الوحي عليه ، وتكليفه بأداء الرسالة السماوية ودعوته إلى ملكوت السماء؟ .

. . . وجرت مياه كثيرة في نهر الأردن

. . . . وبلغ عيسى بن مريم مبلغ الشباب

. . . . وفي الثلاثين من عمره نُبِّىء بالرسالة . .

نزل عليه الوحي ، وصدرت له الأوامر الإلهية العليا ببدء دعوته إلى ملكوت السماء مؤيداً بالروح القدس ، والروح القدس هو سيد الملائكة وأمين وحي السماء جبريل عليه السلام .

هذا وقد أيد الله تعالى نبيه عيسى بعدد من المعجزات الدالة على نبوته ، وسنأتي على ذكرها وتفصيلها لاحقاً إن شاء الله تعالى .

لكننا سنتناول الآن كتب النصرانية وأناجيلها ، ونشير بداية إلى أن أهم الوثائق عن حياة السيد المسيح هي الأناجيل والرسائل التي كتبها تلامذته ورسله الحواريون والتي يتألف من مجموعها «العهد الجديد» ، أما العهد القديم فهو «التوراة» الذي يعد أصلاً للديانة النصرانية .

أما كلمة الإنجيل ذاتها فهي يونانية الأصل ومعناها «البشارة» أو «الخبر السعيد» ويقصد بالأناجيل الأسفار والكتب التي دونها أتباع السيد المسيح بعد وفاته بقرنين لنشر سيرته وكلماته المتناقلة شفوياً وتحريرياً وعملوا على نشرها بين الناس .

ويذكر بعض المؤرخين النصارى أن عدد الأسفار كان كبيراً خلال القرنين الميلاديين الأول والثاني ولكن الكنيسة لم تعترف إلا بأربعة أناجيل هي المشهورة والمتداولة في الوقت الحاضر :

١- إنجيل متى ، ٢- إنجيل مرقص ، ٣- إنجيل لوقا ، ٤- إنجيل يوحنا .

وينسب كل إنجيل إلى اسم كاتبه ، فإنجيل متى ، ينسب إلى أحد التلاميذ الاثني عشر واسمه «متى» ، وإنجيل لوقا ينسب إلى كاتبه «لوقا» وهو طبيب أو مصور من أصل يهودي .

أما إنجيل مرقص فيقال أنه أقدم الأناجيل وربما يكون كتب عام ٦٧ ميلادية ، وهناك رواية أخرى أنه نقل عام ٦٢م!

أما إنجيل يوحنا فهو حواري ابن صياد يقال أن المسيح كان يحبه ، والبعض يقول بأنه شخصية مجهولة انفرد بالقول بالتثليث وبألوهية المسيح في ذلك الوقت المبكر من تاريخ النصرانية[١] .

وهناك معلومة أخرى بأن هذا الإنجيل يتضمن ذكريات يوحنا ومشاهداته الذاتية عن السيد المسيح ويدعو إلى الإيمان به ويشرح تعاليمه ، وقد كتب إنجيله في سن الشيخوخة في مدينة (أفسوس) على شاطئ بحر إيجة حيث عاش مدة من الزمن وتأثر بالفلسفة اليونانية واقتبس منها أساليب البحث اللاهوتي . ويقال أنه توفي حوالي سنة ١٠٠م[٢] .

وإلى جانب الأناجيل الأربعة فإن (العهد الجديد) يشتمل على «أعمال الرسل» وكذلك الكتب التي بعث بها بولس وبطرس ويعقوب ويوحنا إلى مختلف المدن اليونانية للتبشير بالسيد المسيح .

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ، وهي المصدر الأساس لبعض هذه المعلومات .

(٢) الموسوعة الفلسطينية ، مرجع سابق .

جدير بالذكر أن الأناجيل الأصلية كتبت باللغة اليونانية بين سنة ٦٠-١٠٠م ولكن لم تصل إلا نسخ محدودة عنها وضعت متأخرة في القرن الثالث الميلادي بعد أن طال العهد بينها وبين الحوادث التي تذكرها .

ولا بد من ملاحظة أن الإنجيليين والحواريين عندما قاموا بتأليف أسفارهم وكتبهم ورسائلهم كان هدفهم الرئيسي نشر الدعوة النصرانية بين الناس ، وليس بهدف أن تكون وثائق تاريخية ، لذلك انصرف اهتمامهم إلى كتابة تفاصيل ولادة السيد المسيح (يسوع) من أمه مريم العذراء بدون معاشرة زوج لها . كانوا متحمسين لموضوع الميلاد ليس إلا . .

إضافة إلى أن كاتبي هذه الأناجيل لا يتمتعون بأهلية كتابتها فهم ليسوا علماء دين وليست لهم خلفيات ثقافية معمقة .

والأهم من ذلك أن الأصول الأولى للأناجيل مفقودة (ولا تحمل أقل ما توجبه شروط الرواية التي يستلزمها كتاب سماوي ديني) .

أما بالنسبة «للرسائل» فهي تعني الأسفار والكتب التعليمية التي تشرح أسس النصرانية المعاصرة أكثر من الأناجيل ، وقد قام بتدوينها علماء مشهورون وهي تركز على تفسير المظاهر السلوكية والطقوسية في الحياة النصرانية .

وهناك إنجيل آخر أقل شهرة من الأناجيل السابقة ، ونعني به «إنجيل برنابا» ، وبرنابا الذي ينسب إليه إنجيله رجل لاوي قبرصي وهو خال مرقص صاحب الإنجيل المعروف باسمه ، وقد اكتشف إنجيله في روما .

ويتميز ذلك الإنجيل بعدة عناصر عما سواه من الأناجيل ، وذلك في النقاط التالية :

- (الله) عنده هو رب العالمين وفاطر السماوات والأرض كما تؤكد

ذلك الشريعة الإسلامية .

- يعترف بأن الذبيح هو إسماعيل كما تؤكد ذلك الشريعة الإسلامية .

- يبشر بنبوة محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» .

- لا يقول بصلب السيد المسيح بل يؤكد بأن الله قد ألقى الشبه على يهوذا الأسخريوطي كما تؤكد ذلك الشريعة الإسلامية .

- يحث على الختان كما تؤكد ذلك السنة النبوية المطهرة .

- يعتبر أن عيسى عليه الصلاة والسلام مجرد نبي كريم كما تؤكد على ذلك الشريعة الإسلامية .

الطوائف النصرانية

يوجد في الديانة النصرانية عديد من الطوائف والفرق المختلفة في أسمائها واتجاهاتها ومعتقداتها . ومن أهمها :

أولاً : طائفة الموحدين .

وتنقسم إلى قسمين :

- أتباع آريوس الذي كان يقول بأن الأب وحده هو الله ، والابن مخلوق له .

- أتباع بولس الشمشاطي الذين يقولون بأن عيسى هو عبدالله ورسوله وهو واحد من أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام .

ثانياً : طائفة النسطوريين

وهم أتباع «نسطور» بطريرك الإسكندرية عام ٤٣١م والذي قال بأن مريم لم تلد إلا الإنسان ، وهي بالتالي أم لإنسان وليس أمّاً لإله . وهذا المذهب وضع الأساس للقول بوجود طبيعتين في المسيح .

ثالثاً : مذهب الكنائس الشرقية (الأرثوذكس)

أعلن أتباع هذا المذهب عام ٤٣١ موافقتهم وتأييدهم لعقيدة البابا

كيرلس بطرس الإسكندرية القائلة بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة .

رابعاً : مذهب الكاثوليك ، وهو مذهب يجمع بين الطبيعتين والمشيئتين متأثراً بذلك بمذهب النساطرة ، وقد اعتنقت روما هذا المذهب عام ٤٥١م .

خامساً : مذهب اليعاقبة : يقول أتباع هذا المذهب بأن للمسيح طبيعة واحدة وهي التقاء اللاهوت بالناسوت .

سادساً : مذهب الموارنة : وهو مذهب منسوب لرجل يدعى «يوحنا مارون» الذي دعا في عام ٦٦٧م إلى أن للمسيح طبيعتين ، ولكنه يتمتع بمشيئة واحدة ، وذلك بسبب التقاء الطبيعتين في أقنوم واحد .

سابعاً : مذهب البروتستانت ، ويسمون كنيستهم (الإنجيلية) نسبة إلى الإنجيل لأنهم يتبعون الإنجيل دون غيره وفهمه ليس مقصوراً على رجال الكنيسة وحدهم . . وهم يستنكرون حق الغفران ، كما يستنكرون منع الصلاة للموتى ، وقصر سلطان الكنيسة في الوعظ والإرشاد ومنع استعمال لغة غير مفهومة في الصلاة .

هذا وقد انقسمت الكنائس النصرانية بعد انعقاد المجمع الثامن عام ٨٧٩م إلى قسمين رئيسيين هما :

١- الكنيسة الغربية اللاتينية البطرسية ورئيسها الأعلى هو البابا ومقره في الفاتيكان .

٢- الكنيسة الشرقية اليونانية الأرثوذوكسية ورئيسها الأعلى بطريرك القسطنطينية .

وكان سبب الانقسام الذي ما زال سارياً حتى الآن هو اختلاف الإجابات على السؤال التالي :

هل الروح القدس منبثق عن الأب؟ وهذا رأي الكنيسة الشرقية .

أم أن الروح القدس منبثق عن الأب والابن معاً؟ وهو رأي الكنيسة الغربية .

الفصل الرابع

تأثر المسيحية بالديانات السابقة

يعتقد النصارى بالعديد من الاعتقادات الراسخة في ديانتهم ومن أهمها[1] .

أولاً : الألوهية والتثليث .

وهم يعتقدون بوجود إله خالق عظيم لأنهم كتابيون أصلاً (أهل كتاب مقدس وهو التوراة) لكنهم يشركون مع الله الإبن (عيسى) والروح القدس (جبريل عليه السلام) والغريب أنه يوجد تفاوت كبير بين الكنائس النصرانية في تقرير هذه المفاهيم وربط بعضها مع بعض مما يسمونه (الأقانيم الثلاثة) ويفسرونها بأنها وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية!

ثانياً : الدينونة

وهي تعني اعتقادهم بأن الحساب في اليوم الآخر سيكون موكولاً لعيسى ابن مريم لأن فيه شيئاً من جنس البشر مما يؤهله على محاسبة الناس على أعمالهم التي ارتكبوها في الحياة الدنيا!

ثالثاً : الصلب

المسيح في نظرهم ، مات مصلوباً فداءً عن الخليقة ، ويرون أن الله

---

(١) اعتمدنا في استيفاء هذه المعلومات بشكل شبه أساسي على «موسوعة الأدب والمذاهب المعاصرة» مرجع سابق .

تبارك وتعالى بسبب حرصه الشديد على البشر من ناحية وبسبب عدالته من ناحية أخرى فقد أرسل وحيده عيسى ليخلص العالم من خطيئة آدم الأولى حينما أكل من الشجرة المحرمة التي نهاه الله عن الأكل منها . وأن عيسى قد صلب عن قناعة ورضى وبذلك فقد تغلب على الخطيئة وانتصر عليها . وقد تم دفنه بعد صلبه ، لكنه قام بعد مرور ثلاثة أيام على دفنه متغلباً بذلك على الموت ، وبعدئذ ارتفع إلى السماء!

رابعاً : تقديس الصليب

يتخذ النصارى من الصليب شعاراً لهم ، وهو مجسم من المعدن يشير إلى عملية صلب السيد المسيح . والصليب موضع تقديس الأغلبية العظمى منهم . وحمله علامة على أنهم من أتباع السيد المسيح ، وارتبطت به الحروب الصليبية .

خامساً : الصوم

والصوم في عقيدتهم الامتناع عن تناول الطعام الدسم والذي يجب أن يكون خالياً من الأصل الحيواني أو مشتقاته ، ويكتفون خلال مدة صومهم بأكل شتى أنواع البقول ويوجد اختلاف بين الطوائف المسيحية بالنسبة لمدة الصوم وكيفيته .

سادساً : الصلاة

ليس للصلاة عندهم عدد معين ، لكنهم يركزون على صلاتي الصباح والمساء ، وصلاتهم عبارة عن أناشيد وتسابيح وأدعية مختلفة . كما أن الانتظام في الصوم والصلاة عمل اختياري من شاء التزم به ومن لم يشأ فلا إثم عليه .

سابعاً : التعميد

التعميد هو الاغتسال بالماء أو الارتماس فيه أو الرش به باسم الأب والابن والروح القدس . والتعميد تطهير النفس من الخطايا والذنوب .

ثامناً : الاعتراف

وهو أن يعترف النصراني أمام رجل الدين بكل الذنوب والخطايا التي اقترفها ، وبعد إجراء عملية الاعتراف تكون تلك الذنوب والخطايا قد سقطت عن مرتكبها سواء أكان ذكراً أم أنثى ومعنى سقوطها إزالة العقوبة عنه وتطهيره نهائيا إذ يدعون بأن رجل الدين هو الذي يقوم بطلب الغفران له من الله .

تاسعاً : العشاء الرباني

يقولون بأن المسيح قد جمع الحواريين في الليلة التي سبقت صلبه فوزع عليهم خمراً وخبزاً كسّره بينهم ليلتهموه إذ أن الخمر يشير إلى دمه والخبز يشير إلى جسده .

عاشراً : الاستحالة

يقولون بأن من أكل الخبز وشرب الخمر من الكنيسة في يوم الفصح فإن ذلك يستحيل فيه وكأنه قد أدخل في جوفه لحم المسيح ودمه ، وأنه قد امتزج في تعاليمه بذلك .

حادي عشر : التحليل

يحلل النصارى أكل الخنزير مع أنه محرم في التوراة ، كذلك فهم يحرمون الختان مع وجوده في شريعتهم أصلاً ، كما أباحوا التعامل بالربا واحتساء الخمر . ولكنهم حرموا الزنى وأكل الحيوان أو الطير

المخنوق ، وكذلك حرموا أكل الدم وما ذبح للأوثان والأصنام .

ثاني عشر : الرهبانية

الرهبانية معناها العزوف عن الزواج بشكل عام ، لكن الرهبانية اقتصرت فيما بعد على رجال الدين ، وقد سمح بالزواج من زوجة واحدة فقط مع منع التعدد الذي كان مباحاً في بداية ظهور النصرانية .

ثالث عشر : الطلاق

لا يجوز للرجل أن يطلق زوجته إلا في حالة ارتكابها لجريمة الزنى ، وعندئذ لا يجوز للزوجين الزواج بعده مرة أخرى .

أما الفراق الناشئ عن الموت فإنه يبيح لمن بقي حياً منهما أن يتزوج مرة أخرى ، كما يجوز التفريق بين الزوجين في حال كون أحد الزوجين ليس نصرانياً .

رابع عشر : التكاثر

يحث النصارى أتباعهم على التكاثر ، وبخاصة في المناطق التي يكونون فيها أقلية ، وعندئذ يصبح الأمر وجوباً لا رغبة .

خامس عشر : النواحي الروحية

الأصل في النصرانية تربية الوجدان ، وتنمية النواحي العاطفية في الإنسان ، داعية إلى الزهد والتسامح وعدم محاولة الثأر مستنكرة انخراط اليهود في المادية المغرقة . ومن أقوال عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام : من أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك . وقد أوردنا سابقا مقتطفات من أقواله تؤكد هذه الحقائق .

لكن ....

من ينظر ويتأمل في الوقائع يجد الفرق هائلاً بين تعاليم المسيح عليه السلام وبين تطبيق هذه التعاليم . . هناك بون شاسع بينهما ، وهذا الأمر يمكن تطبيقه على باقي الشرائع ومن ضمنها الشريعة الاسلامية .

فالفرق واضح بين الإسلام كدين . . وبين تطبيق المسلمين لتعاليم هذا الدين العظيم!

سادس عشر : صكوك الغفران

وهو صك يغفر لمشتريه جميع ما ارتكب من ذنوب ومعاص سواء ما تقدم منها وما تأخر ، وهو يباع كأسهم الشركات ، وقد يمنح الشخص بناءً على حصوله لهذا الصك أمتاراً في الجنة على حسب مقدار المبلغ الذي يقدمه للكنيسة وهذا الصك كان مشهوراً ومتداولاً في القرون الوسطى وإبان سيطرة الكنيسة على مقدرات البشر ، لكن يبدو أن هذا الأمر معطل الآن .

سابع عشر : الهرطقة

لقد حاربت الكنيسة العلوم والاكتشافات والمحاولات الجديدة لفهم الكتاب المقدس ، وصوبت سهامها إلى كل نقد ، ورمت ذلك كله بالهرطقة ومحاربة هذه الاتجاهات بالعنف والقسوة .

ويبدو أيضاً أن هذا الأمر كان سائداً إبان العصور الوسطى . وهو معطل الآن كما نعتقد .

ونستطيع القول إجمالاً بأن النصرانية قد أخذت من معظم الديانات والمعتقدات التي كانت موجودة قبلها ، وعندما دخل الرومان في الديانة النصرانية نقلوا إليها أبحاثهم الفلسفية وثقافتهم الوثنية ومزجوها بالمسيحية .

كما ان فكرة التثليث التي أقرها مجمع (نيقية) عام ٣٢٥م كانت انعكاساً للأفلوطينية الحديثة التي جلبت معظم أفكارها من الفلسفة الشرقية ، فأفلوطين الذين تتلمذ في الإسكندرية وضع أساس التثليث فاعتبر أن المنشئ هو الله ، وأن العقل هو الابن ، وأن الروح هو الروح القدس .

أن تأثر المسيحية بالديانات والمعتقدات التي سبقتها أفقد الديانة المسيحية لشكلها وجوهرها الأساسي الساطع الذي جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام من لدن رب العالمين .

جدير بالذكر أن اليهودي الخبيث بولس (شاول) الذي دخل النصرانية لعب دورا كبيراً في تحطيم الاتجاهات الصحيحة للمسيحية وذلك بإدخاله لفكرة التثليث والقول بألوهية السيد المسيح وأنه قام من الأموات وصعد ليجلس عن يمين أبيه .

كما ابتكر خرافة العشاء الرباني وغفران الذنوب مستمداً ذلك من الفلسفات الإغريقية والوثنية إلى غير ذلك . وهو نفسه الذي كتب اربعة عشر سفراً تعليمياً من أصل إحدى وعشرين رسالة تشكل مجموع الرسائل التي تعد مصدراً تشريعياً في النصرانية .

الحواريون . . . أو التلاميذ

الحواريون هم أصحاب المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة و السلام وخاصة الذين اختارهم ليكونوا تلاميذه ، فآمنوا به وتتلمذوا عليه وتعلموا منه واقتدوا به وكانوا اثني عشر رجلاً ، وهذه أسماؤهم كما وردت في إنجيل متى :

١- (سمعان) الذي يقال له بطرس .
٢- (اندراوس) أخو سمعان .
٣- (يعقوب) بن زبدي .

٤- (يوحنا) أخو يعقوب .
٥- (فيلبس) .
٦- (برثو لماوس) .
٧- ((توما) .
٨- (متى العشار) .
٩- (يعقوب) بن حلفي .
١٠- (لباوس) الملقب تداوس .
١١- (سمعان القانوني) الغيور .
١٢- (يهوذا الأسخربوطي) .

هؤلاء هم الحواريون الذين استجابوا للمسيح عليه الصلاة والسلام ، وهم الذين انتشروا في القرى والتجمعات اليهودية في فلسطين يدعون الكفار للاستجابة لدعوة المسيح . وقد أورد القرآن الكريم في عدة مواضع شأن هؤلاء الحواريين الذين وقفوا إلى جانب السيد المسيح وآمنوا به وأسلموا لله .

قال تعالى في سورة المائدة : ﴿وإذْ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون﴾[1] .

كما أورد القرآن سيرتهم في سورتي آل عمران والصف .

ولا مندوحه من القول بأن هؤلاء الحواريين رضي الله عنهم قد بذلوا جهوداً مضنية في نشر الدعوة العيسوية الروحية في مجتمع يهودي مادي عفن اعتبر المادة مقياساً لقيمة الإنسان .

ذلك المجتمع الذي يقع في أعناق أتباعه دم زكريا ودم يحيى ودماء زكية أخرى لها أول ومابرح آخرها ممتداً إلى أن يأذن الله تعالى .

﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقا يقتلون﴾ .

---

(١) سورة المائدة - الآية رقم ١١١

إن اليهود متفقون على أن المسيح أو المخلص الذي ينتظرونه سيرد لهم اعتبارهم وسيرد لهم ما سلبت يد الدهر منهم ، بعد أن وقع بهم ما وقع من القتل والتشريد والأسر على أيدي «جيرانهم الكفار» ، ويحرر إسرائيل ويتخذ «أورشليم» عاصمة له ويضم الناس جميعاً ليؤمنوا بيهوه والشريعة الموسوية ، ويسود بعد ذلك عصر طيب تسعد به الدنيا فتكون الأرض خصبة وتحمل كل حبة قدر ما كانت تحمله ألف مرة ، ويصير الخمر موفوراً ، ويزول الفقر ويصبح الناس كلهم أصحاء مستمسكين بالفضيلة وتسود العدالة والصداقة والسلام في الأرض كما يقول مؤلف قصة الحضارة .

وقد جاء المسيح عيسى بن مريم إلى اليهود لا ليضم ملك سليمان أو ليملأ أيديهم من زينة الحياة الدنيا وزخارفها ، ولكن ليطيب أرواحهم العليلة ، ولينزع الدّخَلَ والغش الذي ملأ قلوبهم وعزلهم عن المجتمع .

جاء المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إلى اليهود ليخلصهم من تلك الامراض الخبيثة الساكنة في نفوسهم المتسلطة على عقولهم ، وفي هذا خلاص لهم من كل شر ، وأمن لهم من كل سوء ، لو كانوا يعقلون! .

ولكن القوم : استقبلوا هذه الدعوة بوجوه منكرة ، وقلوب مغلقة فلم يروا فيها بارقة من بارقات الخير لهم ، فأداروا لها ظهورهم . ثم لم يلبثوا أن تخلصوا من المسيح المزعوم بزعمهم ليستقبلوا المسيح المرسوم بوهمهم ، وأنهم مازالوا في معرض الاستقبال ينتظرون وينتظرون . . وهيهات[١] .

وفي معنى قريب من هذا يقول الشاعر العربي الفحل أبو العلاء المعري :

---

(١) عبدالكريم الخطيب - المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل - دار المعرفة - بيروت ١٩٧٦

يا آل إسرال هل يرجى مسيحكم
هيهات . . قد ميز الأشياء من خُلبا
قلنا أتانا ولم يُصلب ، وقولكم
ما جاء بعد ، وقالت أمة صلبا
جلبتم باطل التوراة عن شحط
وربَّ شر بعيد للفتى . . جُلبا

وإذا كان اليهود شغوفين بمجيء «المخلّص» فمنبع شغفهم راجع إلى مضاعفة ثرواتهم المادية التي سيحصلون عليها ، وليس لكي يخلصهم من خطاياهم وذنوبهم ، لذلك نجدهم قد رحبوا به في باكورة ظهوره ولكنهم سرعان ما عادوه وعملوا على محاربته ، واتهموه بالكذب والنفاق .

لذلك نجده عليه الصلاة والسلام قد فر بدينه من الفتن والافتراءات التي افتراها اليهود عليه وعلى أمه الصديقة مريم ابنة عمران رضي الله عنها .

ويروي الرواة والعلماء كثيراً من الأقوال والحكايات التي تدل على سمو أخلاق هذا النبي العظيم .

لقد عاش حياته زاهداً في الحياة ، لم يستمتع بما يستمتع به الناس عادة من زينة الحياة الدنيا والتي صورها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ (المضعفة) من الذهبِ والفضةِ والخيل المسوّمة (الحسنة المعلمة) والأنعام (جمع نعم وهي الأزواج الثمانية التي ذكرها الله عز وجل من الضأن والمعز والابل والبقر) والحرث (الزرع) ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب (المرجع والمنقلب إلى الجنة)﴾[1] .

لم يكن عيسى يملك أي زينة من هذه الزينات الدنيوية حتى الزواج

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٤

لم يتزوجه وعاش حياته لم يمسس امرأة قط في الوقت الذي يزعم فيه اليهود أن نبي الله سليمان تزوج بألف امرأة! .

لقد ارتفعت أخلاق عيسى إلى اعلى درجات السمو الأخلاقي كما ارتقت الأخلاق السامية نفسها إلى مرتبة عيسى بن مريم في أخلاقه وسموه ولاعجب في ذلك فهو عليه الصلاة والسلام مؤيد بروح القُدُس . . ومن أكرمه ربه بهذه المنزلة الرفيعة فلن يلتفت -مجرد التفاتة- إلى العالم السفلي عالم الماديات و الغرائز والنزوات والشهوات ، لقد عاش المسيح حياته متبتلاً كابن خالته يحيى ، فأكرمهما الله أيما إكرام .

إضاءة على حياة المسيح ومواعظه

روى أبوهريرة عن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه حكى عن المسيح هذه القصة :

- «رأى عيسى رجلاً يسرق فقال : يا فلان أسرقت؟ قال : لا والله ما سرقت .

قال (عيسى) : آمنت بالله وكذّبت بصري!»

فبعد أن أقسم الرجل بالله انه ما سرق اضطر عيسى ذوقاً وأدباً إلى تصديقه لأنه حلف بالله .

- ويروى عن عيسى عليه السلام أنه مر ذات يوم برفقة أصحابه بجثة كلب وقد انتشرت رائحته العفنة وأزكمت الأنوف . وأشار أصحابه إلى نتانة تلك الرائحة وبشاعتها .

أما هو فمد يده نحو الكلب ، وقال : انظروا إلى بياض أسنانه ، كان يريد أن يعلم الناس استخراج أجمل ما في الإنسان من جمال ، والتغاضي عن أبشع ما في الإنسان من بشاعة ، وأعني بذلك بشاعة الخُلق لا الخَلق وشتان بين المعنيين .

ـ وقـد رسم أمـيـر المؤمنين أبوالحـسن علي بن أبي طالب في نهج البلاغة صورة ناطقة عن الزهد الذي عاش فيه جملة من الأنبياء الكرام وفي مقدمتهم محمد رسول الله صلى الله عليه وآله «والذي كان دليلاً لك في الأسوة ودليلاً لك على ذم الدنيا وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها إذا قبضت عنه أطرافها، وَوْطِئَتْ لغيره أكنافها، وفُطم عن رضاعها، وزُوي عن زخارفها».

ويواصل رضي الله عنه حديثه عن زهد الأنبياء بزهد نبي الله موسى فيقول:

«وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: ﴿رب إني لما أنزلتَ اليَّ من خير فقير﴾. والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بَقْلَةَ الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه».

ثم يتحدث رضي الله عنه عن زهد عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام فيقول:

﴿لقد كان يتوسَّد الحجر، ويلبس الخشن ويأكل الجَشَب (الطعام بلا إدام) وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه، ولا حال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه وخادمه يداه». [1]

ـ ونفس هذا المعنى النبيل ورد في رد ابن عباس رضي الله عنه حين سأله رجل عن الصيام فأجابه قائلاً:

لأحدثنك بحديث كان عندي في البحث مخزوناً، إن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم، فإنه كان يصوم الدهر

---

(١) ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة لأمير المؤمنين أبي الحسن علي بن ابي طالب - المجلد الثاني - دار احياء التراث العربي ١٩٨٩.

ويأكل الشعير ، ويلبس الشعر ، يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل صف بين قدميه وقام يصلي حتى يصبح وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم .

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران ، فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين .

ـ وقيل : كان عيسى عليه السلام إذا ذكرت عنده الساعة صاح قائلاً : لا ينبغي لابن مريم أن تذكر عنده الساعة ويسكت .

ـ وقيل انه صلى الله عليه وسلم كان يدعو ربه في الصباح قائلاً :

«اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتهناً بعملي ، فلا فقير أفقر مني!

اللهم لا تشمت بي عدوي ، ولا تسؤ بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتي في ديني ، ولا تسلط عليّ من لا يرحمني .

ـ وقيل : بينما عيسى يوماً نائماً على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم ، إذ مر به إبليس فقال : يا عيسى . . .

ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا ، فهذا الحجر من عرض الدنيا .

قال : فقام عيسى فأخذ الحجر فرمى به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا .

ـ وقيل إن عيسى عليه السلام قال للحواريين : كلوا خبز الشعير ، واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين ، بحق ما أقول لكم : إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين .

بحق ما أقول لكم : إن شركم عالم يؤثر هواه على علمه فإن الناس

كلهم مثله .

ـ وكان يقول :

حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة ، ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً .

ـ وكان عيسى بن مريم عليه السلام يقول واعظاً :

يا ابن آدم الضعيف . . اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة .

ـ وكان يقول :

كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قراراً .

ـ وكان يقول :

لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء .

ـ وكان يقول :

طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله .

ـ وكان يقول :

طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته ، وحفظ لسانه ووسعه بيته .

ـ وقيل : إن امرأة قالت لعيسى عليه السلام :

طوبى لحجر حملك ، ولثدي أرضعك ، فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه .

وكان يقول :

لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون .

ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا بها كأنكم عبيد ، فإن الناس رجلان معافى ومبتلى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية .

ـ وكان يقول :

إن أكل الشعير مع الرماد ، والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس .

ـ يا معشر الحواريين . . اجعلوا كنوزكم في السماء ، فإن قلب الرجل حيث كنزه .

ـ من تعلم وعلم وعمل دُعِيَ عظيماً في ملكوت السماء .

ـ لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ، ويعبر بك النادي .

ـ أشد الناس فتنة زلة العالم ، فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير .

ـ يا علماء السوء :

جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلوها ولا تدعون الناس يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه .

ـ أنا خبز الحياة ، من يُقبل عليّ لا يجوع .

ـ لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص ، وحيث يكون الكنز يكون القلب .

ـ يرون القذى في عيون غيرهم ولا يرون الخشبة في أعينهم .

ـ يحاسبون على البعوضة ويبلعون الجمل .

ـ في الظاهر جدران مبيضة ، وفي الباطن عظام نخرة .

ـ غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل في سم الخياط «إبرة الخياطة» .

ـ لا تطرحوا الدر أمام الخنازير .

ـ لا كرامة لنبي في وطنه .
ـ طوبى للمساكين بالروح . فإن لهم ملكوت السماوات
طوبى للحزانى ، فإنهم سيرثون الأرض .
طوبى للجياع والعطاش إلى البر . . فإنهم سيشبعون
طوبى للرحماء فإنهم سيرحمون
طوبى لأنقياء القلب فإنهم سيعاينون الله
طوبى للمضطهدين من أجل الحق ، فإن لهم ملكوت السماوات .
طوبى للودعاء ، فإنهم سيرثون الأرض .
أنتم ملح الأرض ، فإذا فسد الملح ، فأي شيء يرده ملحاً من جديد؟

الفصل الخامس
بعض معجزات السيد المسيح

المعجزة أمر خارق للعادة يكون مقروناً بالتحدي الذي يجريه الخالق عز وجل على يد أحد الأنبياء الذين يختارهم لنشر رسالته .

وقد أيد الله تعالى نبيه عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بعدد من المعجزات الدالة على نبوته حتى يستطيع إفحام اليهود وإقناعهم بصدق رسالته ، وردهم بالتالي إلى طاعة الله والإخلاص في عبادته . . وهذه هي أهم معجزاته . .

أولاً : كان يخلق لبني إسرائيل من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

ثانياً : كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله .

ثالثاً : كان يحيي الموتى بإذن الله .

رابعاً : كان يخبر الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم بإذن الله .

خامساً : أيده الله تعالى بمائدة من السماء أنزلها على الحواريين لتكون عيداً لأولهم وآخرهم واستجابة لرغبتهم .

سادساً : تكليمه للناس في المهد .

سابعاً : تعليمه التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام والتي اختفت بفعل التحوير والتزييف على مر السنين .

لقد بعث الله عيسى لقوم ينكرون الروح والبعث . . قوم ماديون حتى النخاع ، ينكرون الروح والنفس ويعزوهما إلى دم المخلوق .

وجاء عيسى بمعجزاته ليثبت لهم بالدلائل والبراهين المحسوسة أنهم مخطئون .

ويوضح لهم أن هذه الآيات كافية لتصديقه والإيمان له ، جاءت معجزاته مناسبة لهدف رسالته ، وهو الدعوة إلى تربية الروح ، والإيمان

بالبعث والنشور ، وإن هناك حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على عمله .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية من سورة المائدة :

﴿إذْ قالَ اللهُ يا عيسى بن مريم اذكرْ نعمتي عليكَ وعلى والدتك إذ أيدتُكَ بروحِ القُدُس (جبريل عليه السلام) تُكلمَ الناس في المهد (زمن الطفولة قبل أوان الكلام) وكَهْلاً (حال اكتمال القوة) وإذ علمتكَ الكتابَ والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخْلُقُ (تصور وتقدر) من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكْمَهَ (الأعمى خلقة) والأبرصَ بإذني وإذ تُخرجُ الموتى بإذني ، وإذ كَفَفْتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم : إنْ هذا إلا سحر مبين﴾[1] .

وهذه قراءة أُخرى في اللوحة القرآنية المعنية من سورة آل عمران :

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتُكُمْ بآيةٍ من ربكم أَني أَخْلقُ لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخُ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكْمَه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلونَ وما تدَّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومُصَدقاً لما بين يديَّ من التوراة ولأحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّمَ عليكم وجئتُكُمْ بآيةٍ من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم﴾[2] .

أما بالنسبة إلى المائدة التي طلب الحواريون من عيسى أن يطلب من ربه إنزالها عليهم ، فهي في جوهرها معجزة ، وقد اختلف المفسرون فيها ، ولكن الآثار الواردة في نزولها عن ابن عباس وسلمان الفارسي

---

(١) سورة المائدة ، الآية رقم ١١٠

(٢) سورة آل عمران ، الآيات من رقم ٤٩ إلى رقم ٥١

وعمار بن ياسر تشير باختصار إلى أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين أن يصوموا ثلاثين يوماً ، فلما صاموها طلبوا منه إنزال مائدة من السماء ليأكلوا منها وتطمئن نفوسهم إلى أن الله قد تقبل صيامهم ، وتكون في الوقت نفسه عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكفي لأول وآخر واحد فيهم .

فخاف عيسى عليهم ألا يشكروا الله عليها في حال نزولها عليهم . لكنهم أصروا في طلبهم .

وعندئذ تضرع نبي الله عيسى إلى ربه أن ينزل المائدة عليهم .

. . . . . ويحكي ابن كثير كيفية نزول المائدة بقوله :

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنو قليلاً قليلاً ، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة .

فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول :

«بسم الله الله خير الرازقين» .

فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة وقال : وخل ، ويقال : ورمان وثمار ، ولها رائحة عظيمة جداً . قال الله كوني فكانت[1] .

وقيل أن المائدة كانت تنزل على الناس مرة كل يوم ، فيأكل آخرهم كما أكل أولهم . وقيل أن سبعة آلاف كانوا يأكلون منها يومياً وببركة من الله لا تنفد ، فتم شفاء كل مريض أكل منها ، الأعمى شُفي من عماه ، والأبرص شفي من برصه ، والمطعون شُفي من طاعونه .

وهذه قراءة في اللوحة القرآنية المعنية من سورة المائدة :

﴿إذ قال الحواريون (أنصار عيسى عليه السلام) يا عيسى بنَ مريمَ هل يستطيعُ ربك أن يُنزلَ علينا مائدةً من السماءَ قال اتقوا الله إن كنتم

(١) ابن كثير قصص الأنبياء– مرجع سابق صفحة ٧٣٤

مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئنَّ قلوبنا ونعلمَ أنْ قَدْ صَدَقْتنا ونكونَ عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهمَّ ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إني مُنزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾(١) .

هذه هي دعوة نبي الله عيسى بن مريم . . وهي نفسها دعوة إخوانه الأنبياء جميعاً من لدن آدم إلى الخاتم محمدصلى الله عليه وآله وسلم .

كلهم أسلموا لله وجوههم وقلوبهم وعقولهم وأرواحهم فدخلوا في دائرة الإسلام بمعناه الشامل ، ودعوا الناس لدخوله . .

اعبدوا الله ربي وربكم . .

مقولة عيسى الخالدة . . ستبقى على خلودها وفاعليتها إلى الأبد .

ولأن الحق تبارك وتعالى يعلم ما ستؤول إليه المسيحية من اختلاف في وجهات النظر والرؤى حول طبيعة المسيح ، والزعم بألوهيته ، فقد أكد سبحانه وتعالى عبودية عيسى ونفى ألوهيته وفق الحوار التالي :

﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنْتَ قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق إن كنتُ قلتْه فقد عَلمتَه تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاَّم الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً (شاهداً) ما دمتُ فيهم فلما توفيتني (أخذتني إليك وافياً برفعي إلى السماء) كنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾(٢) .

واستمر نبي الله عيسى في نشر دعوته . .

---

(١) سورة المائدة ، الآيات من رقم ١١٢ إلى رقم ١١٥

(٢) سورة المائدة ، الآيتان ١١٦ ، ١١٧

البعض آمن به وصدقه . . والبعض الآخر كفر به وكذبه . .

برغم أنه أتاهم بالمعجزات ، ومؤيداً من الله . . ومصدقاً لما بين يديه من التوراة . ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد . . وهو الاسم المحفوظ في السماء لحبيبنا المصطفى محمدصلى الله عليه وآله وسلم ولكن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . لقد كانت قلوبهم مريضة فزادهم الله مرضاً على مرضهم ، ولو لم يكونوا كذلك لما قالوا إنه سحر مبين .

قال ربنا جل جلاله :

﴿وإذْ قالَ عيسى بن مريم يا بني إسرائيلَ إني رسولُ الله إليكم مصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾(١) .

واستمر قنديل الهداية العيسوي في عطائه . . وإضاءته دروب السالكين إلى صراط الله المستقيم . .

ظل متوهجاً منذ البداية . . وحتى النهاية . . .

والذين يقرأون كتاب العطاء العيسوي ، يتصورون أن ذلك العطاء استمر زمناً طويلاً . لكنه في الحقيقة لم يصل منذ بدايته حتى نهايته إلى الأربعة عقود . . بل هو تحديداً ثلاث وثلاثون سنة فقط لا غير!!

أبلغه الروح الأمين بمهمة الرسالة وهو في الثلاثين من عمره . .

وفي الثالثة والثلاثين انطفأ القنديل في دنيانا الفانية .

وقام اليهود كعادتهم ببطولة مأساة السيد المسيح . .

اتهموه بالاعتداء على الشريعة ، وبالتعامل مع الجن الشياطين وممارسة الشعوذة والسحر والدجل .

وهم يدركون في قرارات نفوسهم أن تلك مجرد افتراءات . . لكن الحقيقة التي يحاولون إنكارها في العلن أن تعاليم السيد المسيح

---

(١) سورة الصف ، من الآية رقم ٦

تحرجهم وتهدد هيمنتهم على مقدرات الأمور وبخاصة الكهنة والفريسيين[1] .

فذهبوا إلى الوالي الروماني وحاولوا إيغار صدره على السيد المسيح ، لكنه لم يأبه بهم في البداية مما اضطر المجلس التشريعي اليهودي (السنهدرين) لعقد جلسة طارئة لبحث سبل وقف الخطر العيسوي الذي يهدد سيادتهم ومصالحهم . .

تطوع تلميذ خائن من تلاميذ السيد المسيح الاثني عشر ، وتكفل بتسليمه إليهم . . ذلك التلميذ الخائن دخل التاريخ من أضيق أبوابه . . وأحقرها . . ويدعى (يهوذا الإسخريوطي) .

باع ضميره بثلاثين شاقلاً من الفضة مقابل قتل الفضيلة والتسامح والحب . .

ودخل الوالي الروماني على الخط . . وتم التنسيق بينهما ، ووجهت إلى المتهم (البريء) أخطر تهمة يواجهها نظام حكم في العالم . . وهي تدبير مؤامرة ضد أمن الدولة وزعزعة الحكم فيها ، وعلى الفور صدر الأمر بإلقاء القبض على عيسى وإعدامه مصلوباً .

أرسل الوالي جنوداً للقبض على [المتهم] عيسى بن مريم . .

وأحاطوا به وحاصروه . . وأوشكوا أن يقبضوا عليه . .

وجاء فرج الله القريب . . وصدرت الإرادة الإلهية بإنقاذ عيسى ، فأنقذه العزيز الحكيم من أيديهم وطهره منهم ، وألقى شبهه على يهوذا الأسخربوطي ذاته . . والذي كان يشبه في الخلقة نبي الله عيسى (يسوع) بحيث أن كل من رآه لا يشك أنه يسوع نفسه .

(١) الفريسيون هم الدراويش أو الزهاد الذين قطعوا صلتهم بالعالم بغير ضرورة ، وكانوا قد فسدوا ، وعمل عيسى عليه السلام على ردهم إلى طريق الحق . وبيَّن فساد ما هم عليه من الطمع والجشع والتهالك على الحياة بكل ما فيها من متع مادية ، وفضح رياءهم وخبثهم .

فأخذوه وصلبوه وقتلوه . .

وأنجى الله عيسى بن مريم . . عبده ورسوله من شرهم ، ورفعه إليه في السماء ، وانتشر الخبر بين الناس بأن المسيح قُتل بعد أن صُلب .

وللعلماء والمفسرين والمؤمنين أقوال كثيرة في هذا الموضوع لا حاجة بنا لعرضها .

. . . . . .

أما شريعتنا الإسلامية فقد جاءت بالحق المبين . ذلك أن الله تعالى نجّى عيسى من كيد أعدائه ورفعه إليه ، فما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم .

ولنقرأ اللوحة القرآنية المعبرة عن هذا المضمون من سورة النساء :

﴿وقولِهم إنّا قتلْنا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسولَ الله وما قتلوه وما صَلَبوهُ ولكنْ شُبِّهَ لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباعَ الظنِّ وما قتلوه يقيناً بلْ رفعَهُ الله إليه وكانَ اللهُ عزيزاً حكيما﴾[1] .

ونقرأ نفس المعنى في اللوحة القرآنية التالية من سورة آل عمران :

﴿إذ قال الله يا عيسى إني مُتَوفيكَ (آخذك وافياً بروحك وبدنك) ورافعك إليّ ومطهركَ من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوكَ فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليَّ مَرْجِعُكم فأحْكمُ بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾[2] .

والسائد لدى غالبية المسلمين أن الله تعالى قد رفع نبيه عيسى بروحه وجسده حياً إلى السماء ، ويستدلون على ذلك بقول الحق تعالى : إني متوفيك ورافعك إليَّ . . ويقال- والله تعالى أعلم- في هذا

---

(١) سورة النساء ، الآيتان ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) سورة آل عمران ، الآية رقم ٥٥

المجال إن الأخبار المأثورة وردت ناطقة بأن السيد المسيح ما زال حياً في السماء وأنه سينزل في آخر الزمان ويقوم بقتل المسيح الدجال!

ولكن ماذا عن نهاية المسيح عند اليهود والنصارى؟!

لا يوجد لدى اليهود أي أثر علمي يدل على أن رجلاً جاء باسم «المسيح» في زمن كذا وصلب وقتل، ولا يوجد في تاريخهم الديني شيء من ذلك أصلاً، وهذا هو الذي حدا ملاحدة أوروبا على إنكار وجود المسيح واعتباره إنساناً فرضياً كالأشخاص الذين يفرض وجودهم في الروايات ولا وجود لهم في الحقيقة(١).

أما عن نهاية المسيح عند النصارى فقد كانت نهاية محزنة ومروعة، وقد جعلوا الاعتقاد بحدوثها في صورتها التي رسموها دعامة من دعائم عقيدتهم، فلا يمكن قبول عبادة من أحدهم إلا باعتقاده الجازم بصلب المسيح.

فعللوا ذلك قائلين: إن أبا البشر آدم عصى ربه بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها. فأصبح بعدئذ خاطئاً وصار جميع ذريته بالتالي خطاة يستحقون الهلاك الأبدي عقوبة لهم، وقد جاءت أنسال آدم خطاءة مذنبة، فهم بالتالي يحملون تبعات ذنوبهم وذنوب أبيهم الذي يعتبر المصدر الأساسي للذنب!

ويمكن الرد على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ بمعنى أنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى. وكفى.

ويقول النصارى أن الله مركب من ثلاثة أقانيم(٢): الأب والابن والروح القدس وهذه كلها واحد، فانحدر الله الذي هو الأب والابن

---

(١) عبدالوهاب النجار- قصص الأنبياء- مرجع سابق

(٢) أقانيم: مفردها أقنوم (الشخص: شخصية المسيح التي تجمع الطبيعتين الإلهية والبشرية).

(على اختلاف أقوالهم) وحل في مريم وتجسد إنساناً وولد منها «يسوع» . . . إلخ .

وهذه المزاعم لم يقلها المسيح- حاشا لله- ولكن النصارى أحبوا أن يوفقوا بين عقيدتهم السابقة وبين الدين الجديد ، وأخذوا يؤلهون المسيح ويدعون أن الله انحدر منه (أقنوم الابن) المتحد مع «الأب» و«الروح القدس» وتجسد في رحم «مريم» ثم خرج إنساناً مؤلهاً . . والعجيب أن المسيح لم يقل ذلك ولم يعلم به . . ووردت في القرآن الكريم لوحات قرآنية عديدة تدحض هذه الافتراءات بصور واضحة ومباشرة .

تقول اللوحة القرآنية في سورة النساء :

﴿لن يستنكفَ (يترفع) المسيُح أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون ومن يَسْتنكفْ عن عبادَته ويستكبرْ فسيحشُرهم إليه جميعاً﴾[1] .

وهذه قراءة أخرى في اللوحة القرآنية المعنية من سورة المائدة :

﴿لقد كفرَ الذين قالوا إن اللهَ هو المسيحُ ابن مريم قل فمنْ يملكُ من الله شيئاً إن أرادَ أن يُهلك المسيحَ ابن مريم وأمه وَمن في الأرض جميعاً﴾[2] .

ومنها أيضاً :

﴿ما المسيحُ ابن مريم إلا رسولٌ قد خَلَتْ (مضت) من قبله الرسل وأُمهُ صدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون (كيف يصرفون عن الدلائل الواضحة؟) ﴾[3] .

وقال تعالى في سورة التوبة :

﴿وقالتْ اليهودُ عُزَيْر ابن الله وقالت النصارى المسيحُ ابن الله ذلك

---

(١) سورة النساء ، الآية رقم ١٧٢

(٢) سورة المائدة ، من الآية رقم ١٧

(٣) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٥

قولهم بأفواههم يُضاهئون (يشابهون) قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾[1] .

هذا وهناك آيات قرآنية عديدة أخرى تؤكد وحدانية الله تعالى ، وتدحض مزاعم بعض طوائف النصارى بألوهية المسيح . فليرجع إليها من يشاء وذلك في سورة التوبة ومريم والزخرف والصف .

ونختتم حديثنا عن نبي الله عيسى بقول المرحوم عباس محمود العقاد :

لقد كان لب الرسالة المسيحية في لب رسولها المسيح ، هداية إنسان لا صولة له على أحد غير العطف والإلهام ومكاشفة القلوب والأفهام[2] .

وننهي هذا الفصل بالقول الفصل الذي ورد في سورة الاخلاص في قول ربنا العزيز الحكيم :

﴿قل هو الله أحد الله الصمد (هو وحده الذي يُقصد في الحوائج﴾ . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً (مكافئاً ومماثلاً) أحد﴾[3] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[4] .

علاقة الإسلام بأهل الكتاب

وجرت مياه كثيرة في نهر الحياة منذ أن بعث الله تعالى أنبياءه ورسله لهداية الناس ، وإرشادهم إلى طريق الحق ، طريق الحياة .

---

(١) سورة التوبة ، الآية رقم ٣٠ .

(٢) عباس محمود العقاد ، عبقرية المسيح ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان .

(٣) سورة الإخلاص ، الآيات من رقم ١ إلى رقم ٤ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية رقم ٨٥

وعندما أكرم الله البشرية بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لحمل أمانة الرسالة الإسلامية خصه ربه بالكمال الإنساني ، وختم به الرسالات ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس .

وقد جاء في الحديث الصحيح ما يثبت أن كمال البناء الإنساني قد تحقق بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقال عليه الصلاة والسلام :

«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون :

«هلا وضعت هذه اللبنة؟»! قال : «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» .

وقد كانت علاقة الإسلام بأهل الكتاب علاقة مثالية في الوداد والتسامح والإخاء ، وضرب الرسول الحبيب لأمته مثالاً عملياً على احترام أهل الكتاب في أكثر من موقف .

وكان زواجه من أم المؤمنين مارية القبطية مثلاً واضحاً لعلاقة حميمية دامت طويلاً .

وروى ابن عباس أن رجلاً من بني سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ولدان مسيحيان ، فأسلم وسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما إذا كان يجب عليه إكراه ولديه على اعتناق الإسلام ، وهما يرفضان كل دين غير المسيحية . فأنزل الله تعالى الآية الكريمة : ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغَيّ﴾ .

وقال حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم :

«الأنبياء إخوة ، دينهم واحد ، وأمهاتهم شتى ، وأنا أوْلى الناس بعيسى ابن مريم فليس بيني وبينه نبي» . .

وفيما كان رسولنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم جالساً ذات يوم إذ مرت من أمامه جنازة فقام احتراماً وتقديراً لها فقيل له إنها جنازة

يهودي فقال : إليست هي نسمة؟»

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «من آذى (ظلماً وعدواناً) يهودياً أو نصرانياً كنت خصمه يوم القيامة ، قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم» .

ونختتم بالقول إن مقياس التفاضل عند الله «الإيمان والعمل الصالح وجماعة التقوى» .

وقد روى المفسرون في هذا الشأن أن نفراً من المسلمين والنصارى واليهود جمعهم يوماً مجلس بالمدينة ، ودار الحديث بينهم على شكل محاورة .

فقال اليهود :

نحن أوْلى بالله منكم ، لقد آمنا بموسى وعندنا التوراة .

وقال النصارى :

بل نحن أوْلى بالله منكم ، آمنا بموسى وعيسى وعندنا الإنجيل .

وقال المسلمون :

بل نحن أوْلى بالله منكم ، لأننا آمنا بموسى وعيسى ومحمد وعندنا القرآن ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ليس بأمانيّكم ولا أمانيِّ أهلِ الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً ومن يعملْ منِ الصالحاتِ من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً (النَقرة في ظهر النواة)﴾[1] .

وهناك أمثلة كثيرة ماضياً وحاضراً لا مجال لذكرها الآن : وكلها تؤكد احترام الإسلام لأهل الكتاب .

وأخيراً نتساءل : هل سينزل السيد المسيح إلى الأرض؟ إن مهمة السيد المسيح عليه السلام لم تنته بعد ، وقد أخبر الصادق المصدوق

---

(١) سورة النساء ، الآيات من رقم ١٢٣ إلى رقم ١٢٥

عليه وعلى آله الصلاة والسلام إن المسيح سينزل إلى الأرض ليتم رسالته ، ويبلغ دعوته ، ونحن المسلمين نؤمن بما أخبر عنه دستورنا العظيم وبما حدث عنه المصطفى فقد ورد في الحديث الشريف قوله :

«يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم ويضع الجزية» الحديث . .

وسيحكم بشريعة القرآن فلا يقبل من أحد إلا الاسلام .[1]

ناصرة المسيح

ولكي تكتمل الصورة فهذه إضاءة مختصرة عن مدينة «الناصرة» التي ولدت فيها مريم العذراء ، وبشرت بالمسيح ، وفيها نشأ السيد المسيح وقضى معظم حياته .

وتعتبر مدينة الناصرة من أجمل مدن فلسطين وأكبرها ، وتقع في الشمال الفلسطيني ضمن الوحدة الطبيعية المعروفة باسم «الجليل» وعرف عن الناصرة بأنها «زهرة الجليل» .

وهي مدينة قديمة ، ولكن أول ذكر لها ورد في الإنجيل لارتباطها بنشأة السيد المسيح . ومنذئذ بدأت أهميتها تدخل في صلب التاريخ الديني المسيحي واليهودي ، وبنيت فيها أول كنيسة في عام ٤٥٠م وحملت اسم كنيسة البشارة .

ودخلت المدينة في حوزة العرب المسلمين عام ٦٣٤ على يد القائد شرحبيل بن حسنة فاتح شمال فلسطين وكانت تابعة لجند الأردن .

وفي عام ١٥١٧م دخلت الناصرة بحوزة العثمانيين ، وبقوا فيها حتى هزيمتهم إبان الحرب العالمية الأولى حين دخلها الإنجليز في عام ١٩١٨م .

وعلى أثر الهزيمة العربية المشهورة في عام ١٩٤٨ سقطت الناصرة في

---

(١) محمد علي الصابوني ، النبوة والأنبياء ، مكة المكرمة ، ١٩٨٠ .

أيدي اليهود .

هذا وقد نسب السيد المسيح إلى مدينة الناصرة ، ودعي «يسوع الناصري» كما نسب إليها أتباعه النصارى ، وبعد ظهوره فيها أصبحت الناصرة المدينة الوحيدة المقدسة في مقاطعة الجليل حيث يقصدها الزوار من جميع أنحاء العالم ويحج الكثيرون منهم إليها كما يحجون إلى القدس وبيت لحم .

ويوجد حالياً بالناصرة نحو ثلاثين كنيسة وديراً .

والناصرة اليوم هي مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في المنطقة الشمالية من فلسطين .

أما في الجانب الغربي فالمدينة هي قاعدة الحياة الثقافية في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ .

. . . . انتهت حلقات «أنبياء الله في فلسطين» ونرجو الله حسن القبول .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : الحديث الشريف

ثالثاً : المراجع

١ - إبراهيم أبو الأنبياء ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية ، صيدا .

٢ - الأديان والإنسان ، خليل طاهر ، دار الفكر والفن ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٣ - البداية والنهاية ، الحافظ بن كثير ، دار المعرفة ، بيروت

٤ - التناقض في تواريخ وأحداث التوراة ، محمد قاسم محمد ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٥ - التراث اليهودي والصهيوني والفكر الفرويدي د . صبري جريس ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٦ - التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم الخطيب

٧ - الفخر الرازي ، دار التراث العربي ، بيروت

٨ - الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، القاهرة .

٩ - الشعب المختار في الميزان ، عبد المعز عبد الستار ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

١٠ - أنبياء الله ، أحمد بهجت ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

١١ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الرياض .

١٢ - إبراهيم عليه السلام ، أحمد البراء الأميري ، جدة ، ١٩٨٦ .

١٣ - الموسوعة الفلسطينية ، دمشق ١٩٨٨ .

١٤ - المسيح والقرآن والتوراة والإنجيل ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٦ .

١٥ - النبوة والأنبياء ، محمد علي الصابوني ، مكة المكرمة ، ١٩٨٠ .

١٦ - تفسير القرآن الكريم ، الحافظ ابن كثير ، دار المعرفة ، بيروت .
١٧ - تفسير الجلالين (على حاشية الجمل) .
١٨ - دائرة المعارف البريطانية ، لندن ، ١٩٧٦ .
١٩ - في ظلال القرآن ، سيد قطب .
٢٠ - شرح نهج البلاغة للامام علي بن أبي طالب ، ابن أبي الحديد ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
٢١ - شعراء حول الرسول (ص) ، خضر تايه ، نبيل الآغا ، عمان ، ١٩٩٨ .
٢٢ - صحيح البخاري .
٢٣ - قصة الحضارة ولْ ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
٢٤ - قصص الأنبياء ، محمد أحمد جاد المولى ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٢٥ - قصص الأنبياء ، الحافظ بن كثير
٢٦ - لن نقول للقدس وداعاً ، نبيل خالد الآغا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٨ .
٢٧ - قصص الأنبياء ، عبد الوهاب النجار ، القاهرة .
٢٨ - منهج القصة في القرآن الكريم ، محمد شديد ، بيروت .
٢٩ - مدائن فلسطين ، نبيل خالد الآغا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٣ .
٣٠ - مجموعة من التفاسير ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٣١ - صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، الدوحة ، ١٩٨١ .
٣٢ - نساء في حياة الأنبياء والرسل ، رويدا البربري ، دمشق .
٣٣ - يوسف في القرآن الكريم والتوراة ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٩٤ .
٣٤ - يوحنا المعمدان ، عبد الرزاق نوفل ، مطبوعات الشعب ، القاهرة .

محتويات الكتاب

كتب صدرت للمؤلف

١ - الشهيد الحي عبد القادر الحسيني - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ١٩٨١ .

٢ - مدائن فلسطين . . دراسات ومشاهدات - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٣ .

٣ - شعراء حول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . . مشترك ، دار البشير للطباعة والنشر ، عمان ، ١٩٩٨ .

٤ - لن نقول للقدس وداعاً ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٨ .

٥ - شذرات في اللغة والأدب «خمسة أجزاء» مشترك ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠١ .

٦ - أنبياء الله في فلسطين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠١ .

كتب قيد الطبع

١ - وجوه فلسطينية خالدة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ؛ بيروت .

٢ - مدائن عربية . . دراسات ومشاهدات ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .